الأخلاق عند الغزالي

تأليف

الدكتور زكي مبارك

قُدِّم هذا الكتاب الى الجامعة المصرية ، ونُوقش أمام الجمهور في ١٥ مايو سنة ١٩٢٤ ، ونال به المؤلف شهادة العالمية بدرجة « جيد جداً » ولقب دكتور في الآداب

« وكلما عظم المطلوب وشرف ، صعب مسلكه ، وطال طريقه ، وكثرت عقباته »
الغزالي

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر
لصاحبها مصطفى محمد

77178

المطبعة الرحمانية بمصر
لصاحبها عبد الرحمن موسى شريف

الاهداء

الى حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول

مولاى

بفضلك نهضت الجامعة المصرية ، وبعنايتك تؤدى ما أُعِدَّت له : من تهذيب النفوس ، وتثقيف العقول

وهذا يا مولاى كتاب نلت به الشهادة العليا من الجامعة ، فكان من الحق أن أتشرف بإهدائه إلى مقامك الجليل ، اعترافاً بما لجلالتك من الفضل على ذلك المعهد ، وأملاً فى أن تغمره بفضلك من جديد ، والسلام

عبدكم
زكى مبارك
دكتور فى الآداب

مقدمة

لم يكد مؤلف هذا الكتاب يجتاز امتحان الدكتوراه مصحوباً بالتوفيق ، حتى قام نفر من أصحاب الأغراض : يذيعون عنه المفتريات ، ويتقولون عليه الأقاويل . وقد بدا للمؤلف أن يدفع الشر بالشر ، ولكن أستاذه الفيلسوف الدكتور منصور فهمى كتب إليه خطاباً يوصيه فيه بالرفق ، وينصح له بالتثبت ، ويدعوه الى مقابلة الشر بالصفح الجميل

والمؤلف يثبت هنا هذا الأثر الخالد ، ويشكر أستاذه على نصيحته القيمة ، ويعاهد ربه وقومه على أن لا يعمل غير ما يعتقد أنه حق وصواب

أخى العزيز

طالما وجدنا فى تاريخ الأفكار عامةً حملاتٍ للنقد شديدة . وطالما رأينا علماء المسلمين وفلاسفتهم ينال بعضهم بعضاً بالنقد والتجريح . وطالما غلَوا فى النقد حتى انقلب إيذاء وإيلاماً

ولكن هل أخفت شدة النقد يوماً فضل المنتقد عليه ؟ وهل ضنَّ الزمان على المنتقدين بما هم أهل له : من الحرمة والمكانة ؟ وكيف ذلك ، والنقد ليس إلا أداةً لإظهار الحقائق واضحةً جلية ؟

ولئن كان للناقد فضل فى إظهار خطأ المنتقد عليه ، فلقد كان لهذا أعظم الفضل بسبقه الى موارد العلم ، وخوضه فى مسائل كانت سبباً فى يقظة هذا الباحث الأخير

***

إلا أنه يجمل بنا حين ننظر فى كتب المتقدمين ، الذين يخالفوننا فى أساليب البحث ، ومناهج التفكير ، أن نتمثل أنفسنا فى أزمنتهم ، وأمكنتهم ، وأن نتمثل ما استخدموه للحصول على الحقائق من مختلف

الأدوات : لكى نلتمس لهم العذر ، إذا رأيناهم لم يصلوا الى الأغوار البعيدة ، التى ينبع منها الماء صافياً نقيا

وما أبعد الفرق بين من يدخل الهيجاء بما سلّحته به العصور الخوالى من سهام ونبال ، وبين من يدخلها مدرّعاً بما ابتدعته العصور الحديثة من معدات النزال ! وما أكبر الفرق بين الضوء ينبعث من زيت المصباح ، وبين النور يتفجّر من ثُريّات الكهرباء ! ولكننا مع ذلك أيها الأخ العزيز نعجب بأصحاب القِسِىّ والنِّبال ، اذا لم تنقصهم الشجاعة ، ولم يفتهم الثبات ، ونحمد الأضواء الضئيلة التى تنبعث من زيوت المصابيح ، لأنها على ضآلتها تصدع جوانب الظلام

فاذا رأينا الغزالى غفل عن حقيقة تنبّهنا نحن اليها ، أو أُغلِق عليه موضوع فُتِحت لنا أبوابه ، أو أدركه وهن فى الرأى ، أو تناقَضَ فى فهم فكرة ، فجدير بنا أن نقدّر ظروف زمانه ومكانه ، وأن نذكر كيف كانت وسائله الى الفهم والإدراك ، قبل أن نصبّ عليه جام اللوم والتثريب

إن أهل تلك الأعصر الخالية ، كانوا يعتمدون كثيراً على ذاكرتهم ، وكانوا فى الوقت نفسه يتناولون كثيراً من الموضوعات ، لأن فكرة الإخصاء وتوزيع الأعمال ، لم تكن مألوفة لديهم على نحو ما هى اليوم ، وكانوا يرون الجد فى طلب العلم طاعةً لله . فمن ثمّ حفظوا كثيراً ، وكتبوا كثيراً ، ولكن ضاق وقتهم ، ووهنت قوتهم ، فلم يستطيعوا ترتيب ما كنزوا من العلوم الكثيرة ، فخلطوا الغث بالثمين ، وعرض لهم الضعف ، والتناقض ، والاضطراب

وكذلك كان من أكبر الخدمات أن يتناول الشباب المثقف كتب المتقدمين ، فيدرسها ، ويفهمها ، ويحللها ، ثم يبيّن ما فيها من الخطأ والصواب . ومن أولى بذلك من طلبة الجامعة المصرية ، التى أنشئت لوصل القديم

بالجديد ، وحث الخَلَف : على الانتفاع بميراث السلَف ، وإنقاذ الجيل الحاضر ، من غلطات الجيل الغابر ؟

لا يخطئ من يتناول كتب المتقدمين بالدرس ، والتمحيص ، والتهذيب ، بل ذلك حق وواجب ، لأن فيه حياةً لما يجب أن يحيا من الأفكار ، وموتاً لما يجب أن يموت من الأوهام ، ولأن فى النقد الصحيح تهذيباً للمشاعر ، وتنويراً للعقول

وإنما يخطئ من يبالغ فى حب المتقدمين ، فينسى سيئاتهم ، مع أن لهم سيئات ؛ أو يبالغ فى بغضهم ، فينسى حسناتهم ، مع أن لهم كثيراً من الحسنات . والنقد الحق يرتكز على سرد المحاسن والعيوب ، بلا جَوْرٍ ولا محاباة ، وقد يذهب بصاحبه الى التوفيق بين الآراء المختلفة ، فيجعل من الزوايا المتعددة التى تنظر منها الى الحقائق شكلا واحداً منسجم الترتيب تنظر من نواحيه الى تلك الحقائق . فأعداء النقد ليسوا فقط أعداء لحرية الآراء ، ولكنهم أعداء لمنازع التوفيق

***

وأنت يا أخى درست مؤلفات الغزالى ، وفهمتها ، وحللتها ، وبينت ما فيها من الخطأ والصواب ، فماذا ينقم الناس منك ، وقد ذكرته بالخير ، حين رأيت أن يذكر بالخير ، وذكرته بالملام ، حين رأيت أن يذكر بالملام ، وما كان الغزالى بأكبر من أن يخطئ ، ولا كنت أنت بأصغر من أن تصيب

لقد راعهم أن يقسو قلمك على مؤلف له عندهم حرمة وقداسة ، وكان عليهم أن يذكروا أنك شابٌ ، وأن قلم الشباب قاسٍ شديد . بل ليتهم عملوا بما طالبوك به من الرفق والهدوء ، فلم يوجهوا اليك قارص اللوم ، ومر التأنيب

كانت رسالتك مثاراً للجدل والمناقشة ، ويعلم الله أنا لم نغضب لذلك . لأنا نريد أن نخدم الحقيقة ، والحقيقة بنت البحث . وهل علّمناك الا أن

تكون خادماً للحقيقة ولو شقَّ اليها الطريق ؟ فما دمت ترى أنك على حق ، وما دمت تعتقد أنك سائر على الصراط السَّوى ، فلك أن تتمسك برأيك ، وتدافع عن حقك ، ولكن فى رفق ونزاهة ، فان الحق لا يخدم بمثل الرفق والنزاهة . وكما يجب عليك أن تدافع عما تعتقد أنه حق ، فان عليك أن تنفض يدك بسرعة البرق مما تعتقد أنه باطل ، فان الرجوع الى الحق فضيلة ، والتمادى على الباطل نقيصة ، وليس بعد الحق إلا الضلال

***

لقد علّمتنا رسالتك ، بجانب ما تناولته من الأبحاث العديدة ، أننا قطعنا شوطاً بعيداً فى سبيل الآراء الحرة ، المدعمة بالقوة والنهوض . وان كنا نأسف على أنه لا تزال هناك صدور ضيّقة ، يؤذيها الهواء الطليق ، وكان الخير فى أن تستروح به ، وتسكن اليه . ونأسف كذلك على أن عدد هؤلاء كثير . وعدد المفكرين قليل

لقد زاد اغتباطى برسالتك أنها أول رسالة قيمة تناولت تاريخ الأفكار الاسلامية بالنقد والتحليل ، وأرجو أن تكون خطوة تتبعها فى هذا المدى خطوات . وان كان يحزننى أن يتألّب عليك رجال المعهد الذى أعدّك لدخول الجامعة المصرية . ولكن الانصاف يقضى علينا بأن نعترف بأن هذه سيئة لم ينفرد بها الأزهريون . فانا نرى بكل أسف أن الأزهريين يرمون أصحاب الأفكار الحرة بالكفر والمروق ، وأنصار الآراء الجديدة يرمون الأزهريين بالجهل والجمود . وهم جميعاً من المسرفين

واذا كان لى أن أنصحك — ومن الواجب أن أنصحك — فانى أدعوك الى حرب هذه الضلالة . وحذار أن تقاطع أحداً من أساتذتك وزملائك فى الأزهر الشريف ، فانكم جميعاً طلاب علم ، وأنصار حق ، والتوفيق بينكم ليس بالأمر المحال

لقد فات كثيراً من عشاق الجديد أن يضموا اليهم أنصار القديم بالرفق والمجاملة ، وأنت بحمد الله ربيب الأزهر والمعاهد الدينية ، فماذا يضرك لو وصلت أساتذتك وزملاءك ، وجادلتهم بالتي هي أحسن ، لتسيروا أصفياء في التوفيق بين القديم والجديد

انى أخشى عليك كثيرا أيها الأخ ، فقد رأيت كيف قامت القيامة حين اطلع الجمهور على جانب واحد من رسالتك ، فماذا عسى أن يصنع هذا الجمهور حين يطلع على ما فيها من شتى الجوانب ، ومختلف الأرجاء ؟

ولكن اياك أن تجزع ، وقد بُدئت حياتك العلمية ، بصدمة من تلك الصدمات الاجتماعية ، فذلك دليل على أنك خادم من خدام الإصلاح ، وهو خير لقب تلقى به الله

ولك خالص الدعوات ، والعطف ، والسلام

منصور فهمى

المؤلف — أكرر الشكر لسيدى الأستاذ الدكتور منصور ، وأؤكد له أن بينى وبين علماء الازهر الشريف عُرى لا تقدر على فصمها الليالى . وان أنسى ما حييت أنى مدين على الأقل لحضرات أساتذتى الأماجد الشيخ الدجوى والشيخ اللبان والشيخ الظواهرى والشيخ الزنكلونى والشيخ حسين والى والشيخ سيد المرصفى . فاذا قضت الظروف بأن تنقطع بينى وبين الأزهر جميع الصلات — لا قدر الله ولا سمح — فانى لن أنسى ولن ينسى أحد أنى مدين لاساتذتى فى الازهر ، وأن خروجى عليهم ضرب من العقوق ، ونكران الجميل

اللهم ان كنت تعلم أنى صادق فيما أقول ، فاجزنى بخير ما يجزى به المؤمن الصادق ، وان كنت تعلم أنى أظهر غير ما أضمر ، فاغفر لى وتب علىّ فانك وحدك التواب الغفور

فاتحة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين

وبعد فهذا هو الكتاب الذى نلت به اجازة الدكتوراه من الجامعة المصرية ، والذى سلقنى العلماء من أجله بألسنة حداد

هذا هو كتاب (الأخلاق عند الغزالى) أقدمه للجمهور : ليكون المرجع لمن يريد أن يتبين مبلغ المغرضين من الصدق ، وحظ المرجفين من الصواب

هذا هو الكتاب الذى رميت من أجله بالكفر والزندقة ، والذى فَجّر لحسادى ينبوعاً من اللغو والثرثرة لاينضب ولا يغيض . وما أنا والله بنادم على رأى رأيته ، أو قول جهرت به ، فلست ممن يخافون فى الحق لومة لائم ، أو يقيمون وزناً لكيد الحاسدين ، ولغو اللاغين ، من مرضى القلوب ، وضعاف العقول ،

وصغار النفوس ؛ وإنما يحزننى مايلاقى أصدقائى من العنت فى دفع مايفترى الكاذبون ، ويختلق المفسدون

على أن الغزالى رحمه الله عانى من حاسديه مثل ما عانيت ، ولاقى ضعف مالاقيت ، حتى لنجده يُطَمْئِنُ أحد إخوانه بقوله « رأيتك أيها الأخ المشفق موغر الصدر ، مقسّم الفكر ، لما قرع سمعك من طعن طائفة من الحسدة على بعض كتبنا المصنفة فى أسرار معاملات الدين ، وزعمهم أن فيها مايخالف مذهب الأصحاب المتقدمين ، والمشايخ المتكلمين ، وأن العدول عن مذهب الأشعرى ولو فى قيد شبر كفر ، ومباينته ولو فى شئ نزر ضلال وخسر ، فهوّن أيها الأخ المشفق على نفسك ، لاتضيّق به صدرك وقلّ من غربك قليلا ، واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا ، واستحقر من لايحسد ولايقذف ، واستصغر من بالكفر والضلال لايعرف ، فأى داع أكمل وأعقل من سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وقد قالوا انه مجنون من المجانين ، وأى كلام أجل وأصدق من كلام رب العالمين ، وقد قالوا انه أساطير الأولين ، وإياك أن تشتغل بخصامهم ، وتطمع فى إفحامهم ، فتطمع فى غير مطمع ، وتصوّت فى غير مسمع ، أما سمعت ماقيل :

كل العداوة قد ترجى إزالتها * إلا عداوة من عاداك عن حسد

ولو كان فيه مطمع لأحد من الناس ، لما تلى على أجلهم رتبةً آيات الياس . أوما سمعت قوله تعالى (وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين)[1] وقوله تعالى (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا انما سُكِّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون)[2] وقوله تعالى (ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا إلا سحر مبين) وقوله تعالى (ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قُبُلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون)[3]

وقد صار الغزالى بعد ذلك حجة الاسلام . ونحن لانريد أن يفتن الناس بنا كما فتنوا به ، فهل نرجو أن نظفر فقط بالسلامة من تقوّل المفترين ، وتزيّد المعتدين ؟

« على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين » .

محمد زكى عبد السلام مبارك

---

(١) كبر : شق — النفق : سرب فى الأرض (٢) يعرجون : يصعدون . سكرت : حبست عن النظر (٣) قبلا : عياناً ومقابلة ، وأخطأ الناس حين ظنها جمع قبيل بمعنى كفيل

الباب الأول

في

العصر الذى عاش فيه الغزالى

تمهيد

أريد أن أذكر شيئا عن العصر الذى عاش فيه الغزالى ؛ وليس ذلك لأن الغزالى صورة لعصره . بل ليعرف القارئ الى أى حد تأثر الغزالى بعصره وأثر فيه . فمن المجازفة أن ندرس عصراً من العصور ، لنعرف من نبغ فيه من الفلاسفة ، والكتاب ، والشعراء ؛ وانما تدرس شخصية الكاتب ، أو الشاعر ، أو الفيلسوف . ثم يبحث عن المؤثرات التى كوّنت تلك الشخصية ، فقد تكون هذه المؤثرات قريبة ، وقد تكون بعيدة . وفقا لما أحاط بالشخص من الظروف

ولتوضيح هذا أذكر أن الاستاذ الكبير الدكتور طه حسين درس العصر الذى عاش فيه أبو العلاء ، ليعرف الأصول التى كونت وجهة نظره فى الحياة ، ثم فعل مثل هذا حين شرع فى درس

أبى نواس ؛ ولكن الدكتور طه لا ينكر أن عصر أبى العلاء أنتج رجالاً يسيرون غير سيرته ، ويرون ما لا يراه ؛ وان عصر أبى نواس أخرج رجالاً لا يسيغون العبث ، ولا يجيزون المجون ؛ فمن الواجب أن ندرس أولاً ما بين أيدينا من آثار الفلاسفة ، والكتاب ، والشعراء ، ثم نتبين بعد ذلك ما تألفت منه هذه الآثار ، فقد تكون نتيجةً لمطالعات لا صلة بينها وبين العصر الذى ظهرت فيه . كما يمكن أن تكون نتيجةً له بالذات

وإلا فحدثنى كيف يكون الشيخ محمود خطاب السبكى صورة لهذا العصر ، وهو يكوّن من تلامذته جمهرة لا يشعر بها الناس ؛ وأمثال الشيخ السبكى عديدون ، ولكنى خصصته لكثرة مؤلفاته ، وقد يعثر عليه باحث يوماً فى زوايا التاريخ ، أفتراه يدرس يومئذ هذا العصر ، ليعرف المؤثرات التى كوّنت عقلية هذا الرجل الذى يَدهش حين تحدثه عن أهل هذا الجيل ؟ !

انه لا شك فى تأثير البيئة والعصر ؛ ولكن ينبغى أن نعرف أن من الناس من يعيش فى قومه وعصره ، بجسمه لا بروحه ، فلا يحس بما يحس به معاصروه ، وانما يشعر بما كان يشعر به من سبقوه بأجيال ؛ ففى مصر اليوم ، ناس من القرن الثالث ، وآخرون من القرن السابع ؛ كما فى مصر اليوم من يمكن أن تكون آراؤه

وأفكاره صورة صادقة لمكانه وزمانه ، وأحب أن يعفيني القارئ من ضرب الأمثال

من أجل هذا أجمل القول عن العصر الذى عاش فيه الغزالى وأكتفى بوضع صورة قريبة من الواقع للحالة العامة فى عصره ، ليتمثل القارئ زمان الغزالى ومكانه ، وليعرف ما تمس الحاجة اليه مما أثر بالفعل فى حياته العقلية : فان الغرض من هذا الكتاب انما هو أن ندرس بالتفصيل آراء الغزالى فى الأخلاق

الفصل الأول

الدولة السلجوقية

١

لا نريد أن نفصل وصول تلك العشيرة التركية الى الغلبة والاستيلاء على أكثر الأقطار الاسلامية ، فانه لا حاجة الى ذلك الآن ، وانما نذكر فقط صورة مجملة لتلك المملكة الضخمة ، التى تفيأ الغزالى ظلها الظليل

ذكر الأستاذ محمد الخضرى بك فى محاضراته فى الجامعة المصرية أن عشيرة السلاجقة انقسمت الى خمس بيوت : الأول

السلاجقة العظمى ، وهى التى كانت تملك خراسان ، والرى ، والجبال ، والعراق ، والجزيرة ، وفارس ، والأهواز . والثانى سلاجقة كرمان . والثالث سلاجقة العراق . والرابع سلاجقة سورية ، والخامس سلاجقة الروم

أما السلاجقة الكبرى فهى الدولة التى أسسها ركن الدين أبو طالب طغرل بك ، وحياتها ٩٣ سنة : من ٤٢٩ هـ ١٠٣٩ م الى سنة ٥٢٢ هـ ١١٢٧ م وقد انقضت دولتهم على أيدى شاهات خوارزم

وأما سلاجقة كرمان فكانوا من عشيرة قاروت بك بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ، وهو أخو ألب ارسلان ، ومدة ملكهم ١٥٠ سنة . من ٤٣٢ هـ ١٠٤١ م الى ٥٨٣ هـ ١١٨٨ م . وقد انقضت دولتهم على أيدى الغز التركمان

وأما سلاجقة العراق وكردستان فقد ابتدأت دولتهم سنة ٥١١ هـ ١١١٧ م . وانتهت سنة ٥٩٠ هـ ١١٩٤ م على أيدى شاهات خوارزم بعد أن مكثت ٧٩ سنه

وأما سلاجقة سوريّة فكانوا من بيت تتش بن ألب ارسلان ابن داود بن ميكائيل بن سلجوق . وقد ابتدأت دولتهم سنة ٤٨٧ هـ ١٠٩٤ م وانتهت سنة ٥١١ هـ ١١١٧ م على أيدى الدولتين : النورية والأرتقية . فكانت حياتها ٢٤ سنة

وأما سلاجقة الروم : ملوك قونية وأقصرا ، فكانوا من بيت قطلمش بن اسرائيل بن سلجوق ، وقد ابتدأت دولتهم سنة ٤٧٠ هـ ١٠٧٧ م وانتهت سنة ٧٠٠ هـ ١٣٠٠ م . فهى أطول دول السلاجقة حياة ، إذ مكثت ٢٣٠ سنة ، وقد انقضت على أيدى الأتراك العثمانيين والمغول

والذى كان يرتبط تاريخه من هذه البيوتات بتاريخ الدولة العباسية لدخول بغداد فى حوزتهم السلاجقة العظمى وسلاجقة العراق الذين كان لهم السلطان على العباسيين من سنة ٤٤٧ الى سنة ٥٩٠ أى ١٤٣ سنة

واستخلف من آل العباس فى عهد الدولة السلجوقية تسعة خلفاء ، أولهم القائم بأمر الله الذى انتهى فى عهده العصر البويهى وآخرهم الناصر لدين الله الذى انتهى فى عصره ملك السلاجقة

٢

عاصر الغزالى أكثر ملوك الدولة السلجوقية الكبرى ، فقد شهد عهد عضد الدين أبى شجاع ألب ارسلان ، وجلال الدين أبى الفتح ملكشاه ، وناصر الدين محمود ، وركن الدين أبى المظفر بركياروق ، وركن الدين ملكشاه الثانى ، ومحمد بن ملكشاه

وقد ولد الغزالى فى آخر عهد طغرل بك ، الذى ملك بغداد ،

وتقرب من الخليفة ، حتى تزوج الخليفة بنت أخيه . والذى تطلّع الى أن يتزوج من البيت العباسى . وهو أمر لم تجربه العادة . فأرسل سنة ٥٤٣ يخطب بنت الخليفة ، ثم ظفر بزواجها فى حديث طويل

أما ألب ارسلان فكان واسطة عقد الدولة السلجوقية ، وفى عهده أسست المدارس النظامية ، صاحبة الفضل على الغزالى ، وسنعود إليها بعد قليل . وأما محمد بن ملكشاه فهو الذى وضع له الغزالى كتاب التبر المسبوك فى نصيحة الملوك

هذا ما يهمنا من دولة آل سلجوق ، وما نريد أن نزيد

الفصل الثالث

الباطنية

فى الوقت الذى كان فيه السلاجقة يبسطون سلطانهم على فارس والعراق والجزيرة إلى آخر ما استولت عليه تلك البيوتات التى أجملنا حالها فى الفصل الماضى ، كان الفاطميون يسيطرون على المغرب ، وعلى مصر ، ويهمون ببسط سلطانهم على أقطار المشرق ، بعناية الدعاة

والذى يعنينى الآن هو إجمال دعوة الباطنية ، لأن الغزالى شغل بهم ، وكتب فى الرد عليهم ، وان لم تصلنا كتبه فى هذا الباب ، وسترى حين نتكلم عن خطته فى التأليف كيف اتهم بالميل إليهم . إذ شرح آراءهم عند نقدها بطريقة تقربها من متناول العقول

وأحب أن يعرف القارئ أن أكثر مايحتل رءوس المسلمين من الأفكار والعقائد ، ليس إلا أثراً للدعوات المتعددة التى قام بها العباسيون فى الشرق ، والفاطميون فى الغرب ، وكل حزب بما لديهم فرحون

والواقع أن الدعاة كانوا غاية فى المكر والدهاء ، فقد عرفوا كيف يملؤن تلك الرءوس الجوفاء بالخرافات ، والوساوس ، والأضاليل ؛ وهذه القاهرة لاتزال سماء مسكونة بالمعبودات الصغيرة ؛ كسيدنا الحسين ، والسيدة زينب ، والسيدة فاطمة النبوية ، ومن اليهم من الأولياء ، فيما زعم الفاطميون ومن لفّ لفّهم من علماء الاسلام ! !

ولولا خوف الأطالة لشرحت للقارئ طرائق الباطنية فى نشر الدعوة Propagande فقد كانوا أمهر من الانجليز ، والفرنسويين ، والاميركان فى العصر الحديث ، وكانت جنايتهم

شديدة الخطر فى مسخ عقول الأمم الاسلامية المسكينة ، التى قيدها الجهل ، ثم رماها بين أيدى طلاب الملك من العباسيين والفاطميين . فلم يرحمها أولئك ولا هؤلاء

كان دعاة الباطنية لمكرهم يتنقلون بالطالب من حال إلى حال ، فيفهمونه أولا أن الآفة التى نزلت بالأمة فشتتت شملها ، وفرّقت جمعها ، ليس لها من سبب إلا ذهاب الناس عن أئمتهم الذين يعرفون بواطن الشريعة ، لأن دين محمد — فيما يزعمون — ليس هو ماتعرفه العامة ، بل هو علم خفى غامض ، ستره الله فى حجبه ، وعظمه عن ابتذال أسراره ، فلا يطيق حمله ، ولا يقوم بأعبائه ، إلا ملك مقرّب . أو نبى مرسل . أو عبد مؤمن امتحن قلبه بالتقوى ؛ ثم يتوغلون مع الطالب فى مجاهل من ظلمات الآراء ، والأهواء ، بعضها خاص بتقديس أئمتهم ، ورفعهم إلى الاختصاص بفهم أسرار التشريع ، وبعضها خاص بتنظيم الدعوة ونشرها بين الناس

وأشهر دعاة الباطنية فى الشرق هو الحسن بن الصبّاح . الذى رحل إلى مصر ، فلقى فيها الخليفة المستنصر ، وتلقى بها الدعوة الباطنية ، ثم عاد الى مرو لنصرة هذا المذهب بقلمه وسيفه ، فكان أول مافعله ان استولى على قلعة (ألموت) وتحصن بها ،

ثم ثبت قدمه فى الاقطار الفارسية ، بحيث كان يحسب له ولاتباعه ألف حساب ، ونشبت بينه وبين السلاجقة عدة حروب

ومن شاء الزيادة على هذا القدر من أمر الباطنية فليرجع إلى كتب التاريخ ، ثم ليرجع الى تفصيل آرائهم ان شاء فى كتاب الملل والنحل للشهرستانى، فان فى آرائهم غرائب وأعاجيب ، وقد ورد ذكرهم فى عدة مواطن من كتب الغزالى ، وعلى الأخص كتابه « فيصل التفرقة ، بين الاسلام والزندقة » فليعد اليه من أراد أن يرى مناقشته لبعض ما يقولون

الفصل الثانى

الحروب الصليبية

١

قد عرفت أن سلطان السلاجقة امتد على بلاد الروم ، فى قونية واقصرا ، وما اليهما من البلاد ، وعرفت كيف كان التنافس بين السلجوقيين والفاطميين ، فليس من الصعب أن تعرف كيف دعا ملك الروم حملة الصليب من الافرنج الى قتال المسلمين ، فقد أمن جانب الفواطم لعداوتهم للسلاجقة ، وانها لفرصة سانحة ، لا يصح أن يضيعها طلاب الملك ، وعشاق الحياة :

لجأ قيصر الروم الى البابا رئيس النصرانية ، يستصرخه لصد أعدائه السلاجقة ، فرآها البابا فرصة لبسط نفوذه على ملوك أوروبا وأمرائها ، فدعاهم الى الدفاع عن النصرانية ، واخراج بيت المقدس من أيدى المسلمين

وأود أن يعرف القارئ أن الساسة يعتمدون دائما على استغلال العواطف ، وإخماد عقول الجماهير ، ومن هنا لم يجد دعاة الحروب الصليبية بدًّا من الكذب على الحقيقة والتاريخ ، فزعموا أن المسلمين يضطهدون نصارى الشرق ، ويسومونهم سوء العذاب ، وقد نجحوا فى استنفار أوروبا ، عامتها وخاصتها ، وساقوهم باسم الدين الى ميدان القتال

والدين أداة من أدوات الفتح ، والاستيلاء ، فى أيدى الشعوب القوية ، وغل فى أعناق الأمم الضعيفة ، والويل كل الويل للمغلوب ! فقد ملك المسلمون الأرض باسم الدين ، كما ذلوا بعد ذلك باسم الدين ، لأن القوىّ الرشيد يملك بدينه آخرته ودنياه ، أما الضعيف المأفون فلا يزال يرتطم فى ضعفه الذى يسميه دينًا حتى يحيق به الهلاك !

وكذلك زحف شياطين الغرب على الشرق باسم الدين ففعلوا به الأفاعيل ، فى حين أن المسلمين كانوا يبكون فى مساجدهم يوم

الجمعة ليوقظوا الهمم الخوامد ، والنفوس الرواكد ، فما استمع لهم أحد ، ولا استجاب لهم مجيب ؛ ولم ذلك ؟ ذلك بأن الدين لا يقوم بنفسه ، وانما يقوم به كما قلت : طلاب الملك ، وعشاق الحياة ؛ وإلا فحدثني لماذا تغاضى الفاطميون أبناء الرسول ، ولم يغضبوا لزحف النصارى على املاك المسلمين ؟

الملك . العظمة . الحياة . تلك آمالُ الأمم ، وأمانىّ الشعوب . فأن أدّى الدين الى الملك والعظمة والحياة ، فهو نعمة من الله ، لان الله بالمؤمنين رءوف رحيم ، أما ان نزل بهم الى الحضيض فهو بدعة ابتدعها الأحبار والرهبان ، وأمثال الأحبار والرهبان . ومن كان فى ريب مما نقول فليسأل التاريخ

ثم أخذ الصليبيون فى فتح بلدان المسلمين ، فستولوا على كثير من مدن آسيا الصغرى والشام ، وكوّنوا لهم فيها إمارات سمّيت بالأمارات اللاتينية ، نسبة الى الأجناس التى كان يتألف منها حمَلة الصليب

وأول ماأسس من هذه الأمارات أمارة الرّها بوادى الفرات سنة ٤٩٠ هـ ١٠٩٧ م . ثم انطاكية سنة ٤٩١ هـ ١٠٩٨ م ، ثم فتحوا بيت المقدس . وقتلوا من أهله نحو ٧٠٠٠٠ مسلم ، بعد أن سجل التاريخ من سوء رأى الفواطم مايمنعنا من ذكره الحياء

٢

أتدرى لماذا ذكرت لك هذه الكلمة عن الحروب الصليبية ؟

لتعرف انه بينما كان بطرس الناسك يقضى ليله ونهاره ، فى إعداد الخطب وتحبير الرسائل ، لحث أهل أوروبا على امتلاك أقطار المسلمين ، كان الغزالى (حجة الاسلام) غارقا فى خلوته ، منكبا على أوراده . لا يعرف ما يجب عليه من الدعوة الى الجهاد ! ! ويكفى أن نذكر أن الأفرنج قبضوا على أبى القاسم الرملى الحافظ يوم فتح بيت المقدس ، ونادوا عليه ليفتدى ، فلم يفتده أحد . ثم قتلوه ، وقتلوا معه من العلماء عدداً لا يحصيه الا الله ، كما ذكر السبكى فى طبقاته

وما ذكرنا هذه المأساة إلا لنعد القارئ لفهم حياة الغزالى ، ولنقنعه بأنه ليس من الحتم أن يكون الرجل الممتاز بعلمه صورة لعصره ، فان كتب الغزالى لا تنبئنا بشىء عن تلك الأزمة التى عاناها المسلمون حين ابتدأت الحروب الصليبية

ومن الخطأ أن نقصر الأخلاق على سلوك المرء كفرد مستقل عن الحياة الاجتماعية ، فلكل ظرف واجباته ، ويتعسر وجود حالة لا تقضى فيها الأخلاق

الفصل الرابع

المدارس النظامية

نسبة إلى نظام الملك : وزير السلطان ألب أرسلان ، وابنه ملكشاه . مكث فى الوزارة ثلاثين سنة : عشر منها فى سلطنة ألب ارسلان . وعشرون فى سلطنة ملكشاه . وقد مات نظام الملك قتيلا ، ولكن اختلف المؤرخون فى سبب قتله : فنهم من يروى انه لما أسرف فى النفقة على المدارس النظامية ، حتى بلغ ماينفقه على طلبة العلم ٦٠٠٠٠٠ دينار فى السنة ، وشى به بعضهم إلى السلطان ملكشاه ، وقالوا (ان الأموال التى ينفقها نظام الملك فى ذلك تقيم جيشاً يركز رايته فى سور القسطنطينية) فعاتبه ملك شاه فى ذلك فأجابه « يابنى ! أنا شيخ أعجمي ، لو نودى علىّ فى من يزيد لم أحفظ خمسة دنانير ، وأنت غلام تركىّ ، لو نودى عليك عساك تحفظ ثلاثين ديناراً ! وأنت مشتغل بلذاتك ، منهمك فى شهواتك ، وأكثر ما يصعد الى الله تعالى معاصيك دون طاعاتك ، وجيوشك الذين تعدهم للنوائب ، اذا احتشدوا كافحوا عنك بسيف طوله ذراعان ، وقوس لا ينتهى مدى مرماها الى ثلثمائة ذراع ، وهم مع ذلك مستغرقون فى المعاصى ، والخمور ، والملاهى ، والمزمار ، والطنبور ، وأنا أقمت لك جيشاً يسمى جيش الليل ، إذا نامت جيوشك ليلاً

قامت جيوش الليل على أقدامهم ، صفوفاً بين يدى ربهم ، فأرسلوا دموعهم ، وأطلقوا ألسنتهم ، ومدوا الى الله أكفهم بالدعاء لك ولجيوشك ، فأنت وجيوشك فى خفارتهم تعيشون ، وبدعائهم تبيتون ، وببركاتهم تمطرون وترزقون » فقبل ملكشاه وسكت !

نقل هذا جورجى زيدان فى كتاب التمدن الاسلامى عن كتاب سراج الملوك ، ولم يعقب عليه ، بل اكتفى بأن ذكر أن نظام الملك توفى مقتولاً سنة ٤٨٥ هـ

ويذكر غير واحد من المؤرخين أن نظام الملك ولّى حفيده عثمان بن جمال الملك أعمال مرو ، وأرسل السلطان اليها شحنة[١] اسمه قودن ، وهو من خواصه ، فنازع عثمان فى شئ . فحملت عثمان حداثة سنه ، واعتزازه بجده ، على أن قبض على قودن وسجنه ، ثم أطلقه ، فقصد السلطان ملكشاه مستغيثاً شاكياً فاغتاظ السلطان ملكشاه لاستبداد نظام الملك وبنيه ، وخروجهم على حدود سلطتهم . وأرسل إلى نظام الملك رسالة يقول فيها (ان كنت شريكى فى الملك ، فلذلك حكم ، وان كنت نائبى ، فيجب أن تلزم حد التبعية والنيابة ، فهؤلاء أولادك قد جازوا أمر السياسة وطمعوا ، حتى فعلوا . . . الخ

(١) الشحنة فى التعابير القديمة يساوى ناظر المالية فى التعابير الحديثة

فقال نظام الملك لحاملى تلك الرسالة :

« قولوا للسلطان : إذا كنت لم تعلم بعد أنى شريكك فى الملك ، فاعلم ! فأنك مانلت هذا الأمر إلا بتدبيرى ورأيى ، أما تذكر حين قتل أبوك ، فقمت بتدبير أمرك ، وقمعت الخوارج عليك : من أهلك وغير أهلك ، وأنت فى ذلك الوقت تتمسك بى ؟ فلما قدت الأمور اليك ، وأطاعك القاصى والدانى ، أقبلت تنتحل لى الذنوب ، وتسمع فىّ الوشايات . قولوا للسلطان : إن دواتى مقترنة بتاجك ، فمتى رفعتها رفع ، ومتى سلبتها سلب ! »

ويذكرون أن الرسل اتفقوا على كتمان هـذه الرسالة ، ولكن كان للسلطان عين من بين أولئك ، بلّغه ماقال نظام الملك بالحرف الواحد ، فغضب السلطان ودسّ لنظام الملك من قتله بعد ذلك

والأقرب إلى الصواب ماذكره الأستاذ محمد بك الخضرى فى محاضراته بالجامعة المصرية من أن نظام الملك قتل بيد أحد الباطنية حين بعث عسكره إلى قلعة ألموت ، وحصر فيها الحسن ابن الصبّاح ، وأخذ عليه الطرق

وهذا لاينافى مانقل من النفرة التى وقعت بين نظام الملك وبين ملكشاه ، فان حسد الخلفاء والسلاطين لوزرائهم معروف ، وعلى الأخص فى تلك الأيام المظلمة ، التى طبعت بطابع الاستبداد وكان الأمر فيها للهوى ، والحكم للجبروت !!

وقد أكثر الشعراء من رثاء نظام الملك ، فمن ذلك قول مقاتل بن عطية البكرى :

كان الوزير نظام الملك لؤلؤةً * يتيمةً صاغها الرحمن من شرفِ
بدت فلم تعرف الأيام قيمتها * فردّها غيرةً منه إلى الصدفِ

***

وكما بنى الفاطميون الجامع الأزهر فى أواسط القرن الرابع لتأييد مذهب الشيعة ، بنى نظام الملك مدارسه فى أواسط القرن الخامس لتأييد مذهب أهل السنة . وهكذا كان المسلمون ينشئون المدارس لتثبيت الملك ، كما يفعل الاوربيون والامريكيون فى هذا الجيل ، ولا عيب فى ذلك : فالعلم من أمضى الاسلحة فى استلال السخائم من الصدور ، والسياسة أدهى وأمكر من أن تُغفل مثل هذا السلاح ! !

وكذلك عنى نظام الملك بأنشاء المدارس والرباطات ، ليغمر العلماء والزهاد بفضله ، فيكون له منهم جرائد شفوية تنشر دعوته فى الشام ، والعراق ، وخراسان ، وهكذا فهم روح العصر فاستغل أهله ، حتى ليذكرون أنه كان إذا دخل عليه الأئمة الأكابر لا يقوم لهم ، ويجلس فى مسنده ، وكان له شيخ فقير ، إذا دخل إليه يقوم له ، ويجلسه فى مكانه ويجلس بين يديه ، وأنه

سئل عن ذلك فقال : إن أولئك إذا دخلوا يثنون علىّ بما ليس فىّ ، فيزيدنى كلامهم عُجْباً وتيهاً ، وهذا يذكرنى بعيوب نفسى فأرجع عن كثير مما أنا فيه ! !

وإذا صحت هذه الرواية ، فانها تدل على أن علماء ذلك العصر كانوا أضعف من أن يجهروا بالنهى عن المنكر ، وأن الخاصة كانوا لا يأبون سماع النصح من الفقراء والمجاذيب ، لأن السياسة كانت تقضى اذ ذاك بمجاملة هذا الصنف من الناس

ومهما تكن نيات نظام الملك — والله عليم بذات الصدور — فانه مشكور الصنيع ، فقد أكثر من المدارس ، ووقف عليها الأوقاف ، ورتب للطلبة الجرايات ، وبنى لهم الأسواق ، والمساكن ، والحمامات ، وظلت مدارسه بأوقافها زمنا ليس بالقليل ، وتخرّج منها كثير من العلماء والأدباء

***

ولهذه المدارس النظامية فضل على الغزالى ، فقد تلقى العلم فى مدرسة نيسابور . وتولى التدريس فى مدرسة بغداد ، وسنعود إلى تفصيل ذلك فى غير هذا الباب

الفصل الخامس

روح ذلك العصر

١

من الصعب تحديد الروح السائد فى عصر من العصور ، وانما غاية المؤرخ أن يذكر الشواهد والامثال ، ويستخلص منها مايرجح أن تكون عليه صورة العصر الذى يدرسه

وأنا أرجح أن تكون السذاجة هى الصفة الغالبة فى ذلك العصر ، مع شىء من المكر فى الامراء والعلماء . ومن الشواهد الدالة على هذه السذاجة ماذكره الغزالى فى كتابه « المنقذ من الضلال » من أن الناس كانوا يقولون حين ترك المدرسة النظامية ببغداد : انها عين أصابت الاسلام ؛ وما نقل السبكى من أن أحد معاصريه سمعه يقول « قطعت علينا الطريق وأخذ العيارون جميع مامعى ومضوا ، فتبعتهم ، فالتفت الى مقدمهم وقال : ارجع ويحك والا هلكت ! فقلت له أسألك بالذى ترجو السلامة منه أن ترد على تعليقتى فقط ، فما هى بشىء تنتفعون به ، فقال لى : وماهى تعليقتك ؟ فقلت كتب فى تلك المخلاة ، هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها ، فضحك وقال : كيف تدعى أنك عرفت علمها ، وقد أخذناها منك ،

فتجردت من معرفتها و بقيت بلا علم ؟ ثم أمر بعض أصحابه فسلم الى المخلاة .
قال الغزالى : هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدنى به فى أمرى ، فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته ، وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم أتجرد من علمى »

والسذاجة ظاهرة فى هذا الحديث ، فمن الواضح أن حفظ الكتب عن ظهر قلب حتى لاتبقى إلى حفظها حاجة ، آفة عظيمة فى تكوين العقول ، فليست قيمة العالم فيما يحفظ ، ولكن قيمته فى حسن الفهم ، وأصالة الرأى ، وصواب الحكم

ومن شواهد السذاجة ما أورده نظام الملك فى وصيته(١) التى تركها لخلفه من الساسة حيث يقول :

« كان الامام الموفق النيسابورى من جلة علماء خراسان ، مبجلا مهيباً ، وقد نيّف على الخمس والثمانين . وكان السائد فى عقيدة أهل زمانه أن كل من قرأ عليه العلوم العربية ، نبغ فيها ، وبلغ الغاية ، وانساق اليه العز والجاه ، والنعمة والثراء ، ولذلك وجهنى أبى من بلدة طوس الى نيسابور مع عبد الصمد الفقيه ، لأقرأ على ذلك الأستاذ النابغة الجليل . وهنالك حظيت به ، فوشجت بيننا أواصر المودة ، وتأكدت عرى الصداقة ، ولحظنى بعين عنايته ، وأنزلته من نفسى أخص منزلة ، وألطفها ، ولبثنا على ذلك سنين عدة . وكنت أول مانزلت به ، وجلست فى حلقته ، لقيت تلميذين فى مثل سنى ، حديثى عهد مثلى بالقراءة على الامام الموفق ، وهما عمر الخيام والحسن بن الصباح ، وكانا

(١) مقدمة السباعى لرباعيات عمر الخيام

آيتـين فى الفطنة والذكاء ، فأنس كل منا بصاحبيه ، ونمت بيننا نحن الثلاثة أحسن صحبـة وأمتنها . فكان اذا قام الامام عن الدرس ، وانفضت الحلقة اجتمعنا فتذاكرنا ما تلقيناه عليه من المعارف . وكان الخيام من أهالى نيسابور ، أما الحسن بن الصباح فكان أبوه ناسكاورعا متقشفاً ، ولكنه كان زنديقاً ، فأقبل الحسن يوما على عمر الخيام فقال له : لقـد صح فى أذهان الناس قاطبة أنه ليس من تلميذ يتخرج على الامام الموفق الا مصيباً عزاً واقبالا وثروة وجاهاً ، فهب ان ذلك لم يتفق لنا نحن الثلاثة جميعاً ، فانه لابد أن يقع لواحد منا ، فماذا يكون حق الاثنـين الخائبين على ذلك الفائز الظافر ؟ قلنا له : اقترح ما تشاء فقال : فلنتعاهد الآن على انه من أصاب منا الثراء فعليه أن يقسمه فيما بيننا نحن الثـلاثة على السواء ، لا يؤثر نفسه بشىء دون أخويه . فأجبنا : ليكن ذلك كما قلت . ثم تحالفنا على ذلك وتعاهـدنا ، ومرت الأعوام على ذلك ، وغادرت خراسان متجولا فى فضاء الله ، الى غزنه ، ثم الى كابل ، ولما عدت تقلدت منصب الوزارة فى سلطنة السلطان ألب ارسلان ، وبعد مدة من الزمن عرف ذلك صاحباى . فأتيانى يطلبان انجاز وعدى القديم ، وإشرا كهما فيما انحاز لى من النعمة والثراء »

والذي يعنينى من هذه الحكاية هو أن يكون « السائد فى عقيدة أهل ذلك الزمان أن من قرأ العلوم العربية على الامام الموفق نبغ فيها وبلغ الغاية وانساق إليه العز والجاه » وتلك خرافة لايسيغها غير ضعاف العقول ، وصغار الأحلام ، وقد رأيت كيف كان الناس يتداولون « هذه العقيدة » وكيف كان

الطلبة يتغنون بها فى حلقات الدروس

وقد رأينا فى الفصل السالف كيف منّ نظام الملك على ملكشاه بأن أقام له جيش الليل من العلماء والفقراء ، مع أنه لايصح الدفاع عن العلم باظهار الحاجة إلى دعوات أهله ودموعهم ، فبئس السلاح سلاح الدمع والدعاء ، وانما تحرس الأمم بالعلم فى إقامة ما اعوجّ من الأخلاق ، وإيقاظ ماخمد من النفوس ، وإحياء ماندرس من آثار العقول

ومن الشواهد على سذاجة ذلك العصر التحدث بالمنامات والأحلام ، وهى شارة الارتياب فى الواقع ، والأيمان بالخيال

٢

أما ما كان فى ذلك العصر من مكر الأمراء والعلماء ، فدلائله كثيرةٌ مبعثرةٌ فى الكتب هنا وهناك ، ومؤلفات الغزالى شهيدة على ذلك ، فكثيراً مانراه يشن الغارة على العلماء الذين يكثرون الجدل ، يتظاهرون بالغيرة على العلم والدين ، وهم فى الواقع طلّاب جاه ، وطلاب مال ! !

ويمكن الجزم بأن الغزالى يمثل عصره أصدق تمثيل وهو يتحدث عن الأتقياء المزيّفين من المتصوفة الذين يخدعون الناس

باسم التقى، وهم فى أنفسهم أنصار غيٍّ وضلال . وانما قلنا إنه يمثل عصره، لأنه يتكلم فى هذه الشئون بحماسة عظيمة، ليست صدى لمطالعاته فى المؤلفات القديمة، وانما هى أثر لغضبته من قوم عاش بينهم، ولقى من مكرهم وريائهم أنواع الشقاء. وقد سبقه المعرى بنقد المتصوفة، ولكن المعرى كان غير مسموع الكلمة فى نقدهم، أما الغزالى فكانت كلمته فى ذمهم شديدة الأثر، لأنه صوفي، ولأن تلامذته كانوا عونا له فى نشر مايريد

وإليك أنموذجاً من كلامه عن أصناف المغرورين :

« وفرقة منهم عدلوا عن المنهاج الواجب فى الوعظ، وهم وعاظ الزمان كافة، الا من عصمه الله على الندور فى بعض أطراف البلاد ان كان ولسنا نعرفه، فاشتغلوا بالطامات والشطح وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل طلباً للاغراب، وطائفة شغلوا بعبارات النكت وتسجيع الألفاظ وتلفيقها، فأكثر همهم الاسجاع والاستشهاد بأشعار الوصال والفراق، وغرضهم ان تكثر فى مجالسهم الزعقات والتواجد، ولو على أغراض فاسدة، فهؤلاء شياطين الانس ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل » ص ٤٠٥ ج ٣ احياء

على أن الغزالى كان بنفسه أداة من أدوات الصوفية، وسترى كيف كان ذلك فى غير هذا الباب

أما مكر الامراء والملوك فقد كاد ينحصر فى ختل العامة

وجرهم إلى الحروب باسم الدين ، فمن المتعسر أن تجد أمة إسلامية حاربت أختها باسم الملك ، فى دعوة صريحة ، بل كانت كل أمة تختص نفسها بالهداية ، وترى غيرها بالمروق ، وكانت الجماهير وقوداً لنار تلك الفتن فى مصر ، والشام ، والعراق ، وخراسان ، وغيرها من ممالك المسلمين ، ولعن الله الساسة أصحاب الأغراض !

الفصل السادس

البلدان التى عرفها الغزالى

نريد أن نذكر فى هذا الفصل بعض البلدان التى عرفها الغزالى ، لصلة ذلك بحياته ، ونستثنى بغداد ، لأنها أشهر من أن تحتاج إلى تعريف ، وقد خصها الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين بكلمة ممتعة فى كتابه ذكرى أبى العلاء ، فليرجع إليه من أراد

ونعتمد فى وصف تلك البلدان على معجم ياقوت [1] لقرب مؤلفه من ذلك العصر ، ولأنه يتصور تلك المواطن على نحو ما كان يعرفها الناس إذ ذاك

---

(١) توفى ياقوت الحموي صاحب معجم البلدان فى سنة ٦٢٦ هـ . وكتابه من أجود ماعرف العرب فى القواميس الجغرافية

طوس

مدينة بخراسان ، تشتمل على بلدتين يقال لاحداهما الطابران (وهى التى دفن بها الغزالى) وللأخرى نوقان ، ولهما أكثر من ألف قرية ، فتحت فى أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وبها قبر على بن موسى الرضا وبها أيضاً قبر هرون الرشيد ، وقال مِسْعَرَ ابن المهلهل : وطوس أربع مدن ، منها اثنتان كبيرتان واثنتان صغيرتان ، وبها آثار أبنية اسلامية جليلة ، وبها دار حميد بن قحطبة ، ومساحتها ميل فى مثله ، وفى بعض بساتينها قبر على بن موسى الرّضا وقبر الرشيد ، وبينها وبين نيسابور قصر هائل محكم البنيان ، لم أر مثله علوّ جدران ، وإحكام بنيان ، وفى داخله مقاصير تحار فى حسنها الأوهام ، وآزاج [1] ، وأروقة ، وخزائن وحجر للخلوه ، وسألت عن أمره فوجدت أهل البلد مجمعين على أنه من بناء بعض التبابعة ، وأنه كان قصد بلاد الصين من اليمن ، فلما صار إلى هذا المكان رأى أن يخلف حُرمه وكنوزه وذخائره فى مكان يسكن إليه ، ويسير متخففاً ، فبنى هذا القصر وأجرى له نهراً عظيما آثاره بينة ، وأودعه كنوزه ، وذخائره ، وحُرَمَة ، ومضى الى الصين فبلغ ما أراد ، وانصرف فحمل بعض

(١) مفردها أزج بفتحتين ضرب من الابنية

ما كان جعله فى القصر ، وبقيت له فيه بعد أموال وذخائر تخفى أمكنتها . وصفات مواضعها مكتوبة معه . فلم يزل على هذه الحال تجتاز به القوافل ، وتنزله السابلة ، ولا يعلمون منه شيئا ، حتى استبان ذلك واستخرجه أسعد بن أبى يعفُر صاحب كحلان (١) لأن الصفة وقعت له

وقد خرج من طوس عدد كبير من أئمة العلم أشهرهم أبو حامد الغزالى ، وخرج منها الوزير نظام الملك . قال ياقوت : وأهل خراسان يسمون أهل طوس البقر ، ولا أدرى لم ذلك ؟

وقال رجل يهجو نظام الملك

لقد خرَّب الطوسىُّ بلدة غزنةٍ * فصب عليه الله مقلوب بلدته
هو الثور قرن الثور فى حِرِ أمهِ
ومقلوب إسم الثور فى جوف لحيته (٢)

وقال دعبل الخزاعى من قصيدة يمدح بها آل على بن أبى طالب رضى الله عنه ويذكر قَبْرَىْ على بن موسى والرشيد بطوس :

إربع بطوس على قبر الزكىِّ به * ان كنت تربع من دين على وطرِ
قبران فى طوس : خير الناس كلهم
وقبر شرهم : هـذا من العبرَ

---

(١) من مخاليف اليمن (٢) مقلوب طوس . سوط ، ومقلوب ثور . روث !

ما ينفع الرجس من قرب الزكيّ ولا
على الزكي بقرب الرجس من ضَرَرِ
هيهات كل امرئ رهن بما كسبت
يداه حقا . فخذ ماشئت أو فذر

وطوس هذه هى موطن الغزالى . ومولده ، وبها قبره ، إلا إن صح مارواه بعضهم من أنه ولد بقرية تسمى غزالة بالقرب من طوس . وأنا لا أستبعد ذلك ، ما دام ياقوت يحدثنا انه كان لطوس أكثر من ألف قرية ، وإذاً يكون الغزالى بفتح الزاى لا بتشديدها ، على أن فى طبقات السبكى ص٩ ج ٤ رجلا آخر يلقب بالغزالى ، ولا ضرورة لأن يكون هذا إسماً لعائلة قديمة كما ظن الدكتور زويمر ، بل يمكن أن يكون كلاهما نسب لتلك القرية الصغيرة : غزالة

نيسابور

قال ياقوت : هى مدينة عظيمة . ذات فضائل جسيمة . معدن الفضلاء ومنبع العلماء . لم أر فيما طوّفت من البلاد مدينة كانت مثلها . ثم قال : ومن الرى الى نيسابور مائة وستون فرسخا ، ومنها الى سَرخس أربعون فرسخا ، ومن سرخس الى مرو الشاهجان (١)

(١) مرو الشاهجان ، هى قصبة خراسان وكان بها لعهد ياقوت عشرة خزائن موقوفة

ثلاثون فرسخا . ثم قال : وأكثر شرب أهل نيسابور من قُنِيّ تجرى تحت الأرض ينزل اليها فى سراديب مهيأة لذلك ، فيوجد الماء تحت الأرض ، وليس بصادق الحلاوة . ثم قال : وعهدى بها كثيرة الفواكه والخيرات وبها ريباس ليس فى الدنيا مثله ، تكون الواحدة منه منًا وأكثر ، وقد وزنوا واحدة فكانت خمسة أرطال بالعراق . وهى بيضاء صادقة البياض كأنها الطلع . ثم قال : وكان المسلمون فتحوها فى أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه والأمير عبد الله بن كريز فى سنة ٣١ صلحا . وبنى بها جامعاً ، وقيل إنها فتحت فى أيام عمر رضى الله عنه على يد الأحنف بن قيس ، وانما

تحوى نفائس الكتب . منها خزانتان فى الجامع احداها يقال لها العزيزية ، وقفها رجل يقال له عزيز الدين ابو بكر عتيق الزنجانى ، وكان فيها ١٢٠٠٠ مجلد ، وأخرى يقال لها الكمالية ، لا أدرى الى من تنسب ، وبها خزانة شرف الملك المستوفى أبى محمد بن منصور فى مدرسته ومات المستوفى هذا فى سنة ٤٩٤ ﻫ وكان حنفى المذهب ، وخزانة نظام الملك فى مدرسته ، وخزانتان للسمعانيين ، وخزانة أخرى فى المدرسة العميدية ، وخزانة لمجد الملك أحد الوزراء المتأخرين بها والخزاين الخاتونية فى مدرستها ، والضميرية فى خانقاه هناك يقول ياقوت (وكانت سهلة التناول لا يفارق منزلى منها مائتا مجلد ، أكثرها بغير رهن) ويذكر أن أكثر فوائد معجمه من تلك الخزائن . وفى مرو الشاهجان يقول بعض الاعراب .

أقرية الوادى التى خان الفها ... من الدهر أحداث أتت وخطوب
تعالى أطارحك البكاء فاننا ... كلانا بمرو الشاهجان غريب

ويقول ابو الحسين مسعود ابن الحسن الدمشقى .

اخلاى ان أصبحتم فى دياركم ... فانى بمرو الشاهجان غريب
أموت اشتياقا ثم أحيا تذكرا ... وبين التراق والضلوع لهيب
فما عجب موت الغريب صبابة ... ولكن بقاه فى الحياة عجيب

انتقضت فى أيام عثمان فارسل إليها عبد الله بن عامر ففتحها ثانية

وقد خرج من نيسابور عدد كبير من أئمة العلم ، أشهرهم الحافظ الأمام أبو على الحسين بن على النيسابورى ، الذى رحل فى طلب العلم والحديث ، وعقد له مجلس الاملاء بنيسابور سنة ٣٣٧ وهو ابن ستين سنة وقد توفى سنة ٣٤٩

وقد أكثر الشعراء من ذم نيسابور . فمن ذلك قول أبي الحسن الاسترابادي :

لاقدس الله نيسابور من بلد * سوق النفاق بمغناها على ساق
يموت فيها الفتى جوعاً وبُؤْسُهُم * والفضل ماشئت من خير وأرزاق
والخير فى معدن الغرثى وان برقت * أنواره فى المعانى غير براق

وقال المرادي يذم أهلها :

لاتنزلنّ بنيسابور مغترباً * إلا وحبلك موصولٌ بسلطانِ
أولا فلا أدب يجدى ، ولا حسبٌ
يغنى ، ولا حرمة ترعى لإنسان

وقال معن بن زائدة الشيباني : يشكو ليله بنيسابور

تمطّى بنيسابور ليلى وربما * يرى بجنوب الريّ وهو قصيرُ
ليالىَ إذ كل الأحبة حاضرٌ * وما كحضور مَن تحب سرور
فأصبحت أمّا من أحب فنازح * وأما الألى أقليهمُ فحضور

أراعى نجوم الليل حتى كأننى * بأيدى عُداةٍ سائرين أسير
لعلّ الذى لايجمع الشمل غيره * يدير رحى جمع الهوى فتدور
فتسكن أشجان ونلق أحبة * ويورق غصن للشباب نضير

وفى نيسابور تلق الغزالى عن امام الحرمين الفقه والمنطق والأصول ، حتى برع أنداده ، وزملاءه . وتولى فى أخريات أيامه التدريس بالمدرسة النظامية فى نيسابور مدة يسيرة ، رجع بعدها الى طوس ، حيث اتخذ الى جانب داره مدرسة للفقهاء ، وخانقاه للصوفية

جرجاں

مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان ، فبعض يعدها من هذه وبعض يعدها من تلك ، قيل إن أول من أحدث بناءها يزيد بن المهلب ابن أبى صفرة . وقد خرج منها عدد من الأدباء والعلماء والمحدثين . ولها تاريخ ألفه حمزة بن يزيد السهمى . قال الاصطخرى : أما جرجان فانها أكبر مدينة بنواحيها ، وهى أقل ندى ومطراً من طبرستان ، وأهلها أحسن وقاراً وأكثر مروءةً ويساراً من كبرائهم ، وهى قطعتان احداهما المدينة والأخرى بكراباذ . وبينهما نهر كبير . ولجرجان مياه كثيرة ، وضياع عريضة ، وليس بالمشرق بعد أن تجاوز العراق مدينة أجمع ولا أظهر حسناً

من جرجان . قال ياقوت : وبها الزيتون والنخل والجوز والرمان وقصب السكر والأترج ، وبها إبريسم جيّد لا يستحيل صبغه ، وبها أحجار كبيرة لها خواص عجيبة ، وبها ثعابين تهول الناظر ، ولكن لاضرر لها

وقد فتحت فى سنة ١٨ هـ على يد سُوَيد بن مقرّن ، وخرج منها عدد عظيم من العلماء ، كانت تشدّ إليهم الرّحال

وكان بها صنف جيد من الخمر ، وفيها يقول بن خُزَيم

وصهباء جرجانية لم يُطف بها
حنيفٌ ولم يُلْمِمْ بها ساعةً رِغرُ
ولم يشهد القَسّ المهيمن نارها
طروقا ولم يحضر على طبخها حَبْرُ
أتانى بها يحيى وقد نمت نومةً
وقد لاحت الشّعرى وقد طلع النَّسْرُ
فقلت اصطبحها أولغيرىَ فاهدها
فما أنا بعد الشيب ويحك والخمر
تعففّت عنها فى العصور التى مضت
فكيف التصابى بعد ما كمل العمرُ

إذا المرء وفّى الأربعين ولم يكن
له دون ما يأتى حياء ولا سِترُ
فدعهُ ولا تنفس عليه الذى أتى
وإن جر أسباب الحياة له الدهرُ

ويذكر ياقوت أن أهل الكوفة كانوا يقولون : من لم يرو هذه الأبيات فهو ناقص المروءة ... وذكر أن مسلم بن الوليد صريع الغوانى مرض مرض الموت بجرجان ، وانه رأى نخلة لم يكن فى جرجان غيرها ، فقال :

ألا يانخلةً بالسَّفْـــــح من أكناف جرجانِ
ألا إني وإياكِ * بجرجان غريبان

وإلى جرجان رحل الغزالى ليتلقى العلم عن أبي نصر الاسماعيلي ، وعلّق عنه التعليقة التى حدثتك عما فعل بها العيّارون وهو راجع إلى طوس .

دِمَشْق

لو أنك رجعت إلى ياقوت ، وقرأت فى معجمه أخبار هذه المدينة ، لرأيت كيف يضل العرب فى بيداء الخيال ، ولعرفت أن لهم حظاً من أساطيرِ الأولين . وهذا الضلال فى ذكر من بنى مدينة دمشق يصور لنا منزلتها المقدسة ، التى احتلت قبلا رءوس

المسلمين : فهم تارة يذكرون أن بانيها هو دماشق بن قانى بن مالك ابن أرنخشد بن سام بن نوح عليه السلام ، وتارة أخرى يقولون أنها بنيت على رأس ثلاثة آلاف ومائة وخمس وأربعين سنة من جملة الدهر الذى يقولون إنه سبعة آلاف سنة ، وحينا يزعمون أن ابراهيم عليه السلام ولد بعد بنائها بخمس سنين ، وحيناً آخر يتوهمون أن العازر غلام ابراهيم عليه السلام هو الذى بنى دمشق

وأغرب من ذلك كله قول ياقوت : وقال أهل الثقة من أهل السِّيَر إن آدم عليه السلام كان ينزل فى موضع يعرف الآن ببيت أنات ، وحواء فى بيت لهيا ، وهابيل فى مُقْرَى وكان صاحب غنم ، وقابيل فى قنينة وكان صاحب زرع ، وهذه المواضع حول دمشق

ووجه الغرابة هو فى إخلاده إلى من يسميهم « أهل الثقة » وأين وصل أهل الثقة إلى أخبار آدم ونوح ، يا أيها المؤرخ الخطير ؟!

وأحب أن أنبه القارئ إلى قيمة الأغراق والغلوّ فى وصف البلاد ، فانه نعم الباعث على الرحلة والسياحة ، وان دل على سذاجة الواصفين ، وأربعة أخماس الناس يشتاقون إلى رؤية دمشق حين يقرءون أنها كانت مأوى الانبياء ومصلاهم ، وانه كان بها مسجد ابراهيم وقبر موسى عليهما السلام ، وانه لم توصف الجنة بشىء إلا وفيها مثله ! !

وكانوا يقولون (عجائب الدنيا أربع : قَنطرة سنجة ، ومنارة الأسكندرية ، وكنيسة الرها ، ومسجد دمشق) ولهذا المسجد حديث عجيب ، فقد ذكروا أن الوليد بن عبد الملك بن مروان لما أراد بناءه جمع نصارى دمشق وقال لهم : إنّا نريد أن نزيد فى مسجدنا كنيستكم ، يعنى كنيسة يوحنا ، ونعطيكم كنيسة حيث شئتم ، وإن شئتم ضاعفنا لكم الثمن ، فأبوا ، وجاءوا بكتاب خالد بن الوليد والعهد ، وقالوا إنا نجد فى كتبنا أنه لا يهدمها أحد إلا خُنِق ، فقال لهم الوليد : فأنا أول من يهدمها ، فقام وعليه قباء أصفر ، فهدم وهدم الناس ثم زاد فى المسجد ما أراد . قالوا ومكث فى بنائه تسع سنين يعمل فيها عشرة آلاف رجل ! ؛ وقال موسى ابن حماد البربرى : رأيت فى مسجد دمشق كتابة بالذهب فى الزجاج محفوراً فيها سورة (ألهاكم التكاثر ، حتى زرتم المقابر) الى آخرها ، ورأيت جوهرة حمراء ملصقة فى القاف ، التى فى قوله تعالى : حتى زرتم المقابر . فسألت عن ذلك فقيل لى : إنه كانت للوليد بنت . وكانت هذه الجوهرة لها ، فماتت ، فأمرت أمها أن تدفن هذه الجوهرة معها فى قبرها ، فأمر الوليد بها فصيرت فى قاف المقابر من ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر . ثم حلف لأمها أنه قد أودعها المقابر فسكتت . ونقل الجاحظ فى كتاب البلدان عن

بعض السلف أنه قال : ما يجوز أن يكون أحد أشد شوقا إلى الجنة من أهل دمشق لما يرونه من حسن مسجدهم . ويقول ياقوت : ومن عجائبه أنه لو عاش الانسان مائة سنة وكان يتأمله كل يوم لرأى فيه كلّ يوم مالم يره فى سائر الأيام من حسن صناعاته واختلافها . ثم قال بعد كلام طويل : ولم يزل جامع دمشق على تلك الصورة يبهر بالحسن والتنميق الى أن وقع فيه حريق فى سنة ١٦١ فأذهب بعض حسنه

وقد أكثر الشعراء من وصف دمشق ، فمن ذلك قول أبى المطاع بن حمدان :

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها * فلى بجنوب الغوطتين شجونُ
وما ذقت طعم الماء إلا استخفنى * الى بَرَدَى والنيربين حنين
وقد كان شكى فى الفراق يروعنى * فكيف أكون اليوم وهو يقين
فوالله ما فارقتكم قالياً لكم * ولكنّ مايقضى فسوف يكون

وقال الصنوبرى :

صفت دنيا دمشق لقاطنيها * فلست ترى بغير دمشق دُنيا
تفيض جداول البلور فيها * خِلالَ حدائق يُنبتن وَشيا
مكللة فواكهن أبهى المنــــاظر فى مناظرنا وأهيا
فمن تفاحة لم تعد خداً * ومن أُترجةٍ لم تعد ثدياً

وقال البحترى :

أما دمشق فقد أبدت محاسنها * وقد وفى لك مطريها بما وعدا
إذا أردت ملأت العين من بلد * مستحسَن وزمان يشبه البلدا
يمسى السحاب على أجبالها فرقاً * ويصبح النبت فى صحرائها بددا
فلست تبصر إلا واكفاً خضِلاً * أو يانعاً خَضِراً أو طائراً غَرِدا
كأنما القيظ ولّى بعد جيئته * أو الربيع دنا من بعد ما بعُدا

وقد أغرب الأقدمون فى وصف دمشق ، ومسجد دمشق والذى ذكرته من ذلك كافٍ لما أنا بصدده من صلة الغزالى بهذه المدينة ، فقد دخلها فى سنة ٤٨٩ وأقام بها أياماً قليلة ، ثم عاد إليها بعد ذلك ، واعتكف بالمنارة الغربية من الجامع ؛ قال السبكى : واتفق أن جلس يوماً فى صحن الجامع الأموى ، وجماعة من المفتين يتمشّون فى الصحن ، وإذا بقروى أتاهم مستفتيا ، ولم يردوا عليه جواباً ، والغزالى يتأمل ، فلما رأى الغزالى انه ليس عند أحد جوابه ، ويعز عليه عدم إرشاده ، دعاه وأجابه ، فأخذ القروى يهزأ به ويقول : المفتون ما أَجابونى ، وهذا فقير عامىّ كيف يجيبنى ؟ والمفتون ينظرونه ، فلما فرغ من كلامه معه ، دعوا القروى وسألوه : ما الذى حدثك به هذا العامى ؟ — وكان

الغزالى إذ ذاك فى زىّ فقير مجهول — فشرح لهم الحال فجاؤا إليه وتعرفوا به ، وسألوه أن يعقد لهم مجلساً ، فوعدهم ، ثم سافر من ليلته

وهناك أحاديث كثيرة عن صلته بدمشق يضيق عن ذكرها المقام ، وحسب القارئ هذا المقدار

بيت المقدس

من المواطن التى قدسها العرب والمسلمون ، وتركوا أمرها للخيال يصورها كيف شاء ، فهم يزعمون أن الله تعالى قال لسليمان ابن داود عليهما السلام حين فرغ من بناء البيت المقدس : سلنى أعطك : قال يارب ، أسألك أن تغفرلى ذنبى . قال لك ذلك . قال يارب، وأسألك أن تغفر لمن جاء هذا البيت يريد الصلاة فيه ، وأن تخرجه من ذنوبه كيوم وُلد . قال لك ذلك . قال وأسألك من جاء فقيراً أن تغنيه . قال لك ذلك . قال وأسألك من جاء سقيما أن تشفيه . قال ولك ذلك ! ! ويروُون عن أبى ذر أنه قال : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أى مسجد وضع على وجه الأرض أولاً ؟ قال المسجد الحرام ، قلت ثم أىّ ؟ قال البيت المقدس ، وبينهما أربعون سنة ، وينقلون عن كعب أنه قال : مَعْقِل المؤمنين

أيام الدجّال البيت المقدس يحاصرهم فيه حتى يأكلوا أوتار قِسيّهم من الجوع ، فبينماهم كذلك إذ يسمعون صوتاً من الصخرة ، فيقولون هذا صوت رجل شبعان ، فينظرون ، فاذا عيسى بن مريم عليه السلام . فاذا رآه الدجّال هرب منه ، فيتلقاه بباب لدّ فيقتله. ويكاد الرواة يتفقون على أنها « عَرْصة القيامة ، ومنها النشر ، وإليها الحشر » ويزعمون أن سليمان كان اتخذ فى بيت المقدس أشياء عجيبة : منها القبة التى فيها السلسلة المعلقة ينالها صاحب الحق ، ولا ينالها المبطل ، حتى اضمحلت بحيلة غير معروفة !! وكان من عجائب بنائه أنه بنى بيتاً وأحكمه وصقله ، فاذا دخله الفاجر والورع ، تبيّن الفاجر من الورع ، لأن الورع كان يظهر خياله فى الحائط أبيض ، والفاجر يظهر خياله أسود !! وكان أيضاً مما اتخذ من الأعاجيب أن ينصب فى زاويةمن زواياه عصا أبنوس فكان من مسها من أولاد الأنبياء لم تضره ، ومن مسها من غيرهم أحرقت يده !! قال ياقوت (وقد وصفها القدماء بصفات أن استقصيتها أملت القارئ) فياليت شعرى ماذا عسى أن تكون تلك الصفات ؟

إنه لاشك فى أن كل ما وصف به بيت المقدس ليس إلا صورة لمبلغ المتقدمين من فهم حقائق الأشياء ، فليست زيارته

بمخرجة أحداً من ذنوبه ، ولا براحمة فقيراً من فقره ، ولا بمنقذة سقيما من سقمه ، كما يزعمون أن الله قال ذلك ؛ وليس هناك سند يثق به التاريخ عن بناء المسجد الحرام وبناء بيت المقدس بعده بأربعين سنة ، كما يتوهمون أن النبي قال ذلك ؛ ولن يأكل المؤمنون أوتار قسيهم من الجوع ، حين يحاصرهم الدجّال فى بيت المقدس ، ولن يعود عيسى إلى هذا العالم كما يتوهم كثير من الناس ، وهب ذلك يكون ، فمن يدرينا أن المؤمنين لن يملكوا يومئذ غير القِسِيّ والنبال ؛ ولا تنس السلسلة التى علقها فى القبة سيدنا سليمان ، والتى كان ينالها صاحب الحق ، ولا ينالها المبطل ، فتلك بلا ريب وليدة الخيال !! وما عسى أن يكون ذلك البيت الذى كان إذا دخله الفاجر ظهر خياله أسود ، وإذا دخله الورع ظهر خياله أبيض ؟

اذكر هذه الصورة العجيبة لبيت المقدس ، ثم اذكر قول ابن عباس : البيت المقدس بنته الأنبياء ، وسكنته الأنبياء ، مافيه موضع شبر إلا وقد صلى فيه نبى ، أو قام فيه ملك ، ثم اذكر مايزعمون من أن أول شئ حسر عنه الطوفان بيت المقدس وأن فيه ينفخ فى الصور يوم القيامة ، وعلى صخرته ينادى المنادى يوم القيامة !!

اذكر هذا كله ، ثم دعنا نخبرك بأن الغزالى يتمدّح

فى كتابه « المنقذ من الضلال » بأنه كان يرحل الى بيت المقدس فيدخل الصخرة كل يوم ويغلق بابها على نفسه ، ويتعبد فيها طول النهار ! ! وأنه انكشفت له فى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها كما قال

هـذه المواطن التى قدسها الخيـال ، ووضعت فى فضلها الاحاديث ، أثرت تأثيرا بيّنا فى حياة الغزالى العقلية ، وطبعت نظره الى العالم بطابع خاص . ولولا خوف الاطالة لوصفنا مارآه فى سياحاته من المشاهد والبقاع ، ولـكن الرغبة فى الايجاز أرضتنا عن الاكتفاء بأشهر ما عرف من البلاد

الفصل السابع

أعياں ذلك العصر

الذى يهمنا من أعيان العصر الذى عاش فيه الغزالى انما هو ذكر أساتذته . لتأثيرهم فى تكوين عقله ، غير أنه من الحسن أن نذكر طائفة من علماء ذلك العصر ، لأن فى ذلك تصويراً لحركة العقول اذ ذاك . ونكرر ماقلناه من أن الغرض انما هو أن نقرّب للقارئ زمان الغزالى ومكانه ، نوعاً من التقريب . فأمّا تحديد

اتجاهات الفكر فى تلك الآونة ، فلا يسعه هذا المؤلف ، الذى يراد به درس آراء الغزالى فى الأخلاق

الشهرستانى

هو أبو الفتح محمد بن عبد الكريم المولود سنة ٤٧٩ والمتوفى سنة ٥٤٨ . تلقى العلم فى نيسابور على أبى الحسن على بن احمد المدينى ، وقد ذكر السبكى بقية اساتذته فى ص ٧٨ ج ٤ من طبقاته . ومن أشهر تآليفه كتاب (الملل والنحل) وهو كتاب جيّد . قال فى مقدمته « وبعد فلما وفقنى الله تعالى لمطالعة مقالات أهل العلم من أرباب الديانات والملل ، وأهل الأهواء والنحل ، والوقوف على مصادرها ومواردها ، واقتناص أوانسها وشواردها ، أردت أن أجمع ذلك فى مختصر يحوى جميع ما تديّن به المتدينون ، وانتحله المنتحلون ، عبرة لمن استبصر ، واستبصارا لمن اعتبر » وقيمة هذا الكتاب ترجع الى جمعه أكثر الآراء التى عرفها المسلمون لذلك العهد ، ومن عيوبه الأيجاز والغموض فى أكثر المواطن التى تحتاج الى البسط والبيان : وقد رماه معاصروه بزيغ العقيدة « لمبالغته فى نصرة مذاهب الفلاسفة » وسترى فيما بعد أن الشك فى عقائد أنصار الفلاسفة كان من علامات ذلك الجيل

الأبيوردى

هو أبو المظفّر محمد بن احمد الأبيوردى ، تفقه على إمام الحرمين ، وشهد له أهل زمانه بحسن العقيدة — وكذلك كان العلماء دائماً فى حاجة الى شهادة العامة لهم بحسن العقيدة ، كأنما الدين خرافة يسيغها العوام وينكرها الخواص — وكان الأبيوردى يرى نفسه أولى بالخلافة وأحق بها من سواه ، وقد جرّت له هذه النزعة بلايا كثيرة ، اضطر بسببها الى مفارقة بغداد ، فرجع الى همذان واشتغل مدة بالتدريس والتأليف ، ثم توفى مسموماً بأصبهان فى ربيع الاول سنة ٥٠٧

وكان الأبيوردى بارع الشعر ، وله فى الصبر على أحداث الدهر آيات بينات ، ويندر أن تجد أديبا لايحفظ قوله :

تنكر لى دهرى ولم يدر أننى * أعزّ وأحداث الزمان تهونُ
فبات يرينى الخطب كيف اعتداؤه * وبت أريه الصبر كيف يكون

ومن بديع الشعر أبياته التى يتشوّق فيها الى أحبابه ، وقد خلاّهم ببغداد

ألاليت شعرى هل أرانى بغيضة * أبيت على أرجائها وأقيل
هواء كأيام الهوى لايغبهُ * نسيم كلحظ الغانيات عليل
وعصر رقيق الطرتين تدرجت * على صفحتيه نفرة وقبول

وأرض حصاها لؤلؤ وترابها * تضوّع مسكا والمياه شمول
بها العيش غض والحياة شهيّة * وليلى قصير والهجير أصيل
فقل لأخلائى ببغداد هل بكم * سلوّ فعندى رنّة وعويل
ترنحنى ذكراكمُ فكأنما * تميل بى الصهباء حيث أميل
لئن قصرت أيام أنسى بقربكم * فليلى على نأى المزار طويل

الأُرجانى

هو أبو بكر احمد بن الحسين الأرّجانى ، ولد حوالى سنة ٤٦٠ وتوفى سنة ٥٤٤ أصله من شيراز وتولى القضاء بمدينة تُستَر . وهو من فحول الشعراء ، وله هذه الأبيات :

سفَرَت كى تزوّد الحِب منها * نظرةً حين آذنت بالتنائى
وأرت أنها من الوجد مثلى * ولها للفراق مثل بكائى
فتباكت ودمعها كسقيط الطـلّ * فى الجلنارة الحمراء
فترى الدمعتين فى حمرة اللو * نِ سواءً وما هما بسواء
خدها يصبغ الدموع ودمعى * يصبغ الخد قانيا بالدماء
خضّب الدمع خدها باحمرار * كاختضاب الزجاج بالصهباء

وفى مقدور القارئ أن يرجع الى كتب الأدب والتاريخ ليعرف من نبغوا فى القرن الخامس ، فأن الوقوف على آراء أولئك النوابغ من أقرب السبل الى فهم روح ذلك العصر ، أما نحن فلا نريد أن نطيل

الباب الثانى

في

حياة الغزالى

تمهيد

نريد أن نتكلم بايجاز عن حياة الغزالى ، لأنه لا يعنينا منها غير جانب واحد: وهو حاله حين وضع مؤلفاته فى الأخلاق

ونحب أن ننبه القارئ إلى أن المصدر الموثوق به انما هو كتابه «المنقذ من الضلال» فأما الكتب التى ترجمته فهى فى أكثرها موصومة بالمغالاة ، لأن الغزالى كما سترى نزل من أهل عصره ومن بعدهم منزلة حملت أكثر مترجميه على تصوّره كرجل لا ينبغى لأحد أن يناله بنقد أو تجريح ، وانهم لواهمون :

ولمَ نستشير التراجم ، والمترجَم نفسه يتكلم بسذاجة وإخلاص عن تطوّر حالته العقلية ، وهى التى تهمنا فى هذا الباب

الفصل الأول

أسرته

ولد الغزالى من أسرة فارسية ، لم يهتم بها التاريخ . وانه ليكفى أن نعرف شيئاً عن أبيه وأخيه ، لنعرف الروح السائد فى أسرته .

أما أبوه فقد نقل السبكى فى طبقات الشافعية « انه كان فقيراً صالحاً لايأكل إلا من كسب يده فى عمل غزل الصوف ويطوف على المتفقهة ويجالسهم ، ويتوفر على خدمتهم ، ويجدّ فى الأحسان إليهم ، والنفقة بما يمكنه عليهم ، وأنه كان إذا سمع كلامهم بكى وتضرع ، وسأل الله أن يرزقه ابناً ويجعله فقيهاً ، وانه كان يحضر مجالس الوعظ ، فاذا طاب وقته بكى . وسأل الله أن يرزقه ابناً واعظاً » ص ١٠٢ ج ٤

وقد صار ابنا هذا الفقير فقيهين ، واعظين ، فان شئت قلت إنها دعوة أجيبت ، وإن شئت قلت إن حب هذا الرجل للفقه والوعظ نقل إلى ولديه بطريق الوراثة

وأما أخوه فقد ذكر غير واحد انه طاف البلاد وخدم

الصوفية فى عنفوان شبابه ، وصحب المشايخ ، واختار الخلوة والعزلة ، حتى انفتح له الكلام على طريقة القوم ، وأنه خرج الى العراق ، ومالت اليه القلوب ، ودخل بغداد وعقد مجلس الوعظ ، فظهر له القبول ، وازدحم الناس على حضور مجلسه ، وأن صاعد بن فارس دوّن مجالسه ببغداد فبلغت ثلاثا وثمانين . وذكر ابن خلكان أنه كان صاحب كرامات واشارات ، وأنه كان من الفقهاء غير أنه مال الى الوعظ فغلب عليه . وينقلون أن قارئاً قرأ يوماً بين يديه (ياعبادىَ الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله) فقال شرفهم بياء الأضافة إلى نفسه بقوله ياعبادى ثم أنشد

وهان علىّ اللوم فى جنب حبها * وقول الأعادى إنه لخليعُ
أصمّ اذا نوديت باسمى وإننى * اذا قيل لى ياعبدها لسميع

ويروون أنه حكى يوماً فى مجلس وعظه أن بعض العشاق كان مشغولا بحسن صورة معشوقه ، وكان هـذا موافقا له ، فجاءه يوماً بكرةً وقال له : انظر الى وجهى فأنا اليوم أحسن من كل يوم . فقال وكيف ذلك ؟ قال نظرت فى المرآة فاستحسنت وجهى ، فأردت أن تنظر الىّ ، فقال : بعد أن نظرت الى وجهك قبلى لاتصلح لى . وهذه الحكاية تمثل اتجاه خاطره نحو الفناء

ومن كلامه «من كان فى الله تلفُه ، كان على الله خَلَفُه» وكان

ينصح أخاه أبا حامد الغزالى بقوله :

اذا صحبت الملوك فالبَسْ * من التوقّى أعزّ ملبسْ
وادخل إذا ما دخلت أعمى * واخرج إذاماخرجت أخرسْ

وكان أساتذتنا فى الأزهر يقصون علينا أحسن القَصَص فى تأثير هذا الرجل على أخيه ، ويضربون لنا بورعه الأمثال ، وقد حاولت أن أجد سنداً لما يتحدثون به فلم أجد ، فعرفت أن أكثر ماعرف عنه إنما هو من صنع الخيال .

ولو أننا أضفنا إلى ماسلف أن الغزالى كان صغيراً حين مات أبوه ، وأن الذى كفله مع أخيه هو رجل متصوف من أهل الخير بوصية والده ، لعرفنا كيف تعاونت الظروف على أن تصبغ روحه بصبغة صوفية ، وكيف أثّرت هذه الصبغة على آرائه فى الأخلاق

الفصل الثانى

مولده ونشأته

ولد الغزالى فى طوس سنة ٤٥٠ هـ وفيها تلقى مانفقه به فى صباه على أحمد بن محمد الراذكانى ؛ ثم سافر إلى جرجان حيث تلقى طرفا من العلم عن الامام أبى نصر الاسماعيلى وعلق عنه

التعليقة — كما كانوا يقولون — ثم رجع إلى طوس وأقام بها ثلاث سنين يراجع ماتلقاه فى جرجان ، ثم قدم نيسابور حيث يدرس إمام الحرمين فى المدرسة النظامية علوم الفقه والمنطق والأصول فلازمه إلى أن توفى فى سنة ٤٧٨ . ثم خرج إلى العسكر وهى محلة بالقرب من نيسابور يقيم فيها نظام الملك — وكان إذ ذاك فى الثامنة والعشرين من عمره — وكان نظام الملك قد سمع الثناء على عقله وعلمه وأدبه . فأحضره مجلسه ، وكان منتدى العلماء ، فوجدت الفرصة لينشر الغزالى أثمن مافى خزانته من نفائس العلم وكان من نتيجة ذلك أن برع من كانوا يغشون مجلس نظام الملك وظهر عليهم ، فولاه ذلك الوزير رتبة التدريس فى مدرسة بغداد سنة ٤٨٤

ولننظر ماذا يقول عن طلبه للعلم من أوائل حياته العلمية إلى أن نيّف على الخمسين « ولم أزل فى عنفوان شبابى منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين . أقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمراته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل فى كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأقتحم كل ورطة ، وأتفحص عقيدة كل فرقة ، واستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على بطانته ، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل

ظهارته ، ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولامتكلما إلا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولاصوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته ، ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً معطلا إلا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته وقد كان التعطش إلى إدراك حقائق الأمور دأبى وديدنى ، من أول أمرى ، وريعان عمرى ، غريزة وفطرة من الله تعالى وضعها فى جبلتى ، لاباختياري وحيلتى ، حتى انحلت عنى رابطة التقليد ، وانكسرت عنى العقائد الموروثة على قرب عهد بسن الصبا »

وهذه الفقرة تدلنا على أمرين : الأول أن المذاهب الفلسفية كانت كثيرة الانتشار لذلك العهد ، وأن أصحابها كانوا يجتهدون فى الدفاع عنها ، ويجدون فى إذاعتها بين الناس . والثانى أن الغزالى لم يكن من أولئك الطلبة الأغبياء الذين لايعرفون غير رأى واحد : يعيشون عليه ، ويموتون عليه ! بل كان طالب علم بمعنى الكلمة ، يعرف أن واجبه يقضى عليه بأن يعلم حقيقة كل نِحْلة ، وكُنه كل مذهب ، ومقصد كل فرقة ، ومرمى كل عقيدة

وكان أول ما أثار فيه هذه الرغبة مارآه من أن صبيان النصارى ينشأون على التنصّر ، وصبيان اليهود على التهوّد ، وأطفال المسلمين على الاسلام . وكانت هذه الملاحظة الوجيهة باعثاً له على أن يشك فى دينه حتى يتبين حقيقته — وإن لم يحدثنا

عن ذلك — لأنه ما الدليل على أن النصرانية خير من اليهودية، أو أن الاسلام خير من النصرانية، أو أن اليهودية خير من الاسلام، كما يتحدث النصارى والمسلمون واليهود: كلٌّ على ماهو بسبيله من تفضيل دينه على غيره من الديانات؟

وهنا يصرح الغزالى بأنه انتهى إلى أنه لاقيمة للتقليد، لأنه موجود فى كل أمة وفى كل ملة، وانما القيمة كلها لليقين الذى لو تحدى لأظهار بطلانه من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً لم يورث ذلك فيه شكاً، كما أنك لو علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة، وقال قائل لا، بل الثلاثة أكبر، بدليل أنى أقلب هذه العصا ثعباناً، ثم قلبها وشاهدت ذلك منه، لم تشك بسببه فى معرفة أن العشرة أكثر من الثلاثة

الفصل الثالث

هبانه الروحية

ولكن الغزالى لم يستمر على تلك النزعة الجريئة التى أقنعته بأن لا قيمة لغير اليقين، بل اندفع يحدثنا عن شكوك نرجح انه لم يكن فيها غير صادق، وأخذ يبيّن أنه اقتنع أولاً بأن

اليقين ينحصر فى الحسيات والضروريات ، ثم رأى أن الحس ليس أهلا للثقة به ، لأنك تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك وتحكم بنفى الحركة ، ثم تعرف بعد ساعة بالتجربة والمشاهدة أنه متحرك ، وأنه لم يتحرك دفعة واحدة ، بل على التدريج ذرة ذرة حتى لم تكن حالة وقوف ، ثم يذكر الغزالى أنه بعد أن بطلت ثقته بالمحسوسات ولى وجهه شطر العقليات التى هى من جنس الأوليات كقولنا العشرة أكثر من الثلاثة ، والنفى والاثبات لايجتمعان فى الشئ الواحد ، والشئ الواحد لايكون حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً ، واجباً محالا . ثم يزعم أن المحسوسات قالت له : بمَ تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات وقد كنت واثقاً بى فجاء حاكم العقل فكذبنى ، ولولا أن جاء حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقى ، فلعل وراء إدراك حاكم العقل حاكماً آخر إذا تجلَّى كذَّب العقل فى حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذَّب الحِسَّ فى حكمه ، وعدم تجلى ذلك الادراك لايدل على استحالته ؟

وهنا يدخل الغزالى فى مَضايق من شِعاب الحدْس والتخمين فيتوهم أنه لايبعد أن تكون هناك حالة فوق اليقظة التى هي بلا شك أثبت من حالة النوم ، وتكون نسبة اليقظة اليها كنسبة

النوم إلى اليقظة ، ثم يتردد فى تعيين هذه الحالة فلا يدرى أهى الموت الذى تنكشف به حقائق الأشياء لقوله تعالى (لَقَدْ كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) أم هى حالة الصوفية : إذ يزعمون أنهم يشاهدون فى أحوالهم التى هى لهم أنهم إذا غاصوا فى أنفسهم ، وغابوا عن أحوالهم وحواسهم ، رأوا أحوالا لاتوافق المعقولات ؟؟

ثم يذكر الغزالي أنه عاد إلى قبول الضروريات العقلية ، ولكن عودته لم تكن بنظم دليل وترتيب كلام ، بل كانت بنور قذفه الله فى صدره كما قال

ونحن لاننازع الغزالى فى أن لله نوراً يقذفه فى صدور عباده ولكن نسأله : لم لاتكون الاحكام العقلية قبسا من ذلك النور ؟ ونسأله كذلك : ماهى حالة المرء الذى ينتظر هذا النور الذى تراه فوق البرهان والدليل ؟

على أن الذى يعنينا قبل كل شىء : هو أن نسجل أن الغزالى وضع مؤلفاته فى الأخلاق وهو على هذه الحال . ونرجح أن حياته الروحية ابتدأت بعد توليه التدريس فى مدرسة بغداد ، ثم لازمته إلى النهاية ، كما ستراه

الفصل الرابع

فهمه للحياة

ولأجل أن نتبين وجهة نظره فى أحكامه الأخلاقية ، ينبغى أن نعرف كيف كانت صحته ، وكيف كان مزاجه ، وكيف كان فهمه للحياة ، حين عنى بالتأليف فى الأخلاق . فان معرفة مزاج المؤلف ، وصحته ، وفهمه للحياة الاجتماعية ، من أهم ماينبغى تقديمه قبل الشروع فى درس ماترك المؤلفون

والسند الصحيح لحياة الغزالى هو كتابه (المنقذ من الضلال) فلندعه يصف لنا حياته فى عزلته التى دامت نحو عشر سنين ، والتى وضع فى أثنائها كتاب الاحياء وهو أهم ما كتب فى الأخلاق

قال بعد كلام طويل : « ثم انى لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتى على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقهم انما تتم بعلم وعمل ، وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله ، وكان العلم أيسر علىّ من العمل ، فابتدأت بتحصيل علمهم ، من مطالعة كتبهم ، مثل قوت القلوب لأبى طالب المكى ،

وكتب الحارث المحاسبي والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ، وظهر لي أن أخص خواصهم لا يمكن الوصول اليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال ، وتبدل الصفات . فكم من الفرق بين أن يعلم المرء حد الصحة ، وحد الشبع ، وأسبابهما ، وشروطهما ، وبين أن يكون صحيحاً وشبعان . وبين أن يعرف حد السكر ، وأنه عبارة عن حال تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر ، وبين أن يكون سكران ، بل السكران لا يعرف حد السكر وهو سكران ما معه من علمه شيء ، والصاحي يعرف حد السكر وأركانه وما معه شيء من السكر ، والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد للصحة ، فكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطه وأسبابه وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا

« فعلمت يقيناً أنهم أرباب أحوال ، لا أصحاب أقوال ، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ، ولم يبق الا مالا سبيل اليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك ، وكان قد حصل معي من العلوم التي مارستها ، والمسالك التي سلكتها ، في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية إيمان يقيني بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر : فهذه الأصول الثلاث من الايمان كانت قد رسخت في نفسي ، لا بدليل معين محرر ، بل بأسباب وقرائن وتجاريب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها . وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع في سعادة الآخرة الا بالتقوى وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا

بالتجافى عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود ، والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وأن ذلك لا يتم الا بالاعراض عن الجاه والمال والهرب من الشواغل والعوائق ، ثم لاحظت أحوالى فاذا أنا منغمس فى العلائق وقد أحدقت بى من جميع الجوانب ، ولاحظت أعمالى ، وأحسنها التدريس والتعليم : فاذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة فى طريق الآخرة ، ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس فاذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت ، فتيقنت أنى على شفا جرف هار ، وأنى قد أشرفت على النار ، ان لم أشتغل بتلافى الاحوال ، فلم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختيار : أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الاحوال يوماً وأحل العزم يوماً ، وأقدم فيه رجلا وأؤخر عنه أخرى ، لا تصدق لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة الا ويحمل عليها جند الشهوة حملة فيفترها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسلاسلها الى المقام ، ومنادى الايمان ينادى : الرحيل ! الرحيل ! فلم يبق من العمر الا القليل . وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل ، فان لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد ، وان لم تقطع الآن هذى العلائق فمتى تقطع ؟؟!!

« فبعد ذلك تنبعث الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار ، ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حالة عارضة ، واياك أن تطاوعها فانها سريعة الزوال ، فان أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم الخالى عن التكدير والتنغيص ، والأمر المسلم الصافى عن منازعة الخصوم ، ربما لا تتيسر لك المعاودة . فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات

الدنيا ودواعى الآخرة قريباً من ستة أشهر . أولهـا رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وفى هـذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار الى الاضطرار ، اذ قفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوما واحداً تطييباً لقلوب المختلفين الىّ ، فكان لا ينطلق لسانى بكلمة ولا أستطيعها ألبتة ، ثم أورثت هـذه العقلة فى اللسان حزناً فى القلب بطلت معه قوة الهضم وقرم الطعام والشراب ، فكان لا ينساغ لى شربة ، ولا تنهضم لى لقمة ، وتعدى ذلك الى ضعف القوى ، حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج ، وقالوا هـذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى الى المزاج ، فلا سبيل الى العلاج »

وانما نقلت هذه القطعة الطويلة من كتابه المنقذ من الضلال لأن الغزالى عندى صادق فيما يحدث عن نفسه ، وكلامه خير للباحث من استشارة التراجم المختلفة ، ولم نستشير التراجم ، والمترجَم نفسه يحدثنا عن تطور حالته العقلية ؟

وهل أدل على لون نفسه فى ذلك الحين من قوله بعد ما سلف (ثم لمّا أحسست بعجزى ، وسقط بالكلية اختيارى ، التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذى لا حيلة له ، فأجابنى الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، وسهّل على قلبى الاعراض عن الجاه ، والمال ، والأهل والولد والأصحاب) (! ؟)

ويجب أن ننتبه لهذه الكلمة ، فهى كافية فى تصوير نفسه ، وينبغى أن نعرف أنه نص فيما بعد على أنه دام على هـذه الحال

عشر سنين ، وقد كتب كتبه الأخلاقية وهو فى هذه الحال ، ولا تسأل كيف ترك بغداد ، ولا كيف عاد إلى أهله ، فقد رأيت كيف اعتلت صحته ، وتغير مزاجه ، وكيف سهل على قلبه ترك أولاده ، وهو الذى تمدّح بأنه كان يصعد منارة مسجد دمشق طول النهار ويغلق بابها على نفسه ، وكان يرحل إلى بيت المقدس فيدخل الصخرة كل يوم ويغلق بابها على نفسه !!

على أنه بعد أن عاد إلى أهله (آثر العزلة أيضاً حرصاً على الخلوة ، وتصفية القلب للذكر) كما قال

وأنا لا أهتم بما ذكر من أنه انكشفت له (فى أثناء هذه الخلوات أمور لايمكن إحصاؤها ، واستقصاؤها) وانما يهمنى أن أثبت أنه كتب ما كتب فى الأخلاق وهو على هذه الحال

ويتلخص ماسلف فى ثلاثة أمور

الأول — ماورثه عن أبيه من نزعته الصوفية

الثانى — ما استفاده من وصيّه تأييداً لتلك النزعة

الثالث — عشر سنين قضاها فى العزلة ، لها مالهامن الأثر فى تكوين نفسه ، وتكييف مزاجه ، والتأثير فى كتبه

اذن ليعلم القارئ منذ الآن أن النزعة الغالبة على فهمه للأخلاق إنما هى نزعة الصوفية ، وسيرى ذلك مفصلا فى عدة مواطن من هذا الكتاب

الفصل الخامس

وفاته ورثاؤه

ترك الغزالى بغداد ، وقصد البيت الحرام ، وأدى فريضة الحج فى سنة ٤٨٨ بعد أن أناب أخاه عنه فى المدرسة النظامية ، ثم دخل دمشق فى سنة ٤٨٩ ومكث فيها أياماً ، ثم توجه إلى بيت المقدس فجاور به مدة ، ثم عاد إلى دمشق واعتكف فى المنارة الغربية من الجامع ؛ ثم ذهب إلى الاسكندرية وأقام بها مدة ، ويقال انه كان ينوى الرحلة إلى السلطان يوسف بن تاشفين ، لما بلغه من عدله ، ولكنه لما سمع بموته عاد إلى التجول فى الآفاق لزيارة المشاهد والترب والمساجد ، كما يقول مترجموه ، ثم رجع إلى بغداد وعقد بها مجلس الوعظ ، وتكلم بلسان أهل الحقيقة ؛ وحدث بكتاب الأحياء . ثم عاد إلى خراسان ودرس بالمدرسة النظامية فى نيسابور ، ثم رجع إلى طوس واتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء وخانقاه للصوفية ، ووزع أوقاته على وظائف من ختم القرآن ومجالسة أرباب القلوب ، والتدريس لطلبة العلم ، وإدامة الصلاة والصيام ، إلى أن توفى رحمه الله بطوس يوم الاثنين

رابع عشر جمادى الآخرة سنة ٥٠٥ . قال السبكى : ومشهده يزار بمقبرة الطابران

قال الزبيدى « ووجدت فى كتاب بهجة الناظرين وأنس العارفين للعارف بالله محمد بن عبد العظيم الزمورى ما نصه : ومما حدثنا به من أدركنا من المشيخة أن الامام أبا حامد الغزالى لما حضرته الوفاة أوصى رجلا من أهل الفضل والدين كان يخدمه أن يحفر قبره فى موضع بيته ، ويستوصى أهل القرى التى كانت قريبة الى موضعه ذلك بحضور جنازته وأن لا يباشره أحد حتى يصلى ثلاثة نفر من الفلاة لا يعرفون ببلاد العراق : يغسله اثنان منهما ويتقدم الثالث للصلاة عليه بغير أمر ولا مشورة . فلما توفى فعل الخادم كل ما أمره به ، وحضر الناس ، فلما اجتمعوا لحضور جنازته رأوا ثلاثة رجال خرجوا من الفلاة ، فعمد اثنان منهم الى غسله ، واختفى الثالث ولم يظهر ، فلما غسل وأدرج فى أكفانه ، وحملت جنازته ، ووضعت على شفير قبره ، ظهر الثالث ملتفاً فى كسائه ، وفى جانبه علم أسود ، معمما بعمامة صوف ، وصلى عليه وصلى الناس بصلاته ، ثم سلم وانصرف ، وتوارى عن الناس ، وكان بعض الفضلاء من أهل العراق ممن حضر الجنازة ميزه بصفاته ولم يعرفه ، الى أن سمع بعضهم بالليل هاتفاً يقول لهم : ان ذلك الرجل الذى صلى بالناس هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن اسحق الشريف ، جاء من المغرب الاقصى من عين القطر ، وأن اللذين غسلاه هما صاحباه الخ »

وهذه بالطبع خرافة لفقها المتصوفة بعد موت الغزالى ، وهى فى ذاتها تدل على أن الغزالى لم يمت إلا بعد أن اتفق العامة

على صلاحه ، فقد رمى بالزندقة فى جزء من حياته ، ثم عاد فى نظر العامة من المكاشفين ، حتى ليذكرون أنه أنشأ عند موته هذه القصيدة

قل لإخوان رأونى ميتا * فبكونى ورثونى حزنا
أعلى الغائب منا حزنكم * أم على الحاضر معكم ههنا
أتخالونى بأنى ميتكم * ليس ذاك الميت والله أنا
أنا فى الصدر وهذا بدنى * كان جسمى وقميصى زمنا

وهى طويلة تجدها ضمن مجموعة مخطوطة نمرة ١٢١ تصوف بدار الكتب المصرية . وهى كذلك مما لفقه أصحابه بعد موته ، وما أكثر مازوّر باسمه من الآثار ! !

ونقل ابن الجوزى فى كتاب الثبات عند الممات عن أحمد أخى الغزالى أنه قال : لما كان يوم الاثنين وقت الصبح توضأ أخى أبو حامد وصلى ، وقال علىّ بالكفن ، فأخذه وقبّله ووضعه على عينيه ، وقال : سمعاً وطاعة للدخول على الملك ، ثم مدّ رجليه واستقبل القبلة ، ومات قبل الإسفار

وسبحان من تفرّد بالبقاء

وقد رثاه الابيوردى بقوله :

بكى على حجة الاسلام حين ثوى * من كل حىّ عظيم القدر أشرفه

فما لمن يمترى فى الله عبرته * على أبى حامد لاحٍ يعنفه
تلك الرزية تستوهى قوى جلدى * فالطرف تسهره والدمع تنزفه
فما له خلة فى الزهد منكرة * وما له شبهة فى العلم تعرفه
مضى ، وأعظم مفقود فجعت به * من لا نظير له فى الناس يخلفه

وقال فى رثائه القاضى عبد الملك المعافى

بكيت بعينىَّ نَمَا كل القلب واله * فتى لم يوال الحق من لم يوالهِ
وسيبت دمعاً طالما قد حبسته * وقات لجفنى واله ثم والهِ

* * *

ونحن — فى جملة من انتفع بمؤلفات الغزالى — نسأل الله أن يرحمه رحمة واسعة ، وأن يجزيه أحسن الجزاء على ما قدم فى سبيل العلم والدين من صادق الجهود ، وأن يتجاوز عن سيئاته بمنه وكرمه انه نعم المولى ونعم النصير ، وهو بالمؤمنين رءوف رحيم

الباب الثالث

فى

المنابع التى استقى منها الغزالى

تمهيد

يذكر مؤرخو الفلسفة أن سقراط هو أول من بدأ بالتفكير فى الانسان وما يتعلق به ، وأنه أول من قال : إعرف نفسك بنفسك . ولعلهم يريدون أنه أول من بحث فى الانسان بحثاً منظما من حيث واجبه نحو نفسه ، ونحو شركائه فى الاجتماع ، على أن يكون ذلك علماً ذا قواعد وأصول

أما البحث فى أن بعض الأعمال شر ، وبعضها خير ، وشىء منها نافع ، وشىء منها ضار ، فهو قديم سبق سقراط بأجيال

فالأمة العربية التى ورث الغزالى وورث أساتذته آدابها القديمة ، كانت تقول الشعر والنثر فى تهذيب الأخلاق ، فمن الواضح أن قول بعض الاعراب فى وصية ابنه « المنية ولا الدنية » فيه ضرب من التهذيب الفردىّ ، وقول أحدهم فى حض الجيش

على صدق اللقاء « الطعن فى النحور أكرم من الطعن فى الظهور » فيه نوع من تقويم المحاربين ، لأن الأخلاق لاتعرف موطناً بعينه ، وانما تتبع الرجل فى كل حال

وكذلك قول أكثم بن صيفى « العقل راقد ، والهوى يقظان . والشهوات مطلقة ، والحزم معقول . والمستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل . أصبح عند رأس الأمر أحب إلىّ من أن أصبح عند ذنَبه . لم يهلك من مالك ما وعظك ، نفاذ الرأى فى الحرب ، أجدى من الطعن والضرب ، التقدم قبل التندم . ويل لعالم أمر من جاهله ، يتشابه الامر إذا أقبل ، فاذا أدبر عرفه الكيس والأحمق » فى هذه الكلمات كثير من الآداب الاجتماعية ، وهى جزء من علم الأخلاق

ونجد شعراء الجاهلية والاسلام ضربوا بسهم فى معرفة الطبائع البشرية ، فنرى فى شعرهم شيئاً عن أثر الوراثة ، وأثر الرفقة ، وأثر الجوار ، الى غير ذلك من المعانى التى بسطها الفلاسفة حين تكلموا فى الأخلاق . فقول ذى الأصبع العدوانى :

كل امرئ صائر يوما لشيمته   وأن تخلق أخلاقا الى حينِ

يماثل بعض المذاهب الأخلاقية

وقول مسكين الدارمى :

وفتيان صدق لست مطلع بعضهم * على سر بعض غير أنى جماعها
لكل امرئ شِعب من القلب فارغ * وموضع نجوى لايرام اطلاعها
يظلون شتى فى البلاد وسرهم * الى صخرة أعيا الرجال انصداعها

يماثل ما يضعه الفلاسفة فى الآداب الفردية

ويمكننا أن نعد المدح والهجاء من علم الأخلاق ، لأن المدح فى الغالب تصوير للفضائل ، والذم تمثيل للرذائل ، ووصف الفضائل والرذائل مما يُعنى به علم الأخلاق

فقول قَعنب بن ضَمرة :

إن يسمعوا ريبةً طاروا بها فرحا * عنى وما سمعوا من صالح دفنوا
صُمٌّ إذا سمعوا خيراً ذكرت به * وان ذكرت بشر عندهم أذنوا
جهلا علينا وجبناً عن عدوهمُ * لبئست الخَلّتان الجهل والجُبُنُ

هذا هجاء ، ولكن فيه تصوير لبعض الصفات الذميمة التى يُعنى بحربها علم الأخلاق

وقول حسان بن ثابت :

أصون عرضى بمالى لا أدنسه * لابارك الله بعد العرض فى المال
أحتال للمال إن أودى فأجمعه * ولست للعرض ان أودى بمحتال

هذا فخر ، ولكن فيه تصوير لفضيلة من كرائم الفضائل الانسانية

ولا تنس الحِكَم التى فاضت بها النفوس العربيـة ، فأى كلام أكرم وأمتع من قول وابصة الأسدى :

أحب الفتى ينفى الفواحش سمعه * كأن به عن كل فاحشة وَقْرا
سليم دواعى الصدر لا باسطاً أذى * ولا مانعاً خيراً ولا قائلا هُجرا
اذا شئت أن تدعى كريماً مكرما * أديباً ظريفاً عاقلا ماجدا حرا
اذا ما أتت من صاحب لك زلة * فكن أنت محتالا لِزَلته عذرا
غنى النفس ما يكفيك من سد خلة * فان زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقرا

والقرآن :

فى القرآن تحليل دقيق لنزعات النفوس ، وخلجات القلوب ، وفيـه حل لأكثر المشاكل الأخلاقية التى شقى فى حلها الحكماء ، ففيه أدب الرجل مع ربه ، ومع نفسـه ، ومع زوجه ، ومع آبائه ، ومع أبنائه ، ومع اخوانه ، ومع أصدقائه ، ومع أعدائه ، ويندر أن نجد مشكلة خلقية لم يعن بحلها القرآن . وفى الحديث توضيح وتتميم لما فى الكتاب العزيز ، ويكفى أن تنظر فيما يخص الأدب من كتب السنة لتعرف صدق ما نقول

وبعد ما جاء فى خطب العرب وشعرها ، وما جاء فى القرآن والحديث ، وضعت كتب خاصة للسير والسلوك ، من أقدمها كليلة ودمنة ، الذى ترجمه ابن المقفع عن الفارسية ، وقفّاه بكتابيه

الادب الكبير والادب الصغير ، ووضعت أبواب مطولة في كتب الفقه عن آداب الزواج ، ومعاملة الرقيق ، ومعاملة المحاربين ، وما الى ذلك مما يهتم به الناس فى الحرب والسلم ، ويبنى عليه الاجتماع

ثم كانت المقامات والخطب المنبرية ، التى أودعها الأدباء والمصلحون آراءهم فى تهذيب النفوس ، وتلطيف الطباع

كل ما قدمته كان ينبوعا صافيا ينهل منه الغزالى ويعل وهو يضع مؤلفاته فى الأخلاق ، وقد تبينت أحكامه ، فرأيته لا يضع حكما إلا وقد اقتبسه من حكمة ، أو مثل ، أو بيت من الشعر ، أو آية ، أو حديث ، أو أثر ، الى غير ذلك مما قرأه بنفسه أو سمعه من أساتذته ، ولقد حاولت أن أرجع كل حكم لأصله ، ولكنى رأيت فى ذلك منافاة للايجاز ، وهو شرط هذا الكتاب

على أن الغزالى مع ترسمه لما سبقه من الآثار الادبية لم يخل من حرية الفكر ، والميل الى التجديد ، فقد خرج على الاشعرى فى بعض آرائه ، وخالف الشافعية فى بعض مايقولون به ، ولكنه على كل حال يساير المتقدمين ، ولا يخالفهم — حين يخالفهم — الا برفق واحتياط ، كما يفعل الحذر الهيوب

الفصل الأول

المصادر الفلسفية

درس الغزالى الفلسفة ، ولكنه درسها بنية سيئة ، درسها ليسبر غورها ، ثم ينشر مساويها فى العالمين !

وقد درسها بنفسه ، ولم يتتلمذ لأستاذ ، فكان ذلك داعية لهذا البغض العميق ، الذى جعله ينسى الفلاسفة ، ولم يذكرهم إلا بسوء فى كتبه الاخلاقية ، ولو أنه تلقاها على أستاذ كما تلقى الفقه ، والتصوف ، والتوحيد ، لرجونا أن تخف حدته كلما وجد الفرصة سانحة ليسلق الفلاسفة بلسان حديد [1]

ذلك بأن الأساتذة ينتصرون لعلومهم ، ويؤثرون فى تلامذتهم أثراً غير قليل ، وأثر المتصوفة من أساتذة الغزالى واضح كل الوضوح فيما صبغت به آراؤه الدينية والأخلاقية

ولكن هل نجا الغزالى من محاكاة الفلاسفة حين كتب فى الأخلاق ؟ كلا ! وإن نظرة فى تقسيم الفضائل ، وطرائق كسبها ، وتنويع الرذائل ، ووسائل الخلاص منها ، لترينا مبلغ محاكاته للفلاسفة الذين كتبوا فى الأخلاق ، والآداب الاجتماعية

(١) انظر ص ٩ و ١٠ من المنقذ

وإنك لتضحك بملء فيك حين تراه يقول فى كتابه المنقذ من الضلال

« وأما السياسات فجميع كلامهم فيها يرجع الى الحكم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية السلطانية ، وانما أخذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء ، ومن الحكم المأثورة عن سلف الأولياء . وأما الخلقية فجميع كلامهم فيها يرجع الى حصر صفات النفس وأخلاقها ، وذكر أجناسها وأنواعها ، وكيفية معالجتها ومجاهدتها ، وانما أخذوها من كلام الصوفية ، وهم المتألهون المثابرون على ذكر الله ، وعلى مخالفة الأهواء ، وسلوك الطريق الى الله بالاعراض عن ملاذ الدنيا ، وقد انكشف لهم فى مجاهدتهم من أخلاق النفس وعيوبها وآفات أعمالها ما صرحوا به ، فأخذه الفلاسفة ومزجوه بكلامهم ، توسلا بالتجمل به الى ترويج باطلهم » ص ١٦

وقد لحظ الغزالى أن هذه الدعوى العريضة قد تقبل إذا وجهت إلى فلاسفة الاسلام ، فقد قرءوا القرآن ، وعرفوا منه أشياء من حكم الأنبياء والمرسلين ، وقرءوا للصوفية كثيراً من الحكم والأمثال ، ولكن هذه الدعوى قد تظهر باطلة إذا وجهت إلى فلاسفة اليونان ، فانظر ماذا يقول فى ذلك :

« ولقد كان فى عصرهم ، بل فى كل عصر ، جماعة من المتألهين ، لا يخلى الله تعالى العالم منهم ، فانهم أوتاد الأرض ، ببركاتهم تنزل الرحمة الى أهل الأرض » ص ١٧

فعلى هذا لا فضل لسقراط ، ولا أفلاطون ، ولا ارسطاليس فيما وفقوا إليه ، حين كتبوا فى الاخلاق ، وانما الفضل لأولئك

« الأوتاد » الذين شرفت بهم بلاد اليونان منذ آلاف السنين ، ولا أدرى ماذا يفعل الغزالى إذا أقسم الأغارقة بالله جهد أيمانهم إنه لم يكن لهم إله واحد، وانما كان لهم ألف إله وإله ، بل كان من آلهتهم من يحض على اللذة ، ويمهد للفسق السبيل !!

إنه لاشك فى أن الغزالى استقى من المنابع الفلسفية ، فى كل ما كتب عن الأخلاق ، وغاية الأمران وجهة الدين ، ووجهة التصوف ، غلبتا عليه ، وصورتا آراءه بصورة دينية ، روحية ، تبدو للنظرة الأولى وكأنها لا تمت للفلسفة بسبب ، ولا تأخذ منها بنصيب ، وهى فى الواقع متأثرة بما للفلسفة من أصول

وانه لاحرج علينا فى أن نقرر أن الغزالى أصلى الفلسفة نار العقوق فقد كانت سبب حصافته ، وذيوع صيته ، ثم أطمع فيها العامة ، ومكن الجهال من تصغير الحكماء ، وليس تكفيره لابن سينا والفارابى بالأمر الهين ، وان فعلته تلك لتحسب بذرة هذه التقاليد الممقوتة التى يعانيها المفكرون الاحرار ، فى جميع الاقطار الاسلامية ، منذ حين !

اخوان الصفا

جمعية شبه سريه . اجتمعت فى البصرة فى منتصف القرن الرابع . وانما كانت سرية لكره عامة الناس للفلسفة إذ ذاك .

وكان غرض هذه الجمعية نشر المعارف التى يرونها صحيحة فى جميع الأقطار الاسلامية ، فقد كانوا يرون « ان الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولاسبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية ، والمصلحة الاجتهادية » وقد ألفوا إحدى وخمسين رسالة ضمنوها خلاصة العلوم المعروفة لعهدهم — وقالوا فى أول هذه الرسائل « ان الحكماء والفلاسفة الذين كانوا قبل الاسلام تكلموا فى علم النفس ، ولكنهم لما طولوا الخطب فيها ، و نقلها من لغة الى لغة من لم يكن قد فهم معانيها ، حرفها وغيرها ، حتى انغلق على الناظر فيها ، فهم معانيها. ونحن قد أخذنا لب معانيها ، وأقصى أغراضهم فيها ، وأوردناها بأوجز ما يمكن من الألفاظ فى احدى وخمسين رسالة » .

وقد نقل الأستاذ أحمد أمين عن مكدونالد أن بعض الباحثين ظن أن هذه الجمعية جمعية باطنية ، لما بين ما يجىء فيها أحيانا وبين تعاليم الباطنية من التطابق ، وقد عثر المغول عند فتحهم قلعة ألموت على كثير من نسخ رسائل إخوان الصفا[1]

وذكر الأستاذ الكونت دى جلارزا فى محاضراته بالجامعة المصرية ان أحد اخوان الصفا وهو أبو حيان التوحيدى المتوفى نحو سنة ٣٨٩ هـ كان يقول « إن الشريعة لم تكن كاملة ، بل فيها

(١) مبادىء الفلسفه ص ١٢٥

غلطات وجب اصلاحها بواسطة الفلسفة »

ورسائل إخوان الصفا تحتاج إلى درس طويل لمعرفة مافيها من الأغراض الفلسفية ، والدينية ، والسياسية . ويكفى أن يعرف القارئ أن الغزالى اطلع على هذه الرسائل ، واستفاد منها ، وان صب على أصحابها جام سخطه وغضبه ، لان استفادة المرء من كتاب لاتتوقف على حبه لصاحبه ، بل صرح الغزالى بأنه أقبل فى أول حياته العلمية على درس ماعرف لعهده من المذاهب والآراء

الفارابى

هو أبو نصر محمد بن طرخان . وهو فارسىّ من بلدة تسمى فاراب من بلاد خراسان — جاء إلى بغداد . وأخذ علم المنطق عن أبى بِشر مَتّى بن يونان النصرانى الذى توفى سنة ٣٢٨ ثم انتقل إلى مدينة حرّان وتعلم بها الفلسفة ، وعاد بعد ذلك إلى بغداد ، ثم رحل إلى دمشق وأقام بها أيام سيف الدولة بن حمدان

قال سلطان بك محمد فى محاضراته بالجامعة المصرية « وهو فى مقدمة الفلاسفة الاسلاميين الذين طالعوا كتب افلاطون وارسطو ووقفوا على أغراضها . وأحسنوا فهمها . يدل لذلك ما حكاه الشيخ الرئيس من أنه عرف غوامض الفلسفة ، ووقف على مقاصدها ، واستظهر القسم الالهى منها ولم يقف على حقيقة أغراضه ومباحثه ،

فسئمته نفسه . وكان ذات يوم لدى الوراقين ومر عليه دلال كتب ، وبيده مجلد ، وقال له : اشتر هذا . فلما علم أنه فى الفلسفة الالهية ، قال لاحاجة لى به . فقال له الدلال : ان صاحبه محتاج الى بيعه ، ويطلب به ثمنا قليلا . وأبيعكه بثلاثة دراهم . قال فأخذته ووجدته تأليف أبى نصر الفارابى ، فلما قرأته وقفت منه على أغراض ذلك العلم وفهمته بعد أن مللت الاشتغال به ويئست من فهم أغراضه »

وكان معشوق الفارابى من فلاسفة اليونان أرسطو ، حتى قيل انه وجد كتاب النفس لأرسطو وعليه بخط الفارابى « إنى قرأت هذا الكتاب مائة مرة » ولكثرة شرحه لآراء الفلاسفة لقب بالمعلم الثانى كما لقب ارسطو بالمعلم الاول . وسئل : أنت أعلم أم أرسطو ؟ فقال : لو أدركته لكنت أكبر تلاميذه . وتوفى الفارابى رحمه الله سنة ٣٣٩ هـ وهو يناهز الثمانين

وللفارابى آثار كثيرة عدا عليها الفناء ؛ ومن مؤلفاته الباقية « آراء أهل المدينة الفاضلة » وهو يحاكى فيه جمهورية أفلاطون

وقد انتفع الغزالى بمؤلفاته ، وان حكم بكفره مجازفة وبلا دليل

ابن سينا

هو الشيخ الرئيس أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا أشهر فلاسفة المسلمين ، توفى سنة ٤٢٨ وسنه ٥٨ سنة . وكان من أمهر

الأطباء، وكتابه «القانون» كان العمدة فى الطب فى القرون الوسطى عند الشرقيين والغربيين. وقد عنى العرب ببسط آرائه الفلسفية، وبشرح مادوّن فى الاخلاق، وطبائع النفوس

ولا ريب فى أن الغزالى انتفع بمصنفاته، وأن جازاه جزاء سنمّار، حيث حكم بكفره، مجاراةً للعامة، وطاعةً للهوى. وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون

ابن مسكويه

ومن الفلاسفة الذين انتفع الغزالى بآرائهم فى الأخلاق ابن مسكويه: أبو على احمد بن محمد المتوفى سنة ٤٢١ هـ. وهو من فلاسفة المسلمين، وله عدة كتب فى الأخلاق، أشهرها كتابه المسمى: تهذيب الأخلاق، وتطهير الاعراق، وهو يقع فى ١٨٥ صفحة، ويقول فى مقدمته (غرضنا فى هذا الكتاب أن نحصل لأنفسنا خلقاً تصدر به عنا الأفعال كلها جميلة، وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة فيها ولا مشقة، ويكون ذلك بصناعة وترتيب تعليمى، والطريق فى ذلك أن نعرف أولا نفوسنا ما هى، وأى شئ هى. ولأى شئ أوجدت فينا، وما قواها وملكاتها التى اذا استعملناها على ما ينبغى بلغنا بها هذه الرتبة العلية الخ)

وابن مسكويه هـذا ينقل عن الفلسفة اليونانية بطريقة صريحة ، لا لفّ فيها ولا مداورة ، فهو من مجددى فلسفة اليونان مع الحرص بقدر مايمكن على موافقة الشريعة الاسلامية . وكتابه الذى نوهنا عنه ذو أثر كبير فى تكوين الغزالى من الوجهة العقلية وقد هممت بوضع مقارنة بين كتابه ذاك ، وبين كتاب الاحياء ، ثم رأيت ان هذا باب اذا أطلته طال ، واستنفد وقتا أنا محتاج اليه فى غيره من الابواب ، فلأكتف ببعض فقرات نقلها الغزالى عن ابن مسكويه نقلا يشبه أن يكون حرفياً ، من غير أن ينوه بالكتاب الذى نقل عنه ، وما أدرى أكان ذلك مقصوداً أو غير مقصود ، ولكنه على كل حال دليل على تأثر الغزالى بمؤلفات ابن مسكويه ، والى القارىء البيان :

(١) يقول ابن مسكويه (ومن انخدع عن هذه الموهبة السرمدية الشريفة بتلك الخساسات التى لا ثبات لها فهو حقيق بالمقت من خالقه عز وجل ، خليق بتعجيل العقوبة ، وراحة العباد والبلاد منه)

ويقول الغزالى : (ومن انفك عن هـذه الجملة كلها ، واتصف بأضدادها ، استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد)

(٢) يقول ابن مسكويه (إن أول ما ينبغى أن يتفرس فى الطفل ويستدل به على عقله : الحياء ، فانه يدل على أنه قد أحس بالقبيح ، ومع احساسه به يحذره ويتجنبه ، فاذا نظرت الى الصبى فوجدته مستحيياً

مطرقا بطرفه الى الارض ، غير وقاح الوجه ، ولا محدق اليك ، فهو أول دليل نجابته ، والشاهد لك على أن نفسه قد أحست بالجميل والقبيح ، وهذه النفس مستعدة للتأديب ، صالحة للعناية ، لايجب أن تهمل ولا تترك)

ويقول الغزالى : (ومهما رأى فيه مخايل التميز . فينبغى أن يحسن مراقبته ، وأول ذلك ظهوراً أوائل الحياء ، فانه اذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال ، فليس ذلك الا لاشراق نور العقل عليه ، حتى يرى بعض الأشياء قبيحاً ومخالفاً للبعض ، فصار يستحي من شئ دون شئ ، والصبى المستحي لا ينبغى أن يهمل ، بل يستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه)

(٣) يقول ابن مسكويه (ان نفس الصبى ساذجة ، لم تنتقش بعد بصورة ، وليس لها رأى ولا عزيمة تميلها من شئ الى شئ)

ويقول الغزالى (والطفل أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة)

(٤) يقول ابن مسكويه (ويُعلّم ان أولى الناس بالملابس الملونة والمنقوشة النساء اللواتى يتزين للرجال . ثم العبيد والخوَل . وأن الاحسن بأهل النبل والشرف من اللباس البياض وما أشبهه حتى يتربى على ذلك . ويسمعه من كل من يقرب منه ؛ ويكرر ذلك عليه)

ويقول الغزالى (ويحبب اليه من الثياب البيض دون الملون ويقرر عنده أن ذلك شأن النساء والمخنثين ، وأن الرجال يستنكفون منه ، ويكرر ذلك عليه)

(٥) يقول ابن مسكويه (ولا يترك لمخالطة من يسمع منه ضد ما ذكرته ، لا سيما من أترابه . ومن كان فى مثل سنه ممن يعاشره

أو يلاعبه . وذلك أن الصبي في ابتداء نشوئه يكون على الأكثر قبيح الافعال . إما كلها وإما أكثرها . فانه يكون كذوبا . ويخبر ويحكى مالم يسمعه ولم يره . ويكون حسوداً سروقا نماماً لجوجا ذا فضول)

ويقول الغزالى : (ويحفظ الصبي عن الصبيان الذين عودوا الرفاهية فان الصبي مهما أهمل خرج في الأغلب رديء الاخلاق كذاباً حسوداً سروقا نموما لجوجاً ذا فضول)

وبين العبارتين فرق صغير ، وعبارة الغزالى أدق ، لانها تعلق فساد الطفل على اهمال تربيته وتأديبه

(٦) يقول ابن مسكويه (ثم يطالب بحفظ محاسن الأخبار والأشعار التي تجرى مجرى ما تعوده بالأدب . ويحذر النظر في الأشعار السخيفة وما فيها ذكر العشق وأهله ، وما يوهم أصحابها أنه ضرب من الظرف ورقة الطبع . فان هذا الباب مفسدة للاخلاق)

ويقول الغزالى : (ثم يشتغل في المكتب : فيتعلم القرآن وأحاديث الاخيار ، وحكايات الابرار ، ويحفظ من الاشعار التي فيها ذكر العشق وأهله ويحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع ، فان ذلك يغرس في قلوب الصبيان بذور الفساد »

ولئن قال قائل إن هذه آراء فطرية ، لا تصلح مثالاً للنقل والمحاكاة ، فانى أجيبه بأن موافقة الغزالى لابن مسكويه في بعض الأبواب موافقة تكاد تكون تامة ، تدل على الأقل على أنه صدًى لمن قبله ، وأن نصيبه من الابداع قليل

الفصل الثانى

منبع التصوف

وما زال الغزالى يكرع من مناهل الصوفية حتى رَوِى ؛ ثم اندفع يحدث الناس بما يفهمون ومالا يفهمون من أصول السلوك وقد صرح فى كتاب الميزان والاربعين والاحياء بحدَبه على الصوفية ، ورفقه بهم ، وإشفاقه عليهم . بل أظهر تبعيته لهم ، ونسبته اليهم ، ثم أخذ يحن اليهم حنين الغريب الى دياره ! !

وانظر قوله فى منهاج العابدين :

« وان اللمعة التى تظهر منا الآن ليست الا ممن بقى على منهاج أسلافنا وشيوخنا المتقدمين كالحرث المحاسبى ، ومحمد بن ادريس الشافعى والمزنى ، وحرملة ، وغيرهم من أئمة الدين — رحمهم الله أجمعين . فهم كما قال القائل :

وماصحبوا الأيام الا تعففا * وماوجدوا من حب سيدهم بدًا
أفاضل صديقون أهل ولاية * الى سيد السادات قد جعلوا القصدا
تحلل عقد الصبر من كل صابر * وماحلت الايام من عقدهم عقدا

وكنا فى الصدر الأول ملوكا فصرنا سوقة ، وكنا فرسانا فصرنا رجالا ، وليتنا لا ننقطع عن الطريق . والله المستعان على المصائب ، وهو المسئول أن لا يسلبنا هذا الرمق ، انه جواد كريم ، منان رحيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » ص ٩٦ و٩٧

فهل رأيت تحرقا أمرّ من هذا وألذع ؟

أصل التصوف

وهذا التصوف الذى يترسم الغزالى آثار أصحابه ليس فى جملته مما تدعو اليه الشريعة الاسلامية ، وانما هو مزيج من عدة مذاهب هندية ، وفارسية ، ويونانية ، نقلت الى المسلمين ، وصادفت هوى فى نفوس الزاهدين منهم ، فوسموها باسم الدين ، ووضعوا لها على حسابه القواعد والاصول

ويمكن الحكم بأن ما فى التصوف من الدعوة الى طهارة الباطن ، وحب الخير ، وبغض الشر ، وما الى ذلك مما يتعلق بخلوص النفس البشرية من خبيث الصفات ، يرجع فى جوهره الى روح الاسلام ، أما ما يختص بقطع العلائق مع الناس ، والتزهيد فى الحياة ، فهو بعيد عن روح الدين ، لأن الاسلام دين فتح وسيطرة ، وهو يُعِدّ معتنقيه لأن يكونوا سادة ، بخلاف التصوف فانه يلبس أصحابه أرواح العبيد

أنفاس الصوفية

وانك لترى الغزالى يحاكى الصوفية فى أنفاسهم وخطرات قلوبهم ، ويسايرهم خطوة خطوة فى ذم الناس ، وشكوى الزمان ، وأظهر ما يكون هذا فى ذم الاتقياء المزيفين ، وسترى أنه فى كتبه

الأخلاقية قد أشرب حب من يسميهم علماء الآخرة ، حتى ليصف حاله بهذه الأبيات

ظفر الطالبون واتصل الوصـل وفاز الأحباب بالأحبابِ
وبقينا مذبذبين حيارى * بين حد الوصال والإجتناب
نرتجى القرب بالبعاد وهـذا * نفس حال المحال للألباب
فاسقنا منك شربة تذهب الغمَّ * وتهدى الى طريق الصواب
يا طبيب السقام يا مرهم الجر * ح ويامنقذى من الأوصاب
لست أدرى بم أداوى سقامى * وبماذا أفوز يوم الحساب

ومن هنا نراه ينقل كلمات تحتاج الى قيد من الشريعة ، ويسكت عنها لا يقيدها بشئ . وأكثر ما أنكره عليه معاصروه لم يأته الا من جهة استسلامه للخطرات الوجدانية ، التى علقت بنفسه من قراءة كتب التصوف ، حين اعتزل الناس فى دمشق وبغداد

ليس في هذه الابيات خروج عن الشريعة حتى تحتاج الى قيد هذا التعليق في غير محله .

على ان النقاد لم يتركوا له هـذا الأديم صحيحاً ، بل رموه بجهل التصوف ، وسلوكه منه فى بيداء يضل فيها النسيم ، حتى اضطر الزبيدى وغـيره الى أن يثبتوا أنه لم يزد على ان حاكى مافى قوت القلوب والرسالة القشيرية من مختلف الآراء فى طرائق السلوك .

قوت القلوب

وأهم الكتب التى تأثر بها الغزالى من بين كتب الصوفية كتاب قوت القلوب ، فى معاملة المحبوب ، تأليف أبى طالب المكى المتوفى سنة ست وثمانين وثلثمائة ببغداد ، ولا يوجد الآن فى الأسواق ، ومنه نسخة مطبوعة بدار الكتب المصرية نمرة ٢٦٧٧٢ وهو فى مجلدين ، يقع الاول منهما فى ٢٧٠ صفحة والثانى فى ٢٩٧

ويعد هذا الكتاب — بحق — مصدراً لكتاب الاحياء ويكفى أن تقرأ باب التوكل مثلا فى الكتابين لتعرف أنهما يسيران فى طريق واحد ، الى غاية واحدة ، حتى لتجدهما يتفقان غالباً فى الشواهد من الآيات ، والاحاديث ، والأخبار . ويمكن الجزم بأن الغزالى أودع كتاب الاحياء كل ماصح لديه ، وحسن عنده ، من كتاب قوت القلوب ، وان لم يشر الى ذلك ، وربما ستر هذا بتغيير العناوين . فاذا قال أبو طالب المكى (ذكر حكم المتوكل اذا كان ذا بيت) قال هو (بيان آداب المتوكلين اذا سرق متاعهم) وربما وضع عنوانا لمسألة لم تعنون فى قوت القلوب ، وقد يضع صاحب القوت مسألة تحت عنوان ، فيأتى الغزالى

ويدمجها فى كلامه ، فيخيل الى القارئ انها له ، ولولا خشية الاطالة لضربنا لذلك الامثال

وقد كان قوت القلوب واحياء علوم الدين موضع رعاية الصوفية على السواء فيما سلف من الأيام . وينقلون عن أبى الحسن الشاذلى انه قال : كتاب الاحياء يورثك العلم ، وكتاب القوت يورثك النور . ولهذا القول وجه من الصواب ، فانك تجد الإسهاب والتفصيل فى الاحياء ، وتجد الدقة وروعة الإخلاص فى القوت ، ويمتاز كتاب القوت فيما نرى بحرص مؤلفه واحتياطه فيما يتعلق بمذاهب الصوفية ، وبجمال لغته ، بخلاف الاحياء ، فانه يغرب فى التصوف ، وحظ أسلوبه من الدقة قليل

الرسالة القشيرية

هى رسالة فى التصوف لابى القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى المتوفى فى ١٦ ربيع الآخر سنة ٤٦٥ هـ . وهى تقع فى ١٨٦ صفحة . ولها شرح مخطوط بدار الكتب المصرية تأليف شيخ الاسلام زكريا الانصارى ويسمى هذا الشرح (إحكام الدلالة فى شرح الرسالة)

وقد كتب القشيرى رسالته هذه (إلى جماعة الصوفية

بلدان الاسلام فى سنة سبع وثلاثين وأربعمائة) كما قال فى المقدمة فهى اذن منشور عام لإصلاح المتصوفة فى ذاك الحين ، وقد ابتدأها بصرخة تشبه التى نقلناها للغزالى من منهاج العابدين ، فهو يقول (اعلموا رحمكم الله أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ، ولم يبق فى زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم ، كما قيل :

أما الخيام فانها كخيامهم * وأرى نساء الحى غير نسائها

حصلت الفترة فى هذه الطريقة ، بل اندرست بالحقيقة الخ)

وقد شرح القشيرى فى بداية هـذه الرسالة اعتقاد طائفة الصوفية فى مسائل الاصول فى التوحيد ، ثم ذكر تراجم اثنين وثمانين من مشايخ الصوفية بإيجاز ، ثم فسر الألفاظ التى تدور بين هـذه الطائفة ، وبيّن مايشكل فيها على المريدين ، كالوقت والمقام ، والحال ، والقبض ، والبسط ، والتواجد ، والوجد ، والوجود ، إلى آخر ما قال

ثم وضع عدة أبواب فى المجاهـدة ، والخلوة ، والعزلة ، والمراقبة ، والصبر ، والشكر ، والخوف ، والرجاء ، وما إلى ذلك مما يهم السالكين

وتمتاز هذه الرسالة بكثرة النقل عن المتقدمين من شيوخ

الطريق. وقد صدق الزبيدى فيما رآه من أن الغزالى اعتمد عليها عند تأليف الإحياء ، وإن كانت النسبة بين الكتابين بعيدة من جهة المادة ، ومن السهل أن يثبت الانسان أثر هذه الرسالة فى أكثر أبواب الإحياء ، وما أدرى لِمَ لَمْ يُشد الغزالى بذكر مؤلفها ومؤلف قوت القلوب ، مع أن فضلهما عليه كبير !

الفصل الثالث

من عرف الغزالى من الصوفية

ويجمل بنا أن نذكر طائفة من الصوفية الذين عرفهم الغزالى ونريد بذلك من قرأ لهم ،واستشهد بكلامهم فى مؤلفاته ، لأن تأثيرهم غير قليل فى تكييف أحكامه الأخلاقية ، وطبعها بذلك الطابع الصوفى المعروف

الامام الشافعى

ولد رضى الله عنه بغزة ، ومات بمصر سنة ٢٠٤ بعد أن أقام بها أربع سنين . وكان سنه حين مات ٥٤ سنة . وليس غرضنا أن نتكلم عنه من الوجهة التشريعية ، فان لذلك مجالاً غير هذا المجال ، غير أنه لا يفوتنا بهذه المناسبة أن نقرر أن كتاب الأم الذى

ينسب إليه ليس له ، وانما هو من تأليف البويطى كما نص الغزالى فى الإحياء

والذى يهمنا الآن : هو أن نصور الشافعى كما تصوره الغزالى ، أى من الوجهة الصوفية ، فقد كان رضى الله عنه معروفا بالتقوى ، ونسيان الذات ، حتى لبقول : وددت لو أن الخلق تعلموا هذا العلم على أن لاينسب إلىّ منه حرف

نماذج من كلامه

وإلى القارئ نماذج من كلماته التى جرت مجرى الأمثال .

قال رضى الله عنه : « أظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لايكرمه ورغب فى مودة من لاينفعه ، وقبل مدح من لايعرفه — المراء فى العلم ، يقسى القلب ، ويورث الضغائن — من لم تعزّه التقوى فلاعز له — سياسة الناس أشد من سياسة الدواب — لو علمت أن الماء البارد ينقص مروءتى ماشربته — ليس بأخيك من احتجت إلى مداراته — من علامة الصادق فى أخوّة أخيه أن يقبل علله ، ويسد خلله ، ويغفر زلله — لاتشاور من ليس فى بيته دقيق — لاتقصر فى حق أخيك اعتماداً على مروءته ، ولا تبذل وجهك إلى من يهون عليه ردك — من نمّ لك نمّ عليك — من نظف ثوبه قل همه ، ومن طاب ريحه زاد عقله »

المزنى

هو الامام أبو ابراهيم اسماعيل بن يحيى المزنى . ولد سنة ١٧٥ وتوفى سنة ٢٦٤ تلقى العلم عن الشافعى وصار من ناشرى مذهبه . وكان الشافعى يقول فيه : لو ناظر الشيطان لغلبه !! ونقل السبكى عن عمرو بن عثمان المكى : ما رأيت أحداً من المتعبدين فى كثرة من لقيت منهم أشد اجتهاداً من المزنى ، ولا أدوم على العبادة منه ، وما رأيت أحداً أشد تعظيما للعلم وأهله منه ، وكان من أشد الناس تضييقاً على نفسه فى الورع ، وأوسعهم فى ذلك على الناس

حرملة

هو حرملة بن يحيى بن عبد الله بن حرملة ولد سنة ١٦٦ ، وتوفى سنة ٢٤٣ ، وهو من تلامذة الشافعى ورواة حِكَمه . قال السبكى : وقد ينفرد حرملة فى بعض المسائل ويخرج عن المذهب تأصيلا وتفريعاً ، كما قد يفعل ذلك المزنى وغيره فى بعض الأحايين .

المحاسبى

هو أبو عبد الله الحرث بن أسد المحاسبى المتوفى ببغداد سنة ٢٤٣ ، وهو شيخ الجنيد ، ويقال انه سمى المحاسبى لكثرة محاسبته

لنفسه ، وقد ألف فى الفقه والتصوف والحديث والكلام نحو مائتى كتاب . وكان الجنيد يقول : كنت كثيراً ما أقول للحرث (عُزلتى أُنسى) فيقول : كم تقول أنسى وعزلتى ؟ لو أن نصف الخلق تقربوا منى ما وجدت بهم أُنساً ، ولو أن نصف الخلق الآخر نأوا عنى ما استوحشت لبعدهم . وأنشد منشد بين يدى الحرث هذه الأبيات :

أنا فى الغربة أبكى * ما بكت عين غريبِ
لم أكن يوم خروجى * من بلادى بمصيبِ
عجباً لى ولتركى * وطناً فيه حبيبى

فقام وتواجد وبكى حتى رحمه كل من حضره

ومن كلامه : « خيار هذه الامة هم الذين لا تشغلهم آخرتهم عن دنياهم ، ولا دنياهم عن آخرتهم — حسن الخلق احتمال الأذى وقلة الغضب ، وبسط الرحمة ، وطيب الكلام — الظالم نادم وان مدحه الناس ، والمظلوم سالم وان ذمه الناس — القانع غنى وان جاع والحريص فقير وان ملك »

الجنيد

هو فى نظر الصوفية سيد علماء الآخرة على الاطلاق ، توفى سنة ٢٩٨ ، وكانت له أحوال لا يقرها شرع ولا عقل

ومن كلامه : « ان الله يُخلّص الى القلوب مِن برِّه ، على حسب ماتخلص اليه القلوب من ذكره . فانظر ماذاخالط قلبك — الغفلة عن الله تعالى أشد من دخول النار — اذا رأيت الفقير فلا تبدأه بالعلم ، وابدأه بالرفق ، فان العلم يوحشه ، والرفق يؤنسه »

***

وفى كتب الغزالى عددعظيم من الصوفية ، يؤيد بكلامهم رأيه ، وكان لأولئك الصوفية مصنفات معروفة ، وكلمات مأثورة يتداولها الناس لعهده ، وإنه لا شك فى انتفاعه بتلك الآثار . والرغبة فى الايجاز هى التى أرضتنا عن الاكتفاء بترجمة هذا العدد القليل

الفصل الرابع

منبع الشريعة

وأهم المنابع التى استقى منها الغزالى هو منبع الشريعة ، ممثلةً فى الآيات والأحاديث والأخبار . ويرى غير واحد من علماء هذا العصر أن الأخلاق عندالغزالى هى عين الأخلاق الاسلامية ، وهذا رأى غير صواب ، ولكنهم حُمِلوا عليه بما يرون من إكثاره

فى مؤلفاته من الآيات والأحاديث ، وسترى كيف أخطأوا حين تقرأ ما فصّلنا من آرائه فى الأخلاق

ويشمل هذا المنبع فقهاء المسلمين الذين تأثر الغزالى بآرائهم فى المعاملات . مع أنه احتاط فى النقل عنهم ، ولكن هذه الحيطة لاتزيد عن مطالبتهم بمسايرة أصول الشرع الحنيف

الإنجيل

إطلع الغزالى على الإنجيل ، واستفاد منه ، واعتمد عليه ماشاء فى مؤلفاته . وهذا طبيعى من رجل مسلم أوصاه دينه أن لايفرّق بين أحد من الأنبياء

ولاعبرة بما كتبه الدكتور زويمر فى هذا الموضوع . لأن الدكتور زويمر يريد أن ينسب هداية الغزالى الى مطالعته للإنجيل ، مع أن الغزالى لم يضلّ الاحين تعلق بأهداب الآداب السلبية التى دعا اليها الإنجيل ! !

ولتوضيح هذا نذكر أن الآداب التى وضعها الانجيل غير طبيعية ، على معنى أنه لايمكن أن يسكن اليها بطبيعته أحد من الناس . فالحكمة الإنجيلية التى تقول : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ، حكمة غير معقولة ، لايقرها عرف . ولايدعو اليها قانون — والحكمة المسيحية التى تقول :

من سخّرك ميلاً فامش معه ميلين ، حكمة غير ممكنة القبول . ومن المستحيل أن تجد مسيحياً يدير لك خده الأيمن حين تضربه على خده الأيسر ، أما المسيحي الذي يتبعك ميلين حين تُسخره ميلاً فهو نادر الوجود ! !

ومن المستطرف ما لاحظه الدكتور زويمر على مارواه الغزالي عن المسيح من أنه مكث يناجي ربه ستين صباحا لم يأكل . فقد قال : الحقيقة أنها أربعون ، ولِمَ تتعب نفسك ياسيدى الدكتور في هذا التصحيح ؟ المسألة برمتها خيال في خيال ، لأن الذى يمكث ستين يوما أو أربعين يوماً بلا طعام لا يصلح لشيء في هذا الوجود الزاخر بالجهد والجِلاد . وهل يستطيع القسيسون والرهبان أن يحيوا هذه الحياة ؛ وهبهم استطاعوا ، فما عسى أن تكون منزلتهم بين الأحياء ؟

وأى خطأ أفدح من قول الغزالي في الدرة الفاخرة « اعتبروا بعيسى عليه السلام ، فقد قيل انه لم يملك الا ثوبا واحداً لبسه عشرين سنة ، ولم يأخذ معه في كل سياحاته إلا كوزاً وسبحة ومشطاً . ورأى ذات يوم رجلا يشرب من نهر بحفنتيه فطرح الكوز ولم يستعمله ثانيا ، ثم رأى رجلا يمشط لحيته بأصابعه ، فطرح المشط ولم يستعمله ثانياً ، وكان يقول دائما : حصانى قدماى ،

وبيوتى مغائر الأرض ، وطعامى خضرتها ، وشرابى من ماء أنهارها ، ومقرى بين بنى آدم »

وهذه من الغزالى دعوة مردودة ، لأن الاسلام لا يعرف هذا النوع من الحياة ، وكيف يدعو المسلمين الى أن يعتبروا بما روى من أن عيسى لم يملك الا ثوبا واحداً لبسه عشرين سنة ، مع أنه من المستحيل أن يبقى الثوب الواحد على جسم المرء عشرين سنة ، الا أن تكون هذه أيضاً معجزة ، وعفا الله عمن لا يفهم هذه المعجزات !!

ان عيسى الذى يصورونه بهذه الصورة شخص خرافى لم يعرفه التاريخ . والا فأى أرض يسمح جوها بأن يظل الثوب على صاحبه عشرين عاما لا يبلى ، ولا يُعرِّض لابسه لنفرة تلامذته وأصدقائه ؛ وكيف يقابل هذا بما روى الغزالى عن المسيح من أنه قال : اذا كان صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ، وليمسح شفتيه ، لئلا يُرى الناسَ أنه صائم ؛ فان فى هذا الحديث دعوة الى كتمان الصوم ، والظهور بمظهر الترف ، تجنباً للتمدح بمظهر الصيام

أليس من العجيب أن يصدق الغزالى أن عيسى يقول : من أخذ رداءك فأعطه إزارك ، ومن ذا الذى يرضى من المسلمين

أو النصارى أن يتأدب بهذا الأدب الغريب؟ !

ويستشهد الغزالى بقول عيسى عليه السلام : لا يستقيم حب الدنيا والآخرة فى قلب مؤمن ، كما لا يستقيم الماء والنار فى إناء واحد مع أن هذا مناقض للآية الكريمة : ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار — ويستشهد بقول عيسى : انظروا الى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر ، والله تعالى يرزقها يوما بيوم ، فان قلتم نحن أكبر بطونا فانظروا الى الأنعام كيف قيض الله تعالى لها هذا الخلق للرزق . وهذا يناقض الآية الكريمة : ولا تنس نصيبك من الدنيا . ومن الواضح أن الذى لا ينسى نصيبه من دنياه ، يسعى له ، ويجدّ فى طلبه

ونحن بهذه الكلمات لا ننكر نبوة عيسى عليه السلام . وانما نرجّح أن أتباعه جنوا على شريعته ، بما زوّروا باسمه من الأحاديث ، وهذه جناية كثيرة الامثال فى الشرائع ، فان الاسلام مع تواتر سنده الاول وهو القرآن ، لم يعدم من أصحاب الغفلة وأصحاب الغرض من زوّروا الاحاديث باسم النبى حتى كادوا يقضون على ما للدين من قوة الحق ، وروعة الجمال

ونحن كذلك لا ننكر أن المسيحية تدعو الى الزهد . فان الدعوة الى الزهد أصل من أصولها الاولى . ولكنا نرجح انها

كانت تدعو الى الزهد بقدر ما تفُل من حِدّة الناس . وتقلل من جشعهم وطمعهم . فأما الدعوة الى الفرار من طيبات ما أحل الله فهى دعوة بعيدة الوقوع من الانبياء والمرسلين

وكنا نحب أن لا يصدق الغزالى كل ما نقل عن المسيح ، ولكن الغزالي كان طيب القلب أكثر مما يجب ، وما أحوج العلماء الى الاعتصام بحبل الشك ، فان الشك وحده سبيل اليقين

الفصل الخامس

أساتذة الغزالى وأصحابه

وبعد الذى قدمناه من ورود الغزالى للمناهل الفلسفية ، والشرعية ، والصوفية : لانجد بدًّا من التنبيه الى انه اغترف كذلك من المنهل الذى ورده أساتذته وأصحابه . وقد لاحظنا أن الذين تتلمذ الغزالى لهم كانوا فى الأغلب صوفية ، كما أن أكثر من صحبهم كانوا صوفية

فمن أساتذته الأمام احمد بن محمد الراذكانى ، وكان من الفقهاء الصالحين ، وقد تلقى عنه دروسه الاولى فى طوس

ومن أساتذته الامام أبو نصر الاسماعيلى ، وكان من الأمثلة النادرة فى الورع والتقوى ، وقد تلقى عنه الغزالى فى جرجان ،

وعلّق عنه التعليقة ، كما كانوا يقولون

ومن أساتذته إمام الحرمين ، وكان من أتقى أهل زمانه ، وقد تلقى عنه الغزالى فى نيسابور . ويقال انه كان يحسد الغزالى ، بالرغم من شهادته له بالتفوق والنبوغ

ومن أساتذته الامام الزاهد أبو على الفارمذى من أعيان تلامذة أبى القاسم القشيرى وكان أستاذه فى التصوف ، وقد عده السبكى من أصحابه

هؤلاء وغيرهم من أساتذة الغزالى وأصحابه أثّروا فى حياته العقلية تأثيراً غير قليل ، وطبعوا نظره إلى الحياة بطابع خاص ، وفى مقدور القارئ أن يرجع إلى تفصيل حياة هؤلاء الذين اختصرنا أخبارهم فى طبقات الشافعية . أما تلامذة الغزالى فسنعود إليهم فى غير هذا الباب

الباب الرابع

في

مؤلفات الغزالي

تمهيد

تكلم ابن السبكي فى طبقاته عن مؤلفات الغزالى ، وتبعه الزبيدى فى شرح الاحياء ، ثم كتب جرجى زيدان فى صدر الجزء السادس من السنة الخامسة عشرة للهلال كلمة مفصلة عن مصنفات الغزالى ، وتمتاز هذه الكلمة بشيئين : الأول ترتيب تلك الكتب بحسب موضوعاتها ، والثانى الاشارة إلى أماكن وجود النسخ النادرة ، مخطوطة كانت أو مطبوعة . إلا أنه لحسن حظ العلم نجد أكثر مانوّه جرجى زيدان بندرته أصبح اليوم فى المكاتب والأسواق

وأهم كتب الغزالى فيما نحن بصدده من درس الأخلاق ، كتاب الاحياء ، وسنكتب عنه كلمة مفصلة ، وكتاب ميزان العمل ، وهو يقع فى ٢١٥ صفحة ، ونحسبه يفضل فى دقته

كتاب الإحياء ، بل يشبه أن يكون خلاصة له ، وميزان العمل هذا مقابل لكتابه معيار العلم . وقد قال فى مقدمته (لما كانت السعادة التى هى مطلوب الأولين والآخرين لا تنال إلا بالعلم والعمل ، وافتقر كل واحد منهما إلى الاحاطة بحقيقته ومقداره ، ووجب معرفة العلم والتمييز بينه وبين غيره بمعيار ، وفرغنا منه ، وجب معرفة العمل المسعد ، والتمييز بينه وبين العمل المشقى ، فافتقر ذلك أيضا إلى ميزان ، فأردنا أن نخوض فيه الخ) وقد نص على أنه وضع أكثر هذا الكتاب على طريقة التصوف

ويلى هذين الكتابين فى الأهمية كتاب الاربعين . وهو جزء من كتاب جواهر القرآن ، كما ذكر صاحب كشف الظنون ، وقد وضع بعد الإحياء ، وهو قريب منه فى الموضوعات وفى التبويب

ومن مؤلفاته الهامة فى الأخلاق كتاب منهاج العابدين وهو آخر مصنفاته ، ولعل هذا هو السر فيما احتواه هذا الكتاب من مظاهر الضعف والاضطراب ، وقد رأيت كيف اعتلت صحته بسبب العزلة ، ونقل الزبيدى عن المسامرة لابن عربى أنه ليس له ، وانما هو لأبى الحسن على بن خليل السبتى ، وسترى بعد قليل ما زُوِّر باسم الغزالى من التآليف

وهناك التبر المسبوك فى نصيحة الملوك ، كتبه للسلطان محمد بن ملكشاه ، وعن هذا الكتاب أخذنا رأى الغزالى فى آداب الكتاب ، وواجبات الملوك ، وحقوق الوزراء . وسترى بعدُ كلمة فى نسبة هذا الكتاب إلى الغزالى ، وهو يقع فى ١٢٤ صفحة وتجده مشحونا بالأقاصيص ، وهى فكرة حسنة فى الترغيب والترهيب ، ولم يختص بها كتابه هذا ، ولكنها فيه أظهر من سواه

ولا تنس كتابه المنقذ من الضلال ، ففيه صورة صادقة لحياته العقلية ، وهو يمثل وجهة نظره فيما شهده من الحركة العلمية فى عصره ذاك ، وقد كتبه بسذاجة ظاهرة تكشّفت لنا عن قلب أبيض ، ونفس تجيش بالاخلاص

وكتابه المستصفى فى الأصول كان المرجع فيما كتبنا عن الحسن والقبيح ، وهو كتاب قيم يدل على مبلغه من دقة الفهم ، وحسن الأداء

ورسالته مشكاة الأنوار تمثل لنا رأيه فى منازل الناس بحسب قربهم أو بعدهم من فهم ما بنى عليه العالم من دقائق الجمال ، وقد توسع فى شرح قوله تعالى : الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح إلى آخر الآية

ويعد الغزالى من أكبر المؤلفين حتى زعموا أن مؤلفاته قسمت على أيام حياته فخص كل يوم أربعة كراريس (!) وأهمها جميعاً كما قدمنا هو كتاب الإحياء وهو سبب مارزق من الخلود

الفصل الأول

طريقته فى التأليف

وللغزالى فى التأليف منهج جميل ، فهو يشرح أولاً المذهب الذى يريد نقده ، وقد بلغ من حرصه على هذا المنهج أن ألف كتاباً فى مقاصد الفلاسفة ، حين همّ بتأليف كتاب فى تهافتهم ، ويقول فى كتابه ذاك (ولنفهم الآن مانورده على سبيل الحكاية مهملا مرسلا ، من غير بحث عن الصحيح والفاسد ، حتى إذا فرغنا منه استأنفنا له جداً وتشميراً فى كتاب مفرد نسميه تهافت الفلاسفة)

وصنع مثل هذا الصنيع حين رد على الباطنية ، وقد ذكر فى المنقذ من الضلال ص ٢٠، ٢١ أن بعض أهل الحق أنكر عليه مبالغته فى تقرير حججهم ، وقالوا : هذا سعى لهم ، فإنهم كانوا

يعجزون عن نصرة مذهبهم بمثل هذه الشبهات ، لولا تحقيقه لها ، وترتيبه إياها ، وأجاب بأنه استحسن أن يقرر شبههم إلى حد الامكان ثم يظهر فسادها ، وهذا منهج لانسرف إن كررنا أنه جميل

ومما تمتاز به خطة الغزالى فى التأليف ، الاعتماد على الخطابيات فى إصلاح القلوب ، فهو حين يتكلم عن فضيلة من الفضائل ، يبدأ بذكر ماورد فى حمدها من الآيات ، ويعقب بسرد ما جاء عنها من الأحاديث ، ثم الأخبار ، ثم الآثار ، وينطلق بعد ذلك فى ذكر القصص والحكايات التى تستولى على قلب القارئ ، وترسم فى نفسه أثر تلك الفضيلة ، ومالها من مقام محمود . والأمر كذلك إذا تكلم عن رذيلة من الرذائل ، وهو فى هذا الباب لايعتبر مبتكراً ، فقد سبقه القُصّاص ، ولكنه آخر ّعفى على الأولين ؛ وقد رأيت من الادباء من يستنكر هذه الخطة ، وهو استنكار على غير أساس ؛ ويكفى أن تقرأ كتب سميلز الانجليزى المتوفى فى ١٦ ابريل سنة ١٩٠٤ لتعرف حسن هذا المنهج فى رأى المعاصرين ، فانى لم أر أحداً يستنكر منهج سميلز فى الاكثار من الأقاصيص للترغيب فى مكارم الأخلاق

وتمتاز كتب الغزالى الاخلاقية بأنها صالحة لكل قارئ ،

فلم يقصد المؤلف وضعها لطائفة معينة : أو فريق خاص ، وانما وضعها لجمهور المسلمين

وهناك ميزة خطيرة لمؤلفات الغزالى : وهى إقباله على الخيال فهو يحسّن ويقبّح بطريقة فنية بديعة ، تخاب العقول ، وتمتع القلوب . وانظر كيف يشبّه من يحسب المحسن انما يحسن باختياره إنه يشبهه بالنملة ترى سواد الخط على البياض يحصل من حركة القلم فتضيف ذلك إلى القلم : إذ حدقتها الصغيرة الضعيفة ، لا تمتد إلى الإصبع ، ومنها إلى اليد ، ومنها إلى القدرة المحركة لليد ، ومنها إلى الارادة التى القدرة مسخرة لها ، ومنها إلى المعرفة التى يتوقف انبعاث الارادة عليها ، ومنها إلى صاحب القدرة والعلم والارادة[1]

ويشبّه الضعيف القلب ، بالحمار فى معلفه ، والدجاج فى قفصه يرمق ماتعوّد من صاحبه ، لا يكاد ينفك عن ذلك ، وتقاعدت نفسه عن معالى الأمور ، وانقطعت همته ، فلا يكاد يقصد أمراً شريفاً[2]

والذى يعبُر بنظره كتاب الإحياء وكتاب الأربعين وكتاب المنهاج ، يرى البدائع الفنية ، وألوان البيان ، فى طرق الترغيب والترهيب . وهو يجيد فى التخييل حتى يغلب القارئ على أمره ،

(١) ٢٧٩ الاربعين (٢) ٧٦ منهاج

ويشككه فى نفسه ، ويحمله قهراً على أن يدرس نفسه من جديد ، وهذا وجه الخطر فى مؤلفات الغزالى ، إذ كانت فى الأغلب وساوس صوفية غُشيّت بألوان السحر والفتون ، فلا يسلم منها إلا العالمون والأقوياء .. وكلامك يا سيدي زكي يخلب العقول ويعبث بالدخيلة ويكاد يطمس معالم الحق ويصد الناس عن الغزالي.

الفصل الثانى

الصوت المردد فى مؤلفات الغزالى

ومع محاكاة الغزالى لمن تقدمه من المؤلفين ، فانا نراه يكرر كثيراً الأفكار ، والعبارات ، والأمثلة ، حتى لنظن بضاعته واحدة ، فى جميع مؤلفاته ، ويمكن الحكم بأن الإحياء ، والأربعين ، والميزان ، والمنهاج ، والتبر المسبوك ، والأدب فى الدين ، وبداية الهداية ، وجزءاً كبيراً من مؤلفاته فى الفقه والتوحيد ، أقول يمكن الحكم بأن جميع هذه المؤلفات يندر أن تكون بينها فروق جوهرية . ولو أننا وازنّا بين كتبه فى بابٍ كباب الاخلاص لوجدنا الأمثلة واحدة ، والعبارات واحدة ، وانما تختلف بالإطناب والايجاز

واذ كان الرجل مفتونا بآراء الصوفية . فانا نجد تأثره

يختلف اختلافا قليلا بحسب الظروف ، فهو فى المنهاج ، أقرب اليهم منه فى الاحياء ، فما يحترز منه هنا قد لا يحترز منه هناك

ونلاحظ أنه ليست هناك غاية موحدة يسعى لنصرتها الغزالى بمصنفاته العديدة : فهو تارة يلوذ بأكناف الشريعة ، فيمنع ماتمنع ، ويبيح ما تبيح . وتارة يساير الصوفية ، فينصرهم فيما يَسْمُون اليه من الانفراد بفهم أسرار الوجود ، وهو مع ذلك يصرح بأن علم المكاشفة لا يودع الكتب ، ولا يصح أن يلقى لغير الخواص !

وينتج مما سلف أن الغزالى ليس من المبتكرين المبدعين ، وانما يمتاز بصبره على قرع ذلك الناقوس الذى أراد أن يوقظ به الناس من سباتهم ، وان لم يكن ذلك الناقوس من صنع يديه ، وقد أفاق الناس ولم يروا غير الغزالى ، ثم هرعوا اليه ، فوجدوا كتاب الاحياء فى يمناه ، وما زالوا به يحلمون !

الفصل الثالث

كتاب الاحياء

هو أهم ما كتب الغزالى فى الأخلاق ، ألفه فى أخريات حياته حين جنح الى اعتزال الناس ، ثم قرأه فى دمشق وبغداد ، ووضع له مختصرات عديدة ، منها الوجيز ، ومنها المبسوط ،

وقد أسسه على أربعة أرباع : ربع العبادات ، ويشتمل على كتاب العلم، وكتاب قواعد العقائد، وكتاب أسرار الطهارة، وكتاب أسرار الصلاة ، وكتاب أسرار الزكاة ، وكتاب أسرار الصيام، وكتاب أسرار الحج ، وكتاب آداب تلاوة القرآن، وكتاب الاذكار والدعوات ، وكتاب ترتيب الاوراد فى الاوقات

وربع العادات ، ويشتمل على كتاب الاكل ، وكتاب آداب النكاح ، وكتاب أحكام الكسب ، وكتاب الحلال والحرام ، وكتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق ، وكتاب العزلة ، وكتاب آداب السفر ، وكتاب السماع والوجد ، وكتاب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة

وربع المهلكات : ويشتمل على كتاب شرح عجائب القلب ، وكتاب رياضة النفس ، وكتاب آفات الشهوتين شهوة البطن وشهوة الفرج ، وكتاب آفات اللسان ، وكتاب آفات الغضب والحقد والحسد وكتاب ذم الدنيا ، وكتاب ذم المال والبخل ، وكتاب ذم الجاه والرياء وكتاب ذم الكبر والعجب ، وكتاب ذم الغرور

وربع المنجيات : ويشتمل على كتاب التوبة ، وكتاب الصبر والشكر ، وكتاب الخوف والرجاء ، وكتاب الفقر والزهد ، وكتاب التوحيد والتوكل ، وكتاب المحبة والشوق والانس والرضى ، وكتاب النية والصدق والاخلاص ، وكتاب المراقبة والمحاسبة ، وكتاب التفكر ، وكتاب ذكر الموت

ونظرة الى هذا البرنامج تريك مبلغ عناية الغزالى بكتاب الاحياء ، وليس كثيراً أن ذكرنا هذا البرنامج ، فان الاحياء

عمدتنا فيما قصدنا اليه من تحرير ما وضع الغزالى فى الاخلاق ، ومن الخير أن نذكر رأى الغزالى نفسه فى ذلك الكتاب الممتع الجامع . فقد قال بعد ان بين ما اختطه فى شرح العبادات ، والعادات ، والمهلكات ، والمنجيات « ولقد صنف الناس فى بعض هذه المعانى كتباً . ولكن يتميز هذا الكتاب عنها بخمسة أمور :

الاول — حل ماعقدوه ، وكشف ما أجملوه

الثانى — ترتيب مابددوه ، ونظم مافرقوه

الثالث — ايجاز ماطولوه ، وضبط ماقرروه

الرابع — حذف ما كرروه ، واثبات ماحرروه

الخامس — تحقيق امور غامضة اعتاصت على الأفهام لم يتعرض لها فى الكتب أصلا ، اذ الكل وان تواردوا على منهج واحد فلا مستنكر أن ينفرد كل واحد من السالكين بالتنبيه لأمر يخصه ويغفل عنه رفقاؤه »

الفصل الرابع

أغلاط الاحياء

نذكرهنا شيئاً من المآخذ التى أخذها المتقدمون على الغزالى فيما يخص كتاب الاحياء . لان فى ذلك بياناً لقيمة هذا الكتاب

فى نظر المتقدمين ، ولأن فيه تمهيداً لما نحن بسبيله من نقد آراء الغزالى فى الاخلاق

١ — نقل السبكى فى طبقات الشافعية أن أبا عبدالله المازرى قال : وقد سئل عن الاحياء ، إن الغزالى يستحسن أشياء مبناها على مالا حقيقة له ، مثل قوله فى قص الأظفار : تبدأ بالسبابة لأن لها الفضل على بقية الأصابع لكونها المسبحة :

٢ — وأنكروا عليه كما نقل الزبيدى ، قوله فى الاحياء ، ليس فى الامكان أبدع مما كان ، واستندوا فى إنكارهم إلى أن هذا يُوهم عجز الجناب الالهى ، وهو كفر صريح ، وانما انحصر انكارهم فى هذه الوجهة لاغراقهم فى المباحث الدينية ، ولو كان لهم نصيب من العلم والفن لعدوا هذا عقبة فى سبيل الاختراع

٣ — ونقل الزبيدى عن الأجوبة المرضية للشعرانى أن مما أنكر على الغزالى قوله : يباح للصوفية تمزيق ثيابهم عند غلبة الحال ، ان قطعت قطعاً مربعة تصلح لترقيع الثياب والسجادات ، كما يجوز تمزيق الثوب ليرقع به ثوب آخر : وقد أجاب الزبيدى : على هذا بجواب مضحك جاء فيه (وبالجملة فلو كان جميع أموال الدنيا وأمتعتها بيد الفقير ورأى حضور قلبه مع الله تعالى لحظة باتلافها كلها ، بحرقها أو رميها فى بحر ، لكان له ذلك بطريق

الاجتهاد ، ولا لوم إلا على من يمزق ثيابه ويتلف ماله إسرافا وسفهاً) وقد فات الزبيدى أن غرض المنكر ليس منصباً على التبديد والاسراف ، وانما هو موجه الى الخروج من الوقار ، فإنه لا مرية فى أن غرض الشرع من التجمل انما يرجع الى الرغبة فى أن يسبغ على المؤمن رداء الجلال

٤ — ومما أنكروا عليه قوله فى الاحياء : المقصود بالرياضة تفريغ القلب ، وليس ذلك الا بالخلوة ، والجلوس فى مكان مظلم ، فان لم يكن مظلماً لفّ رأسه فى جيبه ، أو تدثر بكساء أو رداء فانه فى مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق تعالى ويشاهد جلال الربوبية (!؟)

وقد تنبه ناقدوه الى أن التقليل من الطعام قد يورث الجنون! فمن يدرينا أن مايسمعه المتريض هو نداء الحق ، أو أن الذى يشاهده هو جلال الربوبية ، ومن يضمن أن لا يكون مايجده هو من الوساوس والخيالات الفاسدة !

٥ — وأنكروا عليه كذلك تقريره قول الجنيد : اذا كان الأولاد عقوبة شهوة الحلال ، فما ظنكم بعقوبة شهوة الحرام (!)

٦ — وأنكروا عليه كذلك تقريره ما حكاه عن بعضهم أنه بات عند السباع فى برية ليمتحن توكله على الله هل صح أم لا (!؟)

قالوا وكيف جاز له أن يسكت على ما فعله هذا الرجل مع تعرضه لأسباب الهلاك؟

٧ — ومما أنكروا عليه قوله : كان بعض الشيوخ فى بدايته يكسل عن قيام الليل ، فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل لتصير نفسه بحيث تجيبه الى قيام الليل اختياراً ، وكذلك عالج بعضهم حب المال : فباع جميع أمتعته ورمى ثمنها فى البحر خوفا من أن يقع فى حب تزكية الناس له ، ووصفه بالجود ، أو الرياء فى فعلها ، ولذلك كان بعضهم يستأجر من يشتمه على رءوس الاشهاد ليعوّد نفسه الحلم ، وكان آخر يركب البحر فى الشتاء عند اضطراب الموج ليعود نفسه الشجاعة ، وكان بعضهم اذا خاف النوم يقف على رأس حائط عال حتى لا يأخذه النوم (:) قال ابن القيم : وإنى لأتعجب من أبى حامد هذا كيف يأمر بهذه الامور التى تخالف ظاهر الشريعة ، وكيف يحل لأحد أن يقوم على رأسه طول الليل ، وكيف يحل رمى المال فى البحر ، وكيف يحل سب المسلم بلا سبب ، وهل يجوز لمسلم أن يستأجر من يشتمه ، وهل يجوز لأحد أن يقوم على رأس جدار عال ويعرض نفسه للوقوع بالنوم فتنكسر رقبته فيموت ؟؟؟

٨ — ومما أنكروا عليه حكايته عن ابن الكريتى شيخ

الجنيد انه قال : نزلت فى محلة فعرفت فيها بالصلاح ، فشتّ قلبى ، ونفر منى ، فدخلت الحمام ، وسرقت ثيابا فاخرة ولبستها ، ثم لبست مرقعتى فوقها ، وخرجت فجعلت أمشى قليلا قليلا ، فلحقونى وأخذوا منى الثياب ، وصفعونى وسمونى لص الحمام ، فسكنت نفسى (!؟) قال الغزالى : فهكذا كانوا يروضون أنفسهم حتى يخلصهم الله تعالى من فتنة النظر الى الخلق ومراعاتهم لهم ، وأهل النظر الى النفس وأرباب الأحوال ربما عالجوا أنفسهم بما لا يفتى به الفقيه ، إذا رأوا صلاح قلوبهم فى ذلك ، ثم يتداركون ما فرط منهم من صورة التقصير كما فعل هذا فى الحمام (!!) قال ابن القيم سبحان من أخرج أبا حامد من دائرة الفقه بتصنيفه كتاب الاحياء ؛ فليته لم يحك فيه مثل هذه الأمور التى لا يحل لأحد السكوت عليها ؛ ثم نقل نص الامام احمد والشافعى فى أن من سرق من الحمام ثيابا عليها حافظ وجب قطع يده . ثم قال : وتعجُّبى من هذا الفقيه الذى استلب التصوف علمه وعقله ، أكثر من تعجبى من هذا المستلب الثياب من الحمام ؛ فياليت أبا حامد بقى مع قواعد الفقه واستغنى عن هذه الهذيانات ؛

٩ — وأنكروا عليه تقرير ماحكاه عن أبى الحسن الدينورى أنه حج اثنى عشرة حجة ، وهو حاف مكشوف الرأس ؛ قال ابن

القيم ، وهـذا من أعظم الجهل لما فى ذلك من الأذى للرأس والرجلين ، ولا تسلم الأرض من الشوك والوعر ، وكأن هؤلاء الصوفية ابتكروا من عند أنفسهم شريعـة سموها بالتصوف ، وتركوا شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، فنعوذ بالله من تلبيس إبليس . فان مثل هذه الحكايات تفسد عقائد العوام ، اذيظنون أن فعل مثل هذا من الصواب

١٠ — وأنكروا عليه تقريره عن أبى الخير الأقطع التيتانى قوله : إنى عقدت مع الله عهداً أن لا آكل شيئاً من الشهوات ، فمددت يدى الى ثمرة فى شجرة فقطعتها ، فبينما أنا أمضغها إذ ذكرت العهد فرميت بها من فمى ، فدار بى فرسان وقالوا قم ! وأخرجونى الى ساحل بحر اسكندرية ، واذا أمير وحوله خيل وجند ، فقالوا أنت من اللصوص ، واذا معهم جماعة من لصوص السودان ، فسألوهم عنى ، فقالوا لا نعرفه ، فكذّبهم الأمير ، وشرع يقدم يداً ويقطعها إلى أن وصل الىّ ، وقال لى : تقدّم ومد يدك ، فمددتها فقطعت الى آخرها ! : قالوا : فانظروا مايفعل الجهل العظيم بصاحبه ، فلو أن عند التيتانى رائحة علم ، لعلم أن ما فعله حرام عليه ، وليس لابليس عون على الزهّاد والعبّاد أكثر من الجهل ، وما أظن غالب ما يقع لهؤلاء إلا من الجنون

١١ — وأنكروا عليه قوله : ان الاشتغال بعلم الظاهر بطالة (!) قال ابن القيم : هذا جهل مفرط منه . وأصل ذم الصوفية للعلم أنهم رأوا طريق الاشتغال به لا يوصلهم الى الرياسة إلا بعد طول زمان ، بخلاف طريقتهم المبتدعة من لبسهم الزى ، وصلاتهم بالليل ، وصيامهم بالنهار ، وتقصير الثياب والأكمام

١٢ — وأنكروا عليه حكايته عن أبي تراب النخشبي أنه قال لمريد له : لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة ، كان أنفع لك من رؤية الله عز وجل سبعين مرة (!؟) قال ابن القيم . وهذا الكلام فوق الجنون بدرجات

١٣ — وأنكروا عليه تقريره لرمى الشبلي ما كان معه من الدنانير في دجلة ، وقوله : ما أعزّكِ عبد إلا أذله الله تعالى . قال ابن القيم : وأنا أتعجب من أبي حامد أكثر من تعجبي من هؤلاء الجهلة بالشريعة ، كيف يحكى ذلك عنهم على وجه المدح لهم ، لا على وجه الانكار ، وأى رائحة بقيت من الفقه عند أبي حامد حتى يكتب عنه شيء من العلم ؛ فان الفقهاء كلهم يقولون إن رمى المال فى البحر لا يجوز

١٤ — وأنكروا عليه تقريره قول أبى سليمان الدارانى : إذا طلب الرجل الحديث ، أو سافر فى طلب المعاش ، أو تزوّج ،

فقد ركن إلى الدنيا (؟!) قالوا : هذه الأشياء الثلاثة مخالفة لقواعد الشريعة . وكيف لا يطلب الحديث وقد ورد : ان الملائكة لتضع أجنحتها على طالب العلم ؟ وكيف لا يطلب المعاش . وقد قال عمر رضى الله عنه : لأن أموت من سعى رجلى أطلب كفاف وجهى أحب إلىّ من أن أموت غازياً فى سبيل الله ؟ وكيف لا يطلب التزويج ، وصاحب الشرع صلى الله عليه وسلم يقول : تناكحوا تناسلوا فإنى مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة ؟

١٥ — وأنكروا عليه تقريره قول أبى حمزة البغدادى : إنى لأستحى من الله أن أدخل البادية وأنا شبعان ، وقد اعتقدت التوكل ، لئلا يكون شبعى زاداً تزودت به (!) قالوا : ومن العجب اعتذاره عن أبى حمزة بقوله : كلام أبى حمزة صحيح ، ولكن يحتاج إلى شرطين : أحدهما أن تكون للانسان قدرة من نفسه بحيث يمكنه الصبر عن الطعام أسبوعا ونحوه . الثانى أن يمكنه التقوّت بالحشيش ، ولا تخلو البادية من أن يلقاه الذى معه طعام بعد أسبوع ، أو ينتهى إلى محلة أو حشيش يجدبه مايقوته . قال ابن القيم : أقبح مافى هذا القول صدوره من فقيه فإنه قد لا يلقى أحداً ، وقد يضل ، وقد يمرض فلا يصلح له الحشيش ، وقد يلقاه من لا يطعمه ، وقد يموت فلا يدفنه أحد

١٦ — وأنكروا عليه ما أجاب به من سأله عن رجل يدخل البادية بلا زاد حيث قال : هذا من فعل رجال الله — قيل له فان مات ؟ قال : الدية على العاقلة (!) قالوا : هذه فتوى جاهل بقواعد الشريعة ، اذ لا خلاف بين فقهاء الاسلام أنه لا يجوز لأحد دخول البادية بغير زاد ، وان فعل ذلك ومات بالجوع فهو عاص مستحق للعقوبة فى الآخرة

١٧ — وأنكروا عليه أيضاً ما حكاه عن شفيق البلخى أنه رأى مع شخص رغيفاً ليفطر عليه من صومه فهجره ، وقال : تمسك رغيفاً الى الليل !

١٨ — وكذلك أنكروا عليه قوله : اعلم أن ميل قلوب أهل التصوف انما هو الى تحصيل العلوم اللدنية ، دون العلوم النقلية ، ولذلك لم يحضوا على دراسة العلم ، ولا تحصيل ما صنفه المصنفون ، وانما حضوا على الاشتغال بالله تعالى وحده ، والاشتغال بذكر الله فقط (!؟)

١٩ — وأنكروا عليه تفسير قوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام : واجنُبنى وبَنىّ أن نعبد الأصنام . فقد قال : الأصنام الذهب والفضة . وعبادتهما حبهما والاغترار بهما . وواضح أن هذا التفسير بعيد عن المعنى المراد

٢٠ — وأنكروا عليه أيضاً تقريره قول سهل التُستَرى : إن للربوبية سراً لو ظهر لبطلت النبوة ، وان للنبوة سراً لو ظهر لبطل العلم ، وان للعلماء بالله سراً لو ظهر لبطلت الأحكام والشرائع (!؟)

وأنا أكتفى بهذا القدر من أغلاط الإحياء ، ففيه صورة واضحة لآراء العلماء فى ذلك الكتاب ، وسترى فى باب غير هذا أن هذه الحركة العنيفة لم تخمد بموت الغزالى ، بل ظلت ثائرة عدة أجيال . وما عجبت لشئ عجبي للزبيدى ، فقد تولى تفنيد هذه المآخذ ، واحداً واحداً ، وهو تعسف ممقوت ، يكفى أن تعلم أنه لا يرتكز على قاعدة مسلمة ، من عرف ، أو تشريع ، وانما يستند على قواعد من التصوف بنيت على الماء . ومن أراد التحقق من صحة هذا الحكم فليرجع الى الجزء الأول من شرح الاحياء ، من ص ٢٧ الى ص ٤٠

ومن الأجوبة السخيفة ما أجاب به السبكى عن الغزالى فى قص الأظفار ، فقد قال : وأما ماذكروه فى قص الأظفار ، فالأمر المشار اليه يروى عن على كرم الله وجهه غير انه لم يثبت وليس فى ذلك كبير أمر ولا مخالفة شرع ، وقد سمعت جماعة من الفقراء يذكرون أنهم جربوه فوجدوه لايخطىء ، ومن داوم عليه

أمن من وجع العين . ويروون من شعر على كرم الله وجهه هذا :

ابدأ بيمناك وبالخنصرِ * فى قص أظفارك واستبصرِ
واختم بسبابتها هكذا * وافعل فى الرجل ولا تمترِ
وابدأ ليسراك بإبهامها * والأصبع الوسطى وبالخنصرِ
ويتبع الخنصر سبابة * بنصرها خاتمة الأيسرِ
هذا أمان لك قد حزته * من رمد العين كما قد قرى

والسخف ظاهر كل الظهور فى هذا الجواب ، والا فما هى الصلة بين قص الأظافر بهذه الكيفية ، وبين الأمن من وجع العين ؛ وكيف قال على بن أبى طالب هذا الشعر السخيف وقد كان من أفصح الناس ؛

الواقع أن الغزالى كان فتنة من فِتن العصور القديمة ، وقد نسى العلماء فى الدفاع عنه أن هناك عقلا يجب أن يُحكَّم ، وأنه لن يخلو العالم من أصحاب العقول ، ولو كره الجامدون !

الفصل الخامس

غفلة الغزالى وعناده

١

أما غفلته فدليلها ما فى كتبه من الأحاديث الضعيفة والموضوعة . وهى تقرب من ستمائة حديث

وأنا لا أشك فى نزاهة الغزالى وبعده من الكذب على رسول الله ، فحال على مثله فى ورعه وتقواه أن يزوّر على النبى حديثاً ، أو يضع فى كتبه أحاديث يعلم أنها من الموضوعات . وحقيقة الأمر أن الرجل كان « يمتاز » بقسط كبير من الغفلة والبساطة ، وإلا فكيف صدّق ان النبى يقول : إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ . وأقل الناس علماً بالبلاغة يدرك أن رسول الله لاينطق بمثل هذا الحديث ؟ وكيف يصدق ماروى من أن جبريل نزل فقال : ان الله يقرئك السلام . ويقول : أتحب أن أجعل هذه الجبال من ذهب فتكون معك أينما كنت ؟ !

ومالى أطيل فى نقد ما جاء فى الاحياء مما لا اسناد له من الأحاديث ، وهى مسطورة فى طبقات الشافعية ، فى ثمان وثلاثين

صفحة من الجزء الرابع . والضعف فيها ظاهر لا يحتاج الى دليل

٢

وأما عناده فدليله إصراره على إبقاء ما جاء فى كتبه من الأغلاط ، ورميه ناقديه بالغباوة ، والحسد ، والكذب ، مع أنه كان يجمل به أن يتأمل نقدهم برفق ، ويميز بين الغث منه وبين الثمين ، ولكنه اندفع كالصخر حطه السيل من شاهق ، وأخذ يرميهم بالزيغ والفسوق

وبيان ذلك أنه ما زال يغرب معاصروه فى الانكار عليه حتى ضاق تلامذته ذرعا بذلك ، فكتب اليه أحدهم يرجوه دحض تلك المزاعم ، فصنف كتابا سماه : الاملاء ، فى اشكالات الاحياء . وما نريد الآن تلخيص هذا الكتاب ، فهو فى أيدى الناس ، وانما نذكر مقدمته لنرى كيف ابتأس بما فعل أولئك المنكرون ، فان فى هذا صورة لجانب من جوانبه الاخلاقية ، وهو يدلنا على الأقل على مبلغ ثقته بنفسه ، وايمانه بصحة ما جاء فى الاحياء ، وعدم اكتراثه بآراء الناس

قال : سألت يسرك الله لمراتب العلم تصعد مراقيها ، وقرب لك مقامات الولاية تحل مغانيها ، عن بعض ما وقع فى الاملاء الملقب بالاحياء مما أشكل على من حجب فهمه ، وقصر علمه . ولم يفز بشىء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه ، وأظهرت التحزن لما شوش به شركاء الطغام ،

وأمثال الأنعام ، وأجماع العوام ، وسفهاء الأحلام ، وعار أهل الاسلام ، حتى طعنوا عليه . ونهوا عن قراءته ، وأفتوا بمجرد الهوى على غير بصيره باطراحه ومنابذته ، ونسبوا ممليه الى ضلال واضلال ، ونبذوا قراءه ومنتحليه بزيغ فى الشريعة واختلال ، فالى الله انصرافهم ومآبهم ، وعليه فى العرض الأكبر ايقافهم وحسابهم ، فستكتب شهادتهم ويسألون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، بل كذبوا بمالم يحيطوا بعلمه ، وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا أفك قديم ، ولوردوه الى الرسول والى أولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم . ولكن الظالمون فى شقاق بعيد . ولا عجب فقد توى[1] أدلاء الطريق ، وذهب أرباب التحقيق ، فلم يبق فى الغالب الا أهل الزور والفسوق ، متشبثين بدعاوى كاذبة ، متصفين بحكايات موضوعة ، متزينين بصفات منمقة ، متظاهرين بظواهر من العلم فاسدة ، ومتقاطعين بحجج غير صادقة ، كل ذلك لطلب دنيا أو محبة ثناء ، أو مغالبة نظراء . قد ذهبت المواصلة بينهم بالبر . وتآلفوا جميعاً على الفعل المنكر . وعدمت النصائح منهم فى الأمر ، وتصافوا بأسرهم على الخديعة والمكر ، ان نصحهم العلماء أغروا بهم ، وان صمت عنهم العقلاء أزروا عليهم ، أولئك الجهال فى علمهم ، الفقراء فى طولهم البخلاء عن الله عز وجل بأنفسهم ، لا يفلحون ولا ينجح تابعهم ، ولذلك لا تظهر عليهم موارثة الصدق ولا تسطع حولهم أنوار الولاية ، ولا تتحقق لديهم أعلام المعرفة . ولا يستر عوراتهم لباس الخشية . لأنهم لم ينالوا أحوال النقباء ، ومراتب النجباء ، وخصوصية البدلاء ، وكرامات الأوتاد ، ولو عرفوا أنفسهم لظهر لهم الحق . وعلموا علم أهل الباطن ... الى آخر ما قال

(١) هلك

وبقليل من التأمل نعرف من هذه المقدمة أن الغزالى يُصرّ بعد أن نقده معاصروه على التشبث بأذيال الصوفية . ويمكننا أن نتوقع ماسيجيب به فى كل ما أخذ عليه من الوجهة الشرعية ، ويجب أن نفهم ذلك منذ الآن ، لنخرّج كل ما نلقاه فى آرائه الأخلاقية من الشذوذ هذا التخريج ، ولنرجع اسرافه فى بعض المواطن الى هذا الأصل الذى اختاره وارتضاه ، وهو التصوف وإلا فمن هم النقباء ، والنجباء ، والبدلاء ، والأوتاد ، إن لم يكونوا جماعة المتصوفة الذين يستبيحون مالا يباح ؟!

ومن أظرف ما أجاب به الغزالى فيما أخذ عليه من الأغلاط النحوية ، أنه قليل الخبرة بالنحو ، ثم ما أجمل نصحه لتلامذته بأن يصلحوا ما يعثرون عليه من أشباه هذه الأغلاط ! ويا ليته نصح بمثل هذا فى إصلاح ماضل فيه من الأحكام !

الكذب على الغزالى

ومما يجب التنبه له أن الغزالى لم يسلم من الكذب عليه فقد وضعت المؤلفات باسمه ، واتجر به المضللون . ويذكر الزبيدى من هذه الكتب (السر المكتوم فى أسرار النجوم) وينص على أن هذا الكتاب نسب أيضاً إلى الفخر الرازى ، وأنه سئل عنه فأنكره . ومما دس على الغزالى كتاب تحسين الظنون

وكتاب النفخ والتسوية . وكتاب المضنون به على غير أهله . قال السبكى : ذكر ابن الصلاح أنه منسوب اليه ، ثم قال : معاذ الله أن يكون له . وبيّن سبب كونه مختلقاً موضوعاً عليه . قال الزبيدى والامر كما قال . فقد اشتمل على التصريح بقدم العالم ، ونفى علم القديم بالجزئيات ، وكل واحد من هذه يكفر الغزالى قائلها هو وأهل السنة أجمعون ، فكيف يتصور أنه يقولها ؟

وقد ذكر الأستاذ الدكتور على العنانى فى محاضراته بالجامعة المصرية أنه يبعد أن يكون المضنون به على غير أهله هو ما بأيدى الناس ، لأن هذا الكُتيّب الضعيف لايدل على المعنى الذى قصده الغزالى من « المضنون به على غير أهله » ويرجح الدكتور العنانى أن يكون المضنون به على غير أهله كتاباً ضخماً يشمل آراء الغزالي الفلسفية التى يَضِنّ بنشرها على الجمهور

وعندى أن رأى الدكتور العنانى صواب لأمرين : الاول أن الغزالى كان ينصح دائما بأن لا يلقى للعامة غير الكلام البسيط فمن المعقول أن تكون له آراء خاصة تخالف مافى كتاب الاحياء ، وأمثال كتاب الاحياء . الثانى ماذكره الزبيدى من أن كتاب المضنون به على غير أهله يشتمل على التصريح بقدم العالم ونفى علم القديم بالجزئيات ، فان هذه المسائل لاتوجد فى النسخة التى يتداولها الناس

وقد رجح جرجى زيدان فى فهرس تاريخ الآداب العربية أن كتاب التبر المسبوك مدسوس على الغزالى ، وقد حاولت تحقيق ذلك ، فوجدت ما يقرب رأى جرجى زيدان وما يبعده . أما مايقرب به فهو إسقاط إسم من ترجمه من الفارسية . وظهور الكتاب بمظهر الضعف فى كثير من الموضوعات ، وأما ما يبعده فهو تقارب مادته من مؤلفات الغزالى الأخلاقية ، وإحالته على الإحياء فى كلامه عن رذيلة الغضب ، الا أن يكون من دسه عليه غشى فعلته تلك بهذه القرائن الصناعية ، التى توهم القارى أن لا وضع ولا اختلاق . ومما لامرية فيه أن مصنفات وضعت باسم الغزالى ، فأما عددها فلا يزال مظنة الارتياب

ولا يفوتنا فى ختام هذا الباب أن نذكر القارئ بما لاحظناه فيما سلف من اختلاف آراء الغزالى فى كتبه ، باختلاف سنه ، وصحته . فقد وضع مؤلفاته فى ظروف مختلفة ، كان فى بعضها يحكم العقل والشرع ، وكان فى بعضها يساير الصوفية فى أوهامهم ووساوسهم . والرجل فى الواقع معذور ، فقد كان يؤلف فى أوقات لا تصلح مطلقاً للتأليف ، لأنه يشترط فى المؤلف ما يشترط فى القاضى من الصحة وهدوء البال

الباب الخامس

في

مباحث في الأخلاق

نبين في هذا الباب قيمة العمل في ذاته ، شر هو أم خير ، حسن أم قبيح ، ضار أم نافع . ثم نتكلم عن الارادة ، وعن الضمير ، وعن الأغراض والنتائج ، والوسائل والغايات . وسبيلنا في هذا الباب أن نجمل الآراء الفلسفية إجمالاً لتبين بازائها آراء الغزالي نوعاً من البيان

الفصل الأول

الخير والشر

العمل الذي يجب أن يُعمل ، أو يحسن أن يُعمل ، هو الخير والعمل الذي يجب أن لا يُعمل ، أو ينبغي أن لا يعمل ، هو الشر . فللخير درجات ، وللشر درجات

هذه لغة اليوم . أما الغزالي فكان تارة يسمى ما يجب أن يعمل واجباً ، وما يحسن أن يعمل مستحباً ، وما يجب أن لا يعمل

حراما ، وما ينبغي أن لا يعمل مكروها ، وما عدا أولئك فهو مباح

وكان تارة أخرى يقسم الأفعال إلى : حرام ، وواجب ، ومباح . أما الحرام فهو المقول فيه : اتركوه ولا تفعلوه . وأما الواجب فهو المقول فيه : افعلوه ولا تتركوه . وأما المباح فهو المقول فيه : إن شئتم فافعلوه ، وإن شئتم فاتركوه

الحسن والقبح

وربما قسم العمل إلى : حسن ، وقبيح ، ومباح — وإليك إجمال مافصله فى كتابه المستصفى فى الأصول :

هناك اصطلاحات ثلاثة مختلفة فى إطلاق لفظا الحُسْن والقُبْح :

الأول — أن الأفعال تنقسم إلى ما يوافق غرض الفاعل ، وإلى ما يخالفه ، فالموافق يسمى حسناً ، والمخالف يسمى قبيحاً ، والثالث يسمى عبثاً

الثانى — الحسن ماحسّنه الشرع بالثناء على فاعله . ويقول الغزالى : ويكون المأمور به شرعاً ، ندباً كان أو ايجاباً ، حسناً ، والمباح لا يكون حسناً

الثالث — الحسَن ما لفاعله أن يفعله ، فيكون المباح حسناً مع المأمورات

والمقصود من هذه الاصطلاحات الثلاثة هو ماحسّنه الشرع أو قبّحه . وهنا يجزم الغزالى بأن العمل لايكون حسناً لذاته ، ولا قبيحاً لذاته ، فيخالف المعتزلة الذين يقولون بأن من الأعمال مايدرك حسنه بضرورة العقل ، كانقاذ الغرقى والهلكى ، ومعرفة حسن الصدق ، ومنها مايدرك قبحه بضرورة العقل : كالكفران وإيلام البرىء ، والكذب الذى لاغرض فيه

ويحتج المعتزلة لذلك : بأنا نعلم قطعاً أن من استوى عنده الصدق والكذب آثر الصدق ، ومال إليه ، إن كان عاقلا ، وليس ذلك إلا لحسنه . وأن القوى إذا رأى ضعيفاً مشرفاً على الهلاك يميل إلى انقاذه ، وان كان لايعتقد أصل الدين لينتظر ثواباً ، ولا يوافق ذلك غرضه : فقد يتعب به . بل يحكم العقلاء بحسن الصبر على السيف إذا أكره المرء على إفشاء السر أو نقض العهد

ويجيب الغزالى : بأنه لاينكر اشتهار هذه القضايا بين الخلق وكونها محمودة ، ولكنه يصر على أن مستندها : إما التدين بالشرائع ، وإما الأغراض

مثارات الغلط

ولكن الأغراض قد تدق ، فلا يتنبه لها إلا المحققون ، من أجل ذلك نبه على مثارات الغلط ، وهى ثلاثة :

الأول : ان الانسان يطلق اسم القبح على مايخالف غرضه ، وان كان يوافق غرض غـيره . فان كل طبع مشغوف بنفسه ، فيقضى بالقبح مطلقاً ، وربما يضيف القبح الى ذات الشئ ، فيكون قد قضى بأمور ثلاثه ، هو مصيب فى واحد منها ، وهو أصـل الاستقباح ، ومخطئ فى أمرين : أحدهما إضافة القبح إلى ذاته ، إذ غفل عن كونه قبيحاً لمخالفته غرضـه ، والثانى حكمه بالقبح مطلقاً ، ومنشؤه عدم الالتفات الى غـيره ، بل عدم الالتفات الى أحوال نفسه ، فانه قد يستحسن فى بعض الأحوال عـين ما يستقبحه اذا اختلف الغرض

الثانى : ما هو مخالف للغرض فى جميع الأحوال ، إلا فى حالة واحدة نادرة ، قد لا يلتفت إليها الوهم ، بل لا تخطر بالبـال ، فيراه مخالفاً فى جميع الأحوال ، فيقضى بالقبح مطلقاً ، لاستيلاء أحوال قبحه على قلبه ، وذهاب الحالة النادرة عن ذُكره

الثالث : سبق الوهم الى العكس ، فان مايرى مقرونابالشئ ، يظن أن الشئ أيضاً مقرون به مطلقاً لا محالة ، ومثاله نفرة من نهشته الحية من الحبل المبرقش اللون ، لأنه وجد الاذى مقروناً بهذه الصورة ، فتوهم أن هذه الصورة مقرونة بالاذى ، فان الوهم

عظيم الاستيلاء على النفس ، ولذلك ينفر طبع الانسان من المبيت فى بيت فيـه ميت ، مع قطعه بأن لا يتحرك ، ولكنه يتوهم فى كل ساعة حركته ونطقه

نقض حجج المعتزلة

وبعد أن بين الغزالي هذه المثارات أخذ يناقش ما احتج به المعتزلة ، وهو يرى أن الانقاذ انما يترجح على الاهمال فى حق من لا يعتقـد الشرائع ، لدفع الأذى الذى يلحق الانسان من رقة الجنسية ، وهو طبع يستحيل الانفكاك عنه ، وسببه أن الانسان يقدر نفسه فى تلك البلية ، ويقدر غيره معرضاً عنه وعن إنقاذه ، فيستقبحه منه بمخالفة غرضه ، ويعود فيقدر ذلك الاستقباح من المشرف على الهلاك فى حق نفسه ، فيدفع عن نفسه ذلك القبح المتوهّم ، فان فرض فى بهيمة أو فى شخص لا رقة فيه ، فهو بعيد تصوره . ويبقى أمر آخر : هو طلب الثناء على إحسانه . فان فرض حيث لا يعلم أنه المنقذ ، فقد يتوقع أن يعلم ، فيكون ذلك التوقع باعثاً . فان فرض فى موضع يستحيل أن يعلم ، فقد يبقى فى النفس ميل يضاهى نفرة طبع الملدوغ من الحبل المبرقش : وذلك أنه رأى هذه الصورة مقرونة بالثناء فظن أن الثناء مقرون

بها على كل حال ، والمقرون باللذيذ لذيذ ، كما أن المقرون بالمكروه مكروه

بل الانسان اذا جالس من عشقه فى مكان . فانه يحس من نفسه بتفرقة بين ذلك المكان وغيره ، اذا انتهى اليه . ولذلك قال الشاعر :

أمر على الديار ديار ليلى * أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وماحب الديار شغفن قلبى * ولكن حب من سكن الديارا

وقال ابن الرومى :

وحبّب أوطان الرجال اليهمُ * مآرب قضّاها الشباب هنالكا
اذا ذكروا أوطانهم ذكرتهمُ * عهود الصبا فيها فحنّوا لذلكا

وكذلك إخفاء السر ، وحفظ العهد . انما تواصى بهما الناس لما فيهما من المصالح . فمن يحتمل فى سبيلهما الضرر ، فانما يحتمله لأجل الثناء ، فان فرض حيث لاثناء ، فقد وجد مقرونا بالثناء . فيميل الوهم الى المقرون باللذيذ وان كان خاليا عنه

تحرير هذا البحث

هذه خلاصة ما يراه الغزالى فى تأييد أهل السنة ، وتخطئة المعتزلة . وتكون النتيجة على رأى أهل السنة أنه لاحسن ولا

قبح قبل ورود الشرع ، وأنه لاثواب ولاعقاب قبل ورود الشرع وهذا الرأى خطأ من وجهين :

الاول — مخالفته لجوهر الشريعة ، فان الشريعة انما جاءت لهداية الناس ، ولا معنى للهداية غير إرشادهم الى ما حسن أوقبح من الافعال ، ليفعلوا الحسن ، ويتجنبوا القبيح . ولو كانت الاعمال خالصة فى ذاتها من صفة الحسن والقبح ، لما كانت هناك حاجة الى الشرائع ، ولكان خيراً للناس أن لا يحملوا أعباء التكاليف

الثانى — استهانته بالشخصية الانسانية ، فانه اذا صح أن لا حكم للعقل قبل ورود الشرع ، فان معنى ذلك أن الشخصية الانسانية لاتصلح لفهم حقائق الاشياء ، وما أدرى كيف صلحت بعد ذلك لحمل أمانة الدين الحنيف ؟

والواقع أن الأشاعرة يجنون على العقل حين يحكمون بأن التحسين والتقبيح لايكون الابالشرع . فالزنا عندهم قبيح ، لالضرره كما يحكم بذلك العقل ، بل لأن الشرع حكم بقبحه ، وعلى ذلك لو حكم الشرع بحسن الزنا لكان حسناً ، ولوجد الأشاعرة من أوجه المغالطة ما يثبتون به حسن ، ولهذا الرأى نتيجة من أسوأ النتائج : وهى الركون الى ما وقع فى الشرائع من الاغلاط ، فقد

يندر أن تجد شريعة لم تمتد اليها يد التحريف ، فاذا شئت أن تتحاكم الى العقل لتنقى الشرائع من أوشاب المسخ والتشويه ، وقف فى وجهك الجهال باسم الدين ، وقالوا ما لنا وللعقل ؟ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ! !

الضار والنافع

لا يفرق الغزالى بين كلمة شر وكلمة ضار ، كما يفعل علماء الأخلاق ، فمن الواضح أنى قد أعمل عملا ضاراً ولكنه غير شر ، اذا حسنت النية ، وخفى وجه الصواب

لكن العمل الضار شر مطلقاً عند الغزالى ، لأن القاعدة عنده أن العمل ليس شراً إلا لأنه ضار ، وليس خيراً إلا لأنه نافع نعرف هذا من قوله فى ص ١٣٩ ج ٣ إحياء (إن الكذب ليس حراما لعينه ، بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره) ونعرفه كذلك من تقسيمه الحرام الى ماحرم لصفة فى عينه، وما حرم لخلل فى إثبات اليد عليه : فلا يحرم من المعادن الا ما يضر بالآكل ، ولا يحرم من النبات إلا ما يزيل العقل ، أو يضعف الصحة ، أو يزيل الحياة ، ولا يحرم السم اذا خرج عن كونه مضراً : لقلته ، أو لعجنه بغيره . وحرمة المال المغصوب ظاهرة ، لأن الغصب ايذاء للغير ، والايذاء ضرر

وانما كان الضار شراً على كل حال ، لأن الحاكم بالخير أو بالشر هو الشرع . وعلم الشرع فريضة على كل مسلم ، والجاهل لا عذر له ، الا اذا كان حديث عهد بالاسلام ، وهو عذر ضيق محدود ، لا يوجد الا فى بعض الأحوال

العمل والاعتقاد

ولكن إذا غُلِب المرء على أمره ، فاعتقد أن الشر خير ، ثم عمل بمقتضى اعتقاده ، فماذا عسى أن يكون فى رأى الغزالى ؟

يظهر لمن تأمل مؤلفاته : أنه يفرق بين الخير فى العمل ، والخير فى الاعتقاد . إذ يراه يقول فى ص ٤٧ من الجزء الثالث من الاحياء :

« اذا حكم قلب المفتى بايجاب شىء ، وكان مخطئا فيه ، صار مثابا عليه . بل من ظن أنه تطهر ، فعليه أن يصلى . فان صلى ثم تذكر أنه لم يتوضأ كان له ثواب بفعله ، فان تذكر ثم تركه كان معاقبا عليه . ومن وجد على فراشه امرأة فظن أنها زوجته ، لم يعص بوطئها وان كانت أجنبية فان ظن أنها أجنبية ، ثم وطئها ، عصى بوطئها وان كانت زوجته »

ويراه يقول فى ص ١١ من كتابه المنقذ من الضلال :

« والطبيعيون قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات . وأكثروا الخوض فى علم تشريح أعضاء الحيوان فرأوا فيها من عجائب صنع الله وبدائع حكمته ما اضطروا معه الى الاعتراف بفاطر حكيم مطلع على غايات الأمور ومقاصدها . ولا يطالع التشريح

ومنافع الأعضاء مطالع إلا ويحصل له هذا العلم الضرورى بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان ، ولا سيما الانسان . إلا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم فى قوى الحيوان ، فظنوا أن القوة العاقلة من الانسان تابعة لمزاجه أيضاً ، وأنها تبطل ببطلان مزاجه ، فتنعدم . ثم إذا انعدمت فلا يعقل إعادة المعدوم كما زعموا فذهبوا الى أن النفس تموت ولا تعود ، فجحدوا الآخره . وهؤلاء أيضاً زنادقة . لأن أصل الايمان هو الايمان بالله وبالرسول واليوم الآخر وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر وان آمنوا بالله وبصفاته »

وتهافت الغزالى فى هذا الحكم واضح . فقد قرر أن من يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء يحصل له العلم الضرورى بكمال تدبير البانى لبنية الحيوان والانسان ، فهو إذن أقوى ايماناً وأرسخ عقيدة ممن لم يطالع التشريح . ولكن الباحث فى منافع الأعضاء مضطر الى أن يؤمن بأثر المزاج فيما يعتور النفس من قوة وضعف ، وهو بالتالى مضطر الى الايمان بأن النفس تموت . وإذن فهو زنديق فيما يرى الغزالى ! وكيف ذلك والغزالى يرى أن من وجد على فراشه امرأة فظن انها زوجته ، لم يعص بوطئها وان كانت أجنبية ! ؟

لقد صرح الغزالى فى عدة مواطن من كتبه ، بأن من حُمِل على شرب الخمر لا يحد ؛ وصرح فى ميزان العمل بأن الأمزجة تُشَكِّل الأخلاق ؛ فهو يرى الاختيار شرطاً للمؤاخذة ، كما

أوضح ذلك حين تكلم عن حديث النفس فى الجزء الثالث من الاحياء ، فكيف يحكم بكفر الرجل العالم الذى أقنعه العلم مثلا بأن النفس تموت ؟ أيرى الغزالى أن من المحرم شرعا أن يدرس التشريح ؟ واذا كانت الشريعة تدعو الى تحكيم العقل كما نطق بذلك القرآن ، أفليس معنى ذلك انه ليس للشريعة أن تضع بنفسها نتيجة ذلك التحكيم ، والا كان ايماناً بقوة الحديد ؟

الحق أن الغزالى مال كثيراً الى ترضية العامة حين بحث صحة الايمان ، حتى رأيناه يذكر أن المرء قد يتكلم بما هو كفر ، وهو لا يدرى !

وما أغرب قوله فى كتابه المنقذ من الضلال « ثم رد ارسطاليس على افلاطون وسقراط ومن كان قبلهم من الالهيين ، رداً لم يقصر فيه حتى تبرأ من جميعهم ، إلا أنه استبقى أيضاً من رذائل كفرهم بقايا لم يوفق للنزوع منها . فوجب تكفيره ، وتكفير متبعية ، من متفلسفة الاسلاميين : كابن سينا والفارابى ، وأمثالهم »

والغزالى الذى أسرف هذا الاسراف فى الحكم على الايمان وفق كل التوفيق حين دعا الى حسن الظن بالناس . وانظر ماقاله فى تحريم الغيبة بالقلب « ليس لك أن تعتقد فى غيرك سوءا إلا اذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل . . . حتى ان من استنكه فوجد منه رائحة الخمر ، لا يجوز أن يحد ، إذ يقال يمكن أن يكون قد تمضمض بها ومجها وما شربها ، أو حمل على الشرب قهرا . فكل ذلك لا محالة دلالة

محتملة ، فلا يجوز تصديقها بالقلب ، وإساءة الظن بالمسلم بها »

وعندى أن الرجل لا يكفر الا اذا عرف الحق وعاند، فأى فيلسوف رأى رأيا شاذا عن حسن قصد فهو ناج ولو كان رأيه يخالف الدين مخالفة صريحة . فكان من الحق على الغزالى أن يقيم الأدلة على ما عند ابن سينا والفارابى من العناد ، وسنعود الى تفصيل هذا الرأى فى غير هذا الباب

مقياس الخير والشر

ومع أن الغزالى قرر أن لا دخل للعقل فى حسن العمل وقبحه ، وانما الامر فى ذلك للشرع ، فقد رأيناه يقيس العمل بمقياس العقل والشرع معاً ، حين يريد أن يحكم : أخير هو أم شر . فالعمل خير اذا وافق العقل والشرع ، وشر اذا خالف العقل والشرع

ولم يفرد الغزالى باباً لهذا البحث ، ولكنه نوه بمدلوله فى مواطن كثيرة ، فقد جاء فى ص ٨١ من ميزان العمل فى تعريف السخاء ما نصه: «هو أن يتيسر عليك بذل ما يقتضى الشرع والعقل بذله عن طوع ورغبة ، ويتيسر عليك إمساك ما يقتضى الشرع والعقل إمساكه عن طوع ورغبة » وجاء فى ص ١٣٦ من هذا الكتاب ما نصه : « وعماد عفة الجوارح كلها أن لا يطلقها فى شىء مما يختص بها الا فيما

يسوغه العقل والشرع وعلى الحد الذى يسوغه » وقال فى ص ٥٧ من الجزء الثالث من الاحياء « وأما قوة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع » وقال فى وصف العمل الصالح « وذلك بأن يكون موزوناً بميزان العقل والشرع » ص ٢٢ ج ٣ إحياء

اغفال الغزالى لهذا المقياس

هكذا يقاس الخير والشر بمقياس العقل والشرع فيما يرى الغزالى . ولكن ماهو الشرع ؟ وماهو العقل ؟

إن الغزالى نفسه وضع فى الأخلاق أحكاماً لانظنها تستند على عقل أو دين ؛ ولنضرب مثلا بما وضعه لنظام الطعام . جاء فى الميزان ص ١٨٤ مانصه « وأما المطعم فهو الأصل العظيم . إذ المعدة مفتاح الخيرات والشرور — ولهذا أيضاً ثلاثة مراتب : أدناها قدر الضرورة وهو ما يسد الرمق ويبقى معه البدن ، وقوة العبادة . وذلك يمكن تقليله بالعادة ، تارة بتقليل الطعام شيئاً فشيئاً حتى يتعود الصبر عنه عشرة أيام وعشرين . وقد انتهى الزهاد فى القدر كل يوم الى خمسة وبعضهم فى الوقت إلى عشرين يوما وقيل أربعين . وهذه رتبة عظيمة يقل من يستقل بها » وقد أطال القول فى فضائل الجوع فى الربع الثالث من الاحياء حتى قال « روى أن عيسى عليه السلام مكث يناجى ربه ستين صباحا لم يأكل فخطر بباله الخبز فانقطع عن المناجاة ، فاذا رغيف موضوع بين يديه ، فجلس يبكى على فقد المناجاة ، واذا شيخ قد أظله ، فقال له عيسى : بارك الله فيك ياولى الله ، ادع الله تعالى لى . فانى كنت

فى حالة نخطر ببالى الخبز فانقطعت عنى ! فقال الشيخ : اللهم إن كنت تعلم أن الخبز خطر ببالى منذ عرفتك فلا تغفر لى ! بل كان إذا خطر لى شئ أكلته من غير فكر ولا خاطر ! »

وقال أيضاً « الفائدة السابعة من فوائد الجوع — تيسير المواظبة على العبادة . فان الأكل يمنع من كثرة العبادات لأنه يحتاج الى زمان يشتغل فيه بالأكل ، وربما يحتاج الى زمان فى شراء الطعام وطبخه ، ثم يحتاج الى غسل البدن والخلال ، ثم يكثر تردداه الى بيت الماء لكثرة شربه ، والأوقات المصروفة الى هذا لو صرفها الى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لكثر ربحه »

ففى الكلمة الأولى نراه يدعو إلى تقليل كمية الطعام حتى تصل إلى حمصة ، وتطويل المدة حتى تصل إلى عشرين يوماً أو أربعين ، ثم يعد هذه الرياضة رتبة عظيمة . فياليت شعرى ، أيرضى بذلك العقل ، وهو لايرضى بأقل من أن يكون المرء حياً فيه فضائل الحياة من قوة ونشاط ؟ أم يرضى بذلك الشرع ، وهو لايرضى بأقل من أن يكون الرجل جندياً يضرب فى الارض ، ويحرس الثغور ، ويرهب القوم الكافرين ؟

وفى الكلمة الثانية ، يصف عيسى بمالا ينبغى أن يوصف به الأنبياء ، وإلا فكيف ينبغى لنبى أن يناجى ربه ستين صباحاً بلا طعام ، وهو مسئول عن الدعوة إلى دينه ، وقلما ينجح فى الدعوة ضعيف ؟ هذه جرءة فى وصف الأنبياء والمرسلين ،

فما أحسبهم إلا رجالاً أشداء تمت لهم صفات الفتوّة والرجولة ، أما هذه الرهبنة التي تصورها الغزالي فلا تنتج غير الضعف والخمول ، وما كان الأنبياء كسالى ولا واهنين

وفي الكلمة الثالثة ، يستكثر على المريد أن يضيع وقتاً في شراء الطعام وطبخه ، ثم غسل يده ، وتخليل أسنانه ، وما أدري كيف يصير الناس ، إذا قاسوا الخير والشر بهذا المقياس !

الواقع أن الغزالي وضع مؤلفاته في الأخلاق مشربة بنزعة صوفية ، بل صرح بأن مدار أكثر كتابه الميزان على مذهب التصوف . والتصوف ليس مذهب الأحياء ، ولكنه مذهب الأموات . وما ظنك بمذهب يجيز للغزالي أن يصور للنظر للمستقبل بهذه الصورة المنكرة حين يقول « وأرفع الدرجات درجة من يلتفت الى غيره ، ويقصر همته على يومه ، ويومه على ساعته ، وساعته على نفسه ، وقدّر نفسه كل لحظة مرتحلا من الدنيا أو مستعداً للارتحال »

وما أظن أمة تفهم الأخلاق هذا الفهم ، ثم تقدر على الجلاد في عالم الأحياء . ولم يبعد من وصف الاخلاق في رأى الغزالي بأنها أخلاق العبيد !

الفصل الثانى

الارادة

١

وردت كلمة الارادة فى كتب الغزالى لأغراض متعددة :
فتارة يريد بها السلوك فى طريق الله ، ومنها المريد الذى يرد كثيراً
فى كلامه ، ويريد به السالك فى ذاك الطريق ، طريق الصوفية

وللارادة بهذا المعنى شرط يتقدمها : وهو رفع السدّ الذى
بين المريد وبين الحق ، وهذا السد فيما يرى الغزالى أربعة أشياء :
المال ، والجاه ، والمعصية ، والتقليد

ويُرفع حجاب المال بخروج المريد عن ملكه ، حتى لا يبقى
له إلا قدر الضرورة . ويُرفع حجاب الجاه بالبعد عن مواطنه مع
إيثار الخمول . ويُرفع حجاب التقليد بترك التعصب للمذاهب .
أما المعصية فلا يرفعها إلاّ التوبة ، والندم ، والعزم على عدم العود
والخروج من المظالم

والتجرد من هذه الحجب هو فيما يرى الغزالى كالتطهر
للصلاة ، ولا بد للمصلى من إمام . فكذلك لابد للمريد من أستاذ

وقد وضع عدة آداب للمريد مع أستاذه ، وليس ذلك مما يعنينا الآن . ويكفى أن يعرف القارئ مايقصد من كلمة مريد التى يكثر دورانها فى الميزان والمنهاج والإحياء

٢

وتارة يذكر الارادة ويريد بها ما ينبعث عن المعرفة ويسخر القدرة . والارادة بهذا المعنى هى المقصودة عندعلماء الأخلاق .

ولها عند الغزالى أسماء مختلفة : فنراه حينا يسميها القوة العاملة إذ يقسم قوى النفس الانسانية إلى قوة عالمة ، وقوة عاملة ، ويذكر أن الثانية « هي قوة ومعنى للنفس هو مبدأ حركة بدن الانسان الى الأفعال المعينة الجزئية المختصة بالفكر والروية على ماتقتضيه القوة العالمة النظرية » الميزان ص ٢٦

ونراه حيناً آخر يسميها النية . ويعنونها كذلك فى الأربعين والاحياء . فلو أنك نظرت فى الفهرست لتعرف فى أى موضع تكلم عن الارادة ، ثم نظرت فى الفصل الذى شرحها فيه ، لما رأيتها الارادة التى يتكلم عنها الأخلاقيون ، وانما رأيتها الارادة التى عناها الصوفية ، واشتقوا منها كلمة مريد . فاما الارادة التى هى من موضوعات الأخلاق ، فاسمها عند الغزالى النية ، وله فى شرحها كلام طويل

٣

يقول الغزالى « إن النية والإرادة والقصد ، عبارات متواردة على معنى واحد وهو حالة وصفة للقلب ، ويكتنفها أمران : علم وعمل . والعلم يتقدم لأنه أصل وشرط . والعمل يتبع لأنه ثمرة وفرع . وذلك لأن كل عمل ، أعنى كل حركة وسكون اختيارى . لا يتم إلا بثلاثة أمور : علم ، وإرادة ، وقدرة . لأنه لا يريد الانسان مالا يعلمه ، فلابد وأن يعلم ، ولا يعمل مالم يرد فلا بد من ارادة . ومعنى الارادة انبعاث القلب الى مايراه موافقا للغرض ، إما فى الحال ، وإما فى المآل » ص ٣٨١ ج ٤ إحياء

ويقول (النية هى الأرادة الباعثة للقدرة ، المنبعثة عن المعرفه . وبيانه أن جميع أعمالك لا تصح الا بقدرة وارادة وعلم ، والعلم يهيج الإرادة . والإرادة باعثة للقدره . والقدرة خادمة الاراده) ص ٢٦٢ من الأربعين

وواضح أن الارادة كما يراها الغزالى لاتختلف عما نراه الآن فانك لاتجد فرقا بين كلامه هذا وبين قول چول سيمون (والواقع اننا لأجل أن نعمل يجب أن نريد ، ولأجل أن نريد يجب أن نعرف ماذا نريد ، ولماذا نريده) الواجب ص ١٩

٤

ويقرر الغزالى فوق ماتقدم انه لا يكفى أن يعلم الانسان صواب العمل ليريده وينفذه ، بل لابد من أن يقوى فى نفسه

كون الشيء موافقا له ، فاذا جزمت المعرفة بان الشيء موافق ولا بد أن يفعل ، وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه ، انبعثت الارادة ، ونهضت القدرة لتنفيذ المراد

ويقرر كذلك أن نهوض القـدرة للعمل قد يكون بباعث واحد ، وقد يكون بباعثين اجتمعا فى فعـل واحد . واذا كان بباعثين فقد يكون كل واحد من القوة بحيث لو انفرد لكان كافيا لإنهاض القدرة ، وقد يكون كل واحد قاصراً عنه إلا بالاجتماع ، وقد يكون أحدهما كافيـا لولا الاخر ، ولكن قام الآخر بمعاونته . فالباعث الثـانى اما شريك أو رفيق أو معين . ولهذا التقسيم مزية فى تقدير ما فى العمل من خير أو شر ، بتقدير البواعث ؛ فان العمل تابع للباعث عليه ، فيكتسب الحكم منه ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . بل ربمـا كانت النيات أقوى فى التقدير من الأعمال ، ومن هنا كانت نية المرء خيراً من عمـله كما جاء فى الحديث الشريف ، وكما ذكر الغزالى من أن أعمـال الجوارح ليست مرادة إلا لتأثيرها فى القلب ، ليميل الى الخير ، وينفر من الشر [١]

(١) انظر ص ٢٦٣ من الاربعين

تربية الارادة

تُربّى الارادة فيما يرى الغزالى بتكرار طاعة الميـل المحمود وتكرار مجاهدة الميل المذموم . وفى ذلك يقول : «واذا حصل أصل الميل بالمعرفة فانما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه . فان المواظبة على مقتضى صفات القلب تجرى مجرى الغذاء والقوت لتلك الصـفات فالمائل الى طلب العلم أو طلب الرياسة ، لا يكون ميله فى الابتداء إلا ضعيفاً . فان اتبع مقتضى الميـل ، واشتغل بالعلم ، وتربية الرياسة ، والاعمال المطلوبة لذلك ، تأكد ميله ورسخ ، وعسر عليـه النزوع . وان خالف مقتضى ميله ، ضعف ميله ، وانكسر ، وربما زال . بل الذى ينظر الى وجه حسن مثلا فيميل اليه طبعه ميلا ضعيفاً ، لو تبعه وعمـل بمقتضاه فداوم على النظر ، والمجالسة ، والمخالطة ، والمحاورة ، تأكد ميله حتى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه . ولو فطم نفسه ابتداء ، وخالف مقتضى ميله ، لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل ، ويكون ذلك دفعاً فى وجهه حتى يضعف . . . لان بين الجوارح والقلب علاقة ، حتى انه ليتأثر كل واحد منهما بالآخر . إلا أن القلب هو الأصل المتبوع ، فكأنه الأمير والراعى . والجوارح كالخدم والرعايا والاتباع »

والغزالى لا يرى للعمل قيمة بغير النية ، وان شئت الارادة . واذ كانت النية هى التى تقوّم العمل ، فمن الخير أن تكون قوية ، لأنه كما تكون الرغبة فى عمل طيب ، أو النفرة من عمل خبيث ، يكون جزاء العامل : فيكثر أجره إن قوى حبه للخير ، وبغضه

للشر ، ويقل فيما عدا ذلك . وقد نص فى عدة مواطن من كتبه بان المعوّل على القلوب ، حتى لنجـده يذكر أن الصغيرة تنقلب كبيرة بالاصرار والمواظبة ، أو بالاستهانة بما لها من الخطر . وأن الكبيرة اذا وقعت بغتة ، ولم يتّفق اليها عود ، واستعظمها المرء ، كانت مرجوّة العفو ، وفى ذلك يقول :

« فان الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عنـد الله ، وكلما استصغره كبر عند الله ، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب منه ، وكراهيته له ، وذلك النفور يمنع من شـدة تأثره به . واستصغاره يصدر عن الإلف له ، وذلك يوجب شدة الأثر فى القلب ، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيئات » ص ٣٣ ج ٣

أهمية الارادة

الارادة شرط للمسئولية ، وشرط للجزاء . فالذى يعمل وهو ناسٍ أو غافل لايجازى ولا يؤاخذ . وانما كان الأمر كذلك فيما يرى الغزالى : لأن القلب لايتأثر بما يجرى فى الغفلة ، والقلب عند الغزالى هو كل شىء ، فليست الحسنة حسنة إلا لأنها تصلحه ، أو تزيد فى صلاحه ، وليست السيئة سيئة الا لأنها تفسده ، أو تزيد فى فساده . والجريمة الهائلة اذا اقترفها المرء وهو مضطرب متردد ، لاخطر لها عنده ، لان القلب لايتأثر بما يفعل المرء وهو

كاره ، والهفوة التافهة عظيمة الخطر إذا أتاها المرء وهو راض مسرور ، لأنه بقدر ماتحلو السيئة يعظم أثرها فى تسويد القلب وإفساده . والذنب الواحد تختلف قيمته حين يأتيه رجلان : أحدهما عارف به ، وثانيهما جاهل له ، فهو بالنسبة للأول كبيرة ، وبالنسبة للثانى صغيرة ، لأن الارادة تختلف قوة وضعفاً باختلاف درجة العلم ، إذ كانت ثمرة له

ويقول الغزالى بعد كلام طويل « فهكذا يجب أن تفهم تأثير الطاعات كلها ، إذ المطلوب منها تغيير القلوب ، وتبديل صفاتها فقط ، دون الجوارح ، فلا تظنن فى وضع الجبهة على الأرض غرضا من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض ، بل من حيث إنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع فى القلب . ومن وجد فى قلبه رقة على يتيم ، فانه إذا مسح رأسه وقبله تأكدت الرقة فى قلبه » ص ٢٨٤ ج ٤

الجبر والاختيار

وقد اختلف العلماء ، ولا يزالون مختلفين ، فى حرية الارادة فنهم من يقول انها مجبورة ، ومنهم من يقول انها مختارة ، ومنهم من يحكم بأنها دائرة بين الجبر والاختيار

وأنا أرجح الرأى الأخير ، لأن الواقع أن هناك مؤثرات تحمل الارادة على الاتجاه إلى جهة معينة ، كالوراثة ، والصحة ، والبيئة ، والظروف الخاصة . والارادة فيما عدا ذلك حرة مختارة

فالذى ورث عن أبيه أو أمه خلقاً من الأخلاق ، يسير مضطراً إلى مايوافق ذلك الخلق . والذى يحمله ضعف صحته على اللدد فى الخصومة لا يستطيع اجتناب هذه الخصلة . والذى تقضى عليه البيئة التى يعيش فيها باحترام زى خاص ، يشعر بالاضطرار إلى التزيى بهذا الزى . فأنا أستطيع نزع العمامة لألبس الطربوش ، ولكنى لا أستطيع لبس القبعة ، لأنى مقهور على مسايرة الوسط الذى أعيش فيه ، وإن زعمت ثم زعمت أنى مختار . والذى يقهره ظرف من الظروف على إتيان جريمة من الجرائم غيرُ مختار . وسيرقى القضاء يوماً فيحلل الظروف التى وقعت فيها الجريمة ليتبين صحة المسئولية . فكثيراً ما يعاقب المجرم وهو غير مسئول

فاذا انتفت موانع الاختيار ، فالارادة حرة فى الاقبال على الفعل ، أو الانصراف عنه . وفى هذه الحالة تصبح للخير قيمته ، وللشر قيمته ، ويصير الخيِّرُ جديراً بالمثوبة لأنه أحسن وهو مختار ، والشرير خليقاً بالعقوبة لأنه أساء وهو مختار . أما المضطر الى فعل الخير أو الشر لسبب من الأسباب فهو فيما أرى غير أهل للثواب والعقاب

والغزالى لايقول بحرية الارادة حرية مطلقة ، ولا بعجزها العجز المطلق . ويقول « بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعا .

وخلق الاختيار والمختار جميعاً ، فأما القدرة فوصف للعبد وخلق للرب ، وأما الحركة فخلق للرب ، ووصف للعبد وكسب له ، فانها خلقت مقدورة بقدرة هى كسب وصفة . وكانت الحركة نسبة إلى صفة أخرى تسمى قدرة فتسمى باعتبار تلك النسبة كسبا . وكيف تكون جبراً محضاً وهو بالضرورة يدرك التفرقة بين الحركة المقدورة والرعدة الضرورية؟ أو كيف يكون خلقا للعبد وهو لا يحيط علما بتفاصيل أجزاء الحركات المكتسبة وأعدادها؟ وإذا بطل الطرفان لم يبق إلا الاقتصاد فى الاعتقاد ، وهو أنها مقدورة بقدرة الله تعالى اختراعا ، وبقدرة العبد على وجه آخر من التعلق يعبر عنه بالاكتساب) ص ١٢٠ ج ١ إحياء

والواقع أن رأى الغزالى هذا لا يفصح عن قيمة ما فى أعمال المرء من الاختيار ، فهى فى رأيه ليست جبراً لأنها تفترق عن الرعدة ، وهى ليست اختياراً لأن المرء لا يحيط بتفاصيل ما لحركاته من الأجزاء . مع أن الاختيار لا يتوقف إثباته على معرفة الأجزاء والإعداد ، لأن العمل الاختيارى قد تكون له لوازم ضرورية ، لا يتنبه لها المرء ، ولا تكون غفلته عنها قادحةً فى اختياره

ويقرر الغزالى مع هذا (أن فعل العبد وإن كان كسباله ، لا يخرج عن كونه مرادا لله سبحانه ، فلا يجرى فى الملك والملكوت طرفة عين ، ولا لفتة خاطر ، ولا فلتة ناظر ، إلا بقضاء الله وقدرته ، وبإرادته ومشيئته ، ومنه الشر والخير ، والنفع والضر ، والاسلام والكفر ، والعرف والنكر ،

والفوز والخسر ، والغواية والرشد ، والطاعة والعصيان ، والشرك والايمان) ص ١٢٠ ج ١

وأنا لاأفهم ماهو هـذا الكسب الذى يُقره أهل السنة ، ويتابعهم الغزالى فى إقراره . فهم لايقولون بأن العبـد مضطر ، والا كانوا جبرية ، والجبرية فى رأيهم خاطئون . ولا يقولون بانه مختار ، والا كانوا معتزلة ، وهم قد سلقوا المعتزلة بألسنة حداد . فلم يبق إلا ان العبد لاهو حر ولا هو مختار ، وانما هو مكتسب : وهذا الكسب أيضاً مراد لله . إذن فما الذى بقى للعبد المسكين ؟

الحق أن هذه وسوسة أوقعهم فيها الخلاف ؟

وأساس هذه الوسوسة أنهم يحسبون حرية الارادة خروجا على الله فى ملكوته ، والغزالى يضرب المثل بزعيم الضيعة يستنكف أن يكون لأحد العمال رأى معه ، وما كان أغناه عن ضرب هذه الأمثال ؟

إن حرية الارادة الانسانية لاتضر الله شيئاً ، فما بال أهل السنة يأبون إلا أن تكون طرفة العين ، وهى حركة طبيعية ، أثراً لإرادة الله ؟

ولا قيمة لما يجيب به المتعسفون من أن اختراع الله للقدرة كافٍ فى اقرار الكسب للمرء ، فانه لاخلاف فى أن الله واهب

---

٢٢١ . ص ١٢٠ ج ١ إحياء

القَدَر ، ولكن ليس معنى ذلك أنه يسيّرها أنى شاء ، ومتى شاء ، والا كان التكليف ضربا من العبث ، ولو كره المتكلفون . فلم يبق الا أن الارادة حرة ، وذلك هو ماوضع الله من قانون ، فلا يبتئسوا بما نقول !

على ان العهد قريب بما قال الغزالى فى تربية الارادة ، فاذا كان ما أريده هو مايريد الله ، فأى الأرادتين تربّى ؟ إنْ هذا إلا تناقض

ونعود فنذكر انه قرر فى مكان آخر من الإحياء (أن النية غير داخلة تحت الاختيار) وقد عرفت انه يريد بالنية الارادة ، وأن رأيه وسط بين الجبر والاختيار ، أفلا يكون متناقضاً فى حكمه : تارة بأن النية حرة ، وتارة بأنها مجبورة ؟

الحقيقة أن الارادة التى يقرر الغزالى أنها غير مختارة ليست هى الارادة بمعنى القصد ، وانما ذلك مايسمى ارادة صادقة ، وهى التى يعقبها التنفيذ . فمن الجائز أن أقصد الى أى عمل فى أى وقت ، ولكن ليس فى مقدورى أن أرغب رغبة صادقة فى كل ما يعنّ لى من الأعمال ، فى جميع الأحيان . وفى ذلك يقول الغزالى « فقد تتيسر فى بعض الأوقات ، وقد تتعذر فى بعضها . نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه فى أكثر الأحوال إحضار النية للخيرات ، فان قلبه مائل بالجملة الى أصل الخير فينبعث الى التفاصيل

غالبا ، ومن مال قلبه الى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك . بل لا يتيسر له فى الفرائض الا بجهد جهيد ، وغايته أن يتذكر عذاب النار أو نعيم الجنة ، فربما تنبعث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته و نيته »

وخلاصة رأى الغزالى أن المرء حر فى الاقبال على ماشاء من الأعمال ، وان كان فى اقباله انما ينفذ ارادة الله ، ولكنه ليس صادق النية فى كل حين ، وانما تصدق النية بالترغيب فى الجنة والتخويف من النار

ولا يفوتنا أن ننبه على ما دعا اليه فى تربية الخُلق من مخالطة الأخيار ، فان فى ذلك اعترافا ضمنيا بتأثير الوسط فى الارادة الانسانية ، ونقله إياها من حال إلى حال . وهذا نوع من الجبر ، ولكنه جبر معقول

الفصل الثالث

الضمير

هو صوت ينبعث من أعماق الصدور ، آمراً بالخير ، أو ناهياً عن الشر ، وان لم ترج مثوبه ، أو تخش عقوبة

والغزالى كما رأيت لايرى شيئاً حسناً لذاته ، أو قبيحاً لذاته ، فالشرع هو المكيِّف للأعمال حسناً وقبحاً ، فلا مجال بالطبع لأن

يفرد باباً للضمير ، إذ كان التكليف إنما ينزل من السماء . والضمائر التي ترد فى كلامه إنما يريد بها مكنونات الصدور ، وهى والسرائر من باب واحد . والانسان فيما يرى ليس مسئولا عن مراقبة ضميره ، إذ هو لايعرف الضمير . وانما يسأل عن مراقبة ربه ، وخشيته ، فى السر والعلانية . فليس هناك جارحة باطنية تدرك الخير والشر ، وان لم تتعرض لهما الشرائع ، وانما هناك رب يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور ، والمرء عن خشيته مسئول

غير أنه لايصح لنا أن ننسى أن هناك أسباباً لنشوء الضمير ، فالفلسفة توجد لدارسها نوعا من الشعور بالمسئولية ازاء بعض الجوانب ، والأخلاق توجد للباحث فيها نوعا من إدراك الواجب ، والشريعة كذلك تورث المتدين بها نوعا من الوجدان

ولا نبعد عن الصواب إذا قررنا أن الغزالى يؤمن بالنوع الأخير من الضمير ، وإن لم ينوه به ، ولم يختصه بالبيان . واليك قوله فى ص ٨٥ ج ١ من الاحياء (ومنها أن يكون اعتماده فى علومه على بصيرته ، وإدراكه بصفاء قلبه ، لا على الصحف والكتب ولا على تقليد مايسمعه من غيره) وقد ردّد فى كتبه هذا الحديث (الأثم ما حاك فى صدرك ، وإن أفتوك وأفتوك) وليس ذلك إلا إشادة بهذه الحاسة الباطنية التى يفزع المرء اليها عندما يلتبس

عليه وجه الصواب . إلا أنه يجب أن نعرف أن نص الشريعة من كتاب أو سنة هو عنده فوق الفتوى وفوق الضمير .

والحق أن الضمير لاوجود له فى ذاته ، حتى نؤاخذ الغزالى بإغفاله ، وانما ينشأ من الشرائع الوضعية ، والسماوية . حتى إنك لتجد لكل شعب ضمائر تخصه بالذات ، حسبما توحى التقاليد . فمثلا جريمة السرقة كانت فضيلة عند بعض الشعوب ، وكان من تنقصه فيها المهارة عرضة لاحتقار الرأى العام ، ولذع الضمير !! ونهب مال الغريب لاحرج فيه عند فريق من القبائل البربرية ، فمن الواضح أنهم لايقاسون عندنهبه تأنيب الضمير . بل الشخص الواحد يختلف ضميره باختلاف سنه ، فيكون ضميره فى سن العشرين ، أضعف أو أقوى منه فى سن الثلاثين ، حسبما توجب الظروف . ومن هنا صح لشاعر أن يقول :

يقولون هل بعد الثلاثين ملعب * فقلت وهل قبل الثلاثين ملعب؟

كما صح لغيره أن يقول :

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه * فلما علاه قال للباطل ابعدِ

وعندى أن فكرة الضمير إذا صح أن تكون عامة ، فيجب أن تقصر على المنافع البشرية . على معنى أن الضمير هو الحاسّة التى تتألم لما يتوجّع له الانسان من حيث هو إنسان ، بغضّ النظر

عن دينه ، ووطنه ، ومذهبه . فان للانسانية وشائج لاينال منها اختلاف المذاهب ، ولا تباين اللغات ، ولا تباعد الأقطار

الفصل الرابع

الأغراض والنتائج

هل يكون العمل خيراً باعتبار نتيجته ، أو باعتبار المقصود منه ؟ وبعبارة أوضح : هل يكون خيراً لانى أردت به الخير ، أو لأنه أنتج الخير ، وإن لم أرد ذلك ؟

ويظهر أنه لاستخلاص رأى الغزالى فى الجواب على هـذا السؤال ، ينبغى أن نسايره فى الأعمال المختلفة ، لنعرف رأيه فى كل نوع منها على انفراد

وقد رأيناه يقسم أعمال الإنسان إلى طاعات ومعاصى ومباحات . أما الطاعات فلا تكون خيراً إلا بالنية ، وهى الغرض فى التعبير الحديث . ويقول فى ذلك (إن العمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه . ولذلك قيل : إنما الأعمال بالنيات . لأنها تابعة لا حكم لها فى نفسها وانما الحكم للمتبوع) وهو يستنتج بناء على هـذا الأساس أنه لاقيمة للصوم إذا أراد الصائم الانتفاع بالحِمية ، ولا للعتق إذا أراد السيّد أن يتخلص من مؤنة عبده ،

ولا للحج إذا أراد المرء أن يصح مزاجه بالحركة والانتقال ، ولا للغزو إذا أحب الشخص أن يتعلم أسباب الحروب : لأن النية لا تصح عند الغزالى إلا إذا خلصت من الشوائب ، وتقرب العبد بها إلى الله . ولا مانع عنده من وجود باعث آخر ، ويسميه الباعث النفسى ، على شرط أن يكون أضعف من الباعث الأصلى . فان كان مساوياً له ، صار العمل لا له ولا عليه ، كما يقول . وإن كان أقوى منه فهو مضر ومفض للعقاب

والغزالى ينصح بالتدبر قبل الشروع فى الطاعة ليعرف المرء أى الباعثين أقوى : باعث النفس أو باعث القربة ، وأى النصيبين أوفى : نصيب الله أم نصيب الشيطان . ولكنه يقول :

« ومع هذا فلا ينبغى أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء فان ذلك منتهى بغية الشيطان منه ، إذ المقصود أن لا يفوت الاخلاص . ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والاخلاص جميعاً »

ويلاحظ أن فى هذا تناقضاً مع حكمه على العمل الذى غلب فيه الباعث النفسى بأنه مضر ومفض للعقاب ، والعمل الذى يضر ويفضى للعقاب ، لا يكون تركه منتهى بغية الشيطان ، فكان على الغزالى أن يفرق بين العمل فى ذاته وبين غرض العامل منه ، لأن العمل الطيب غير ضار فى ذاته ، وإن ساء الغرض منه .

والمفروض أننا نتكلم عن أعمال هي في نظر الشرع طاعات ، وهي في ذاتها خير ونافعة ، فكيف تنقلب بسبب النية ضارة ؟

ولم يفرق الغزالي بين الأعمال الاجتماعية والأعمال الفردية فمن الواضح أن بعض الاعمال يرجع الى فائدة المرء وحده كالعبادات وبعضها يرجع نفعه إلى جمهور الناس . وما أحسب الغزالي ينهى عن الأعمال الاجتماعية ، مهما ساء القصد ، إذ لا أقل من أن تكون تمريناً للنفس على عمل الخير . وقد صرح في غير موطن بأن التخلق مفض إلى الخُلق . ومتى كان العمل نافعاً للناس ، فالدعوة اليه واجبة ؛ والعامل حر في الاستفادة من حسن نيته إن شاء

وأما المعاصي فهي شر على كل حال . والغزالي هنا يقدر النتائج ، فمن عمل شرا عن جهل فهو آثم ، ولا عذر له من جهله لأن الجاهل غير معذور إلا إذا كان قريب عهد بالاسلام ، وهذا عذر محدود . وقد علمت أنه يرى أن المعصية شر لأنها ضارة ورأيت كذلك أن فاعل المعصية آثم وان لم يعلم وجه إثمه ، فتحتم أن تكون العبرة هنا بالنتائج لا الأغراض ، بخلاف الطاعات فقد تنقلب معاصي صرفة إذا خبثت النية ، كمن يتعلم العلم ليستميل الناس

الفصل الخامس

الوسائل والغايات

إذا كانت الغاية شريفة ، فلا يجب فيما يرى الغزالى أن تكون الوسيلة دائماً شريفة ، فالغاية عنده قد تبرر الوسيلة . وقد أوضح هذا حين تكلم عن المواطن التى يجوز فيها الكذب فقال :

« الكلام وسيلة الى المقاصد، فكل مقصود محمود يمكن الوصول اليه بالصدق والكذب جميعاً، فالكذب فيه حرام إن أمكن التوصل اليه بالصدق . وان أمكن التوصل اليه بالكذب دون الصدق ، فالكذب فيه مباح ، إن كان تحصيل ذلك القصد مباحا ، وواجب ان كان المقصود واجباً. وكما أن عصمة دم المسلم واجبه ، فمها كان فى الصدق سفك دم امرئ مسلم قد اختفى من ظالم ، فالكذب فيه واجب . ومهما كان لا يتم مقصود الحرب ، أو صلاح ذات البين ، أو استمالة قلب المجنى عليه ، إلا بكذب فالكذب مباح [1] » وبعد أن بين الحالات الثلاث التى يجوز فيها الكذب كما نص الحديث، وهى الصلح والحرب ومحادثة المرأة ، قال :

« فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء ، وفى معناها ماعداها اذا ارتبط به غرض مقصود صحيح له أو لغيره [2] » ثم ضرب لذلك الأمثال الآتية :

---

(١) ص ١٣٩ ج ٣ إحياء (٢) ١٤١ ج ٣

(١) ان يأخذه ظالم ويسأله عن ماله . فله أن ينكره

(٢) ان يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة ارتكبها بينه وبين الله ، فله أن ينكر ذلك ، إذ للرجل أن يحفظ دمه ، وماله وعرضه ، بلسانه ، وان كان كاذبا

(٣) أن يُسأل عن سر أخيه ، فله أن ينكره

(٤) أن يصلح بين الضرائر من نسائه ، بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب إليه

وقد تنبه الغزالى إلى خطر هذا الباب ، فبين أن الكذب لاينبغى أن يقترف كلما كانت له فائدة ، بل يجب أن تكون فائدته ✓أقوى وأظهر من فائدة الصدق ، وإلا وجب أن يكون الرجل من الصادقين . وانظر قوله « ولكن الحد فيه أن الكذب محظور ، ولو صدق فى هذه المواضع تولد منه محظور ، فينبغى أن يقابل أحدهما بالآخر ، ويزن بالميزان القسط ، فاذا علم أن المحظور الذى يحصل بالصدق أشد وقعاً فى الشرع من الكذب ، فله الكذب . وان كان ذلك المقصود أهون من مقصود الشرع ، فيجب الصدق . وقد يتقابل الأمران بحيث يتردد فيهما ، وعند ذلك الميل الى الصدق أولى . لأن الكذب يباح لضرورة ، ولحاجة مهمة . فان شك فى كون الحاجة مهمه ، فالأصل التحريم » ص ١٤١ ج ٣

غير أن هذه الحيطة لاتلزم الرجل فيما يرى الغزالى إلا إذا كان يترك الكذب لغرض من أغراضه . أما إذا تعلق بغرض

غيره فلا تجوز المسامحة بحق الغير ، والاضرار به . وهذا من الغزالى نظر بعيد

وقد استثنى من الكذب للمصلحة ، الكذب على رسول الله بوضع الأحاديث فى فضائل الأعمال ، وفى التشديد فى المعاصى ، فليس هذا من الاغراض التى تقاوم محظور الكذب على رسول الله ، فان الكذب عليه من الكبائر التى لا يقاومها شئ

وضع القصص

وبهذه المناسبة ، نذكر أن الغزالى صرح فى الجزء الأول من الاحياء ص ٣٧ بأن (من الناس من يستجيز وضع الحكايات المرغبة فى الطاعات ، ويزعم أن قصده فيها دعوة الخلق إلى الحق) وهو يرى ان (هذه من نزغات الشيطان ، فان فى الصدق مندوحة عن الكذب) وهذا منه إسراف . بل هو نفسه أول من يؤاخذ على وضع القصص إن كان فى وضعها مؤاخذة . ويكفى أن نعرف أنه يذكر فى كتبه من قصص الانبياء والصالحين ، مالم يقم على صحته أى دليل . والرواية الكاذبة ليست أقل خطراً من التأليف !

وكما جاز الكذب في سبيل الغاية ، كذلك تجوز فى سبيلها الغيبة . وقد صرح الغزالى بجواز الغيبة فى المواطن الآتية :

(١) التظلم . فان من ذكر قاضياً بالظلم ، والخيانة ، وأخذ الرّشوة ، كان مغتابا عاصياً . أما المظلوم من جهة القاضى فله أن يتظلم الى السلطان وينسبه الى الظلم ، إذ لا يمكنه استيفاء حقه إلا به . ولا أدرى لمَ لا تُستباح أعراض الظالمين ؟

(٢) الاستعانة على تغيير المكروه ، وردّ العاصى الى منهج الطاعة

(٣) الاستفتاء . كما يقول للمفتى : ظلمنى أبى أو زوجى أو أخى ، وكيف طريقى الى الخلاص . والأسلم التعريض ، ولكن التعيين مباح بهذا العذر

(٤) تحذير المسلم من الشر . فاذا رأيت فقيها يتردد الى مبتدع أو فاسق . وخفت أن تتعدى اليه بدعته وفسقه . فلك أن تكشف له بدعته وفسقه . متى كان الباعث لك الخوف عليه من سراية البدعة لا غير . واحذر أن يكون الحسد هو الباعث !

(٥) ان يكون المغتاب مجاهراً بالفسق ، بحيث لا يستنكف من أن يذكر له ، ولا يكره أن يذكر به

وهنا يحتاط الغزالى : فيبين أنه ليس لك أن تغتاب المجاهر بفسقه الا بما يتجاهر به . فمن كان يتجاهر بشرب الخمر فليس لك أن تذكر زناه ، إذا كان يستره ، وهذا منه نظر دقيق

والغاية الشريفة ، تبيح النميمة ، كما أباحت الكذب والغيبه . فللانسان أن ينم ، إذا كان فى النميمة فائدة لمسلم ، أو دفع لمعصية . كما اذا رأى من يتناول مال غيره ، فعليه أن يشهد به ، دفعاً للجانى عن المعصية ، ورداً الحق للمأخوذ ماله . والنميمة فى هذا المثال اذا كانت ضراً فى جانب الظالم ، فهى نفع فى جانب المظلوم ، وهو أولى بالإسعاف . بل دفع الظالم عن الظلم خير له فى حاضره ، وابعاد له عن الضر فى مستقبله ، اذا كان مستعداً للاقلاع عن الفساد

الباب السادس

فى الأخلاق

تمهيد

كلمة أخلاق وجدت قبل الغزالى ، ففى الحديث بعثت لأتمم مكارم الأخلاق . وقد عرف العرب فيما عرفوا عن اليونان كتابا لأرسطو فى الأخلاق . ووضع ابن مسكويه كتاباً فى صناعة تهذيب الأخلاق ، ويوشك كتابه ذاك أن يكون كتابا فى علم الأخلاق ، على نحو ما كان يفهم اليونان ، ومن اقتفى أثرهم من فلاسفة المسلمين

والذى يعنينى الآن هو تحديد علم الأخلاق كما فهمه الغزالى . وأقرر أنى بعد مراجعة كتبه لم أجده يساير من تقدمه من مجددى الفلسفة اليونانية . وإنما يفهم من علم الأخلاق شرح طرائق السلوك . وفقاً لما سنته الشريعة السمحة ، ورسمه الصوفية ، ومن نحا نحوهم من الفقهاء . ولعلم الأخلاق فيما يريد أسماء متعددة : فهو تارة يسميه علم طريق الآخرة ، وأخرى يسميه علم صفات القلب ، وحينا يسميه أسرار معاملات الدين ، وربما سماه أخلاق

الأبرار، وهو اسم لبعض مؤلفاته . وأهم كتبه فى الأخلاق نجده سماه إحياء علوم الدين . فعلم الأخلاق عنده هو تكييف النفس وردها الى ما رسمته الشريعة وخطه رجال المكاشفة من علماء الاسلام ، ومن سبقهم من الأنبياء ، والصديقين ، والشهداء

واذا كنا نجد ابن مسكويه مثلا يستشهد كثيراً بكلام ارسطاليس وجالينوس ، ويتحدث عن الرواقيين ، ومن اليهم من الحكماء ، فانا نجد الغزالى يؤيد أبحاثه بكلام ابن أدهم ، والتسترى ، والمحاسبى ، ومن اليهم من الصوفية ، وربما نقل ماروى عن عيسى ، وموسى ، وداود ، ومن اليهم من الأنبياء

تعريف الخلق

نرى الغزالى فى ص ٥٦ من الميزان ، يعرف الخلق الحسن بانه إصلاح القوى الثلاث : قوة التفكر ، وقوة الشهوة ، وقوة الغضب . ونراه فى ص ٦٤ منه يعرف الخلق الحسن بفعل مايكره المرء . ويستشهد بالحديث (حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات) وبالآية (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم) ونراه يقول فى ص ٤٧ « وأما حسن الخلق فبأن يزيل جميع العادات السيئة التى عرف الشرع

تفاصيلها ويجعلها بحيث يبغضها فيتجنبها كما يتجنب المستقذرات ، وأن يتعود العادات الحسنة ويشتاق اليها فيؤثرها ويتنعم بها »

وانما ذكرنا هـذه التعاريف المبهمة ، التى لاتغنى شيئاً فى التحديد ، لندل على ميل الغزالى الى الخطابيات ، فقد لاتخلو منها صفحة من كتبه فى الأخلاق

ولكنه فى ص ٥٦ ج ٣ إحياء عرّف الخلق تعريفا دقيقاً فقال « الخلق عبارة عن هيئة فى النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة الى فكر وروية ، فان كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا ، سميت تلك الهيئة خلقاحسناً ، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التى هى المصدر خلقا سيئاً » ثم ذكر أن الخلق ليس هو فعل الجميل أو القبيح ، ولا القدرة على الجميل أو القبيح ، ولا التمييز بين الجميل والقبيح . وانما هو الهيئة التى بها تستعد النفس لأن يصدر عنها الإمساك والبذل . ثم قال : فالخلق اذن هو عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة

الفصل الأول

تربية الخلق

ليس للغزالى رأى محدود فى الفطرة البشرية : فهو تارة يراها خالصة تصلح لكل شئ ، وتقبل كل صورة ، وتارة يراها أميل

—

إلى الخير منها إلى الشر . يدل على ذلك قوله « واذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل اليه والى القبائح ، فكيف لا تستلذ الحق لو ردت اليه ، والتزمت المواظبة عليه ؟ بل ميل النفس الى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع ، يضاهي الميل الى أكل الطين ، فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة ، فأما ميله الى الحكمة وحب الله تعالى ، ومعرفته ، وعبادته ، فهو كالميل الى الطعام والشراب : فانه مقتضى طبع القلب ، لأنه أمر رباني ، وميله الى مقتضيات الشهوة غريب عن ذاته ، وعارض على طبعه » ص ٦٣ ج ٣

وما نريد أن نناقش هذا الرأي بأكثر من أن نلفت النظر إلى أن الميل إلى مقتضيات الشهوة لا يبعد كثيراً عن الميل إلى الطعام والشراب ، فهو جزء من الفطرة البشرية ، كما أن الميل إلى الخير جزء من الفطرة البشرية ، وانما تُوجه النفس بمقتضى الظروف . فكما أن المرء لا يشتهي في كل لحظة أن يأكل أو يشرب ، فهو كذلك لا يشتهي في كل لحظة أن يكون خيّراً أو شرّيراً ، وانما يظهر ميله إلى الخير حين يوجد موجب الخير ، ويظهر ميله إلى الشر حين يوجد موجب الشر . بل قد تقوى الموجبات حتى تردّ الرشيد غويّاً أو تردّ الغوي رشيداً . ولولا اصلاح الفطرة للخير والشر لما احتجنا إلى تربية الأخلاق

كيف يربى الخلق ؟

يرى الغزالى أن من الناس من ولد حسن الخلق بفطرته ، بحيث لايحتاج إلى تعليم ، ولا إلى تأديب ، كعيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريا ، عليهما السلام ، وكذا سائر الانبياء . ولا يبعد فيما يرى أن يكون فى الطبع والفطرة ماقد ينال بالاكتساب ، فرب صبيّ خُلِق صادق اللهجة سخياً جريئاً

وما أريد أن أناقش الغزالى فى حكمه بأن الأنبياء لايحتاجون إلى التعليم والتأديب ، ويكفى أن أذكر أن عصمة الأنبياء — فى غير تبليغ الرسالة — كانت مما اختلف فيه العلماء ، وأن فى القرآن شواهد كثيرة على غفران ماتقدم وما تأخر للنبى من الذنوب

والطريق إلى تربية الخلق فيما يرى الغزالى هو التخلّق : أى حمل النفس على الأعمال التى يقتضيها الخلق المطلوب . فمن أراد مثلاً أن يحصّل لنفسه خلق الجود ، فعليه أن يتكلف فعل الجود : وهو بذل المال ، حتى يصير ذلك طبعاً له

والغزالى يهتم كثيراً برياضة النفس على مايرغب المرء فيه من مكارم الأخلاق ، ويرى كسب الخلق بسبب التخلق من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح ، ويقول فى ذلك :

« كل صفة تظهر فى القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك إلا على وفقها لا محالة . وكل فعل يجرى على الجوارح فانه قد يرتفع منه أثر الى القلب . ويعرف ذلك بمثال : وهو أن من أراد أن يصير الحذق فى الكتابة صفة نفسية له حتى يصير كاتبا بالطبع ، فلا طريق له إلا أن يتعاطى بجارحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق ويواظب عليه مدة طويلة ، يحاكى الخط الحسن ، فيتشبه بالكاتب تكلفا . ثم لا يزال يواظب عليه حتى يصير صفة راسخة فى نفسه ، فيصدر منه فى الآخر الخط الحسن طبعاً ، كما كان يصدر منه فى الابتداء تكلفا . فكان الخط الحسن هو الذى جعل خطه حسنا . ولكن الأول بتكلف ، إلا أنه ارتفع منه أثر الى القلب . ثم انخفض من القلب الى الجارحة ، فصار يكتب الخط الحسن بالطبع . وكذلك من أراد أن يصير فقيه النفس ، فلا طريق له إلا أن يتعاطى أفعال الفقهاء ، وهو التكرار للفقه . حتى تنعطف منه على قلبه صفة الفقه ، فيصير فقيه النفس »

ومن هنا كان الغزالى يرى أن الكبيرة الواحدة لا توجب الشقاء المؤبّد ، لأنها بدون التكرار لا تصبح صفة للنفس . ولا معنى للشقاء المؤبد إلا أن تصير احدى الرذائل صفة نفسية لأحد الناس

الفصل الثانى

امكان تغيير الخلق

لهذا الفصل علاقة ظاهرة بالفصل الذى قبله ، فان تربية الخلق معلقة على إزالة الخلق السيء . ويرى الغزالى أن تغيير الخلق ممكن ويقول فى ذلك تعليقاً على قوله عليه السلام : حسّنوا أخلاقكم « لو لم يكن ممكنا لما أمر به ، ولو امتنع ذلك لبطلت الوصايا والمواعظ والترغيب والترهيب ، فان الأفعال نتائج الأخلاق ، كما أن الهوىّ الى أسفل نتيجة الثقل الطبيعى ، بل كيف ينكر تهذيب الانسان مع استيلاء عقله ، وتغيير خلق البهائم ممكن إذ ينتقل الصيد من التوحش الى التأنس ، والفرس من الجماح الى السلاسة »

ويظهر أن الغزالى شهد من يرى أن الخُلق كالخَلق لا يمكن تغييره ، وإلا كان طمعاً فى تغيير خلق الله . وقد ذكر فى ذلك أن خلق الله قسمان : قسم لا فعل لنا فيه ، كالسماء والكواكب وقسم فيه قوة لقبول كمال بعده ، إذا وجد شرط التربية . وتربيته قد تتعلق بالاختيار ، فان النواة ليست بتفاح ولا نخل ، ولكنها قابلة بالقوة لأن تصير نخلا بالتربية ، وغير قابلة لأن تصير تفاحا ، وانما تصير نخلا إذا تعلق بها اختيار الآدمى فى تربيتها

ويقول « فلذلك لو أردنا أن نقلع بالكلية الغضب والشهوة من أنفسنا ونحن فى هذا العالم عجزنا عنه ، ولكن لو أردنا قهرهما وإسلاسهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه »

أقسام الطبائع

وهو بعد ذلك يقسم الجبلات إلى سريعة القبول ، وبطيئة القبول ، باعتبار التقدم فى الوجود ؛ ويقسم الناس فى تغيير الخلق إلى أربع مراتب — الاولى : الانسان الغُفْل الذى لا يعرف الحق من الباطل والجميل من القبيح . وهو أقبل الأقسام للعلاج : فلا يحتاج إلا إلى مرشد وإلى باعث يحمله على الاتباع — الثانية : أن يكون قد عرف قبح القبيح ، ولكنه لم يتعود العمل الصالح . بل زُيِّن له سوء عمله ، يتعاطاه انقياداً لشهواته ، واعراضاً عن صواب رأيه ، فأمره أصعب من الأول ، إذ تضاعفت علته . فيلزم (ا) قلع ما رسخ فيه من تعوّد الفساد (ب) وصرف النفس إلى ضده — الثالثة : أن يعتقد أن القبيح حق وجميل . ويرى الغزالى أن هذا لا يرجى صلاحه إلا على النّدرة ، إذ تضاعفت عليه أسباب الضلال — الرابعة : أن يكون مع وقوع نشوئه على الاعتقاد الفاسد ، وتربيته على العمل به ، يرى فضله فى كثرة الشر ، واستهلاك

النفوس ، ويتباهى بفساده ، ويراه مما يرفع قدره . قال الغزالى : وهذا أصعب المراتب وفى مثله قيل : من التعذيب تهذيب الذئب ليتأدب وغسل الأسود ليبيَض . ثم قال : فالأول من هؤلاء يقال له جاهل ، والثانى جاهل وضال ، والثالث جاهل وضال وفاسق ، والرابع جاهل وضال وفاسق وشرّير .

ولا يفوتنا أن نقرر أن الغزالى لا يريد من تغيير الخلق إلا قهره وإسلاسه ، وقد صرح بذلك فى قوله :

« وظنت طائفة أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها ، وهيهات ! فان الشهوة خلقت لفائدة . وهى ضرورية فى الجبلة ، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الانسان ، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل ، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الانسان عن نفسه ما يهلكه وهلك . ومهما بقى أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذى يوصله الى الشهوة حتى يحمله ذلك على إمساك المال . وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية ، بل المطلوب ردها الى الاعتدال الذى هو وسط بين الافراط والتفريط . »

كيف يعرف المرء عيوب نفسه ؟

يرى الغزالى أن من كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه ، فاذا عرف العيوب أمكنه العلاج .

واذ كان أكثر الخلق جاهلين لعيوب أنفسهم ، حتى إن

أحدهم ليرى القذى فى عين أخيه ، ولا يرى الجذع فى عين نفسه ، فقد وضع الغزالى أربع طرق لمعرفة عيوب النفس

الاول — أن يجلس المرء بين يدى شيخ بصير بعيوب النفس مطّلع على خفايا الآفات ، ويحكمه فى نفسه ، ويتبع إشارته فى مجاهدته .

الثانى — أن يطلب صديقاً صدوقا بصيراً متدينا فينصبه رقيباً على نفسه ، ليلاحظ أحواله وأفعاله ، فما كره من أخلاقه ، وأفعاله ، وعيوبه الباطنة ، والظاهرة ، نبهه اليه

الثالث — أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه ، فان عين السخط تبدى المساوى . ولعل انتفاع الانسان بعدوّ مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يخفى عنه عيوبه

الرابع — أن يخالط الناس ، فكل ما رآه مذموما عند الخلق اتهم نفسه به . فان الطباع متقاربة فى اتباع الهوى ، وما يتصف به واحد من الأقران لا ينفك القِرن الآخر عن أصله ، أو عن أعظم منه ، أو عن شىء منه . فليتفقد نفسه ويطهرها عن كل ما يذمه من غيره

علامات حسن الخلق

يتحاكم الغزالى فى هذا الباب الى القرآن ، إذ أن الله تعالى ذكر فى كتابه صفات المؤمنين والمنافقين ، وهى بجملتها ثمرة حسن الخلق ، وسوء الخلق . وبعد أن سرد جملة من الآيات قال « فمن أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات ، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق ، وفقد جميعها علامة سوء الخلق ، ووجود بعضها دون بعض ، يدل على البعض دون البعض . فليشتغل بتحصيل ما فقده ، وحفظ ما وجده » ص ٧٤ ج ٣

والظاهر أنه لايكفى دائما أن يتحاكم المرء الى القرآن ، فقد تكون هناك خلة واحدة تحتاج الى تحرير ، إذ لايدرى المرء أهو مخطئ فى التخلق بها أم مصيب . وقد تنبه الغزالى إلى هذه النقطة فى غير هذا الباب ، وهو يرى ان المطلوب فى علاج البخل مثلا هو (الاعتدال بين التبذير والتقتير حتى يكون على الوسط وفى غاية البعد عن الطرفين) ويقول « فان أردت أن تعرف الوسط فانظر الى الفعل الذى يوجبه الخلق المحظور ، فان كان أسهل عليك وألذ من الذى يضاده ، فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له ، مثل أن يكون إمساك المال وجمعه ألذ عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقه ، فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل ، فزد فى المواظبة على البذل .

فان صار البذل على غير مستحق ألذ عندك وأخف عليك من الامساك بالحق فقد غلب عليك التبذير فارجع إلى المواظبة على الامساك . فلا تزال تراقب نفسك وتستدل على خلقك بتيسير الأفعال وتعسيرها حتى تنقطع علاقة قلبك من الالتفات الى المال ، فلا تميل الى بذله ولا الى إمساكه ، بل يصير عندك كالماء ، فلا تطلب فيه إلا إمساكه لحاجة محتاج أو بذله لحاجة محتاج . ولا يترجح عندك البذل على الامساك » (١)

وفى هذا مغالبة للطبيعة البشرية ، وما أحسب خلق الكرم يتطلب أن يتساوى البذل والامساك ، وانما يحاول الغزالى أن يجعل الفضائل حركات فطرية للنفوس ، وهو أمل بعيد

الفصل الثالث

الطريق الى تهذيب الاخلاق

يتخذ الغزالى البدن مثالا للنفس : فكما أن البدن إن كان صحيحاً فشأن الطبيب تمهيد القانون لحفظ الصحة ، وإن كان مريضاً فشأنه جلب الصحة اليه ، فكذلك النفس : إن كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغى أن تسعى لحفظها ، واكتساب زيادة صفائها . وان كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغى أن تسعى لجلب ذلك اليها . وكما ان العلة المغيّرة لاعتدال البدن، الموجبة للمرض

(١) ج ٣ ٦٧

لاتعالج إلا بضدها : فان كانت من حرارة فبالبرودة ، وإن كانت من برودة فبالحرارة ، فكذلك الرذيلة التى هى مرض القلب ، علاجها بضدها : فيعالج مرض الجهل بالتعلم ، ومرض البخل بالتسخى ، ومرض الكبر بالتواضع ، ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفا . وكما أنه لابد من احتمال مرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الابدان المريضة ، فكذلك لابد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب ، بل أولى ، لان مرض البدن يخلص المرء منه بالموت بخلاف مرض القلب فانه يدوم بعد الموت أبد الآباد (؛) وكما أن كل مبرد لايصلح لعلة سببها الحرارة إلا اذا كان على حد مخصوص ، ويختلف ذلك بالشدة والضعف ، والدوام وعدمه ، وبالكثرة وبالقلة ، ولابد من معيار يعرف به مقدار النافع منه ، فانه إن لم يحفظ معياره زاد الفساد ، فكذلك النقائض التى تعالج بها الأخلاق لابد لها من معيار . وكما أن معيار الدواء مأخوذ من معيار العلة حتى إن الطبيب لايعالج ما لم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة ، فان كانت من حرارة فيعرف درجتها ، أهى ضعيفة أم قوية ، فاذا عرف ذلك التفت الى أحوال البدن ، وأحوال الزمان ، وصناعة المريض ، وسنه ، وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها ، فكذلك الذى يطب

نفوس المريدين ينبغى أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف فى فن مخصوص ، وطريق مخصوص ، مالم يعرف أخلاقهم وأمراضهم . وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم ، فكذلك المرشد لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم . بل ينبغى أن ينظر فى مرض المريد ، وفى حاله ، وسنه ، ومزاجه ، وما تحتمله نفسه من الرياضة ، ويبنى على ذلك رياضته .

وهذه الطريقة تدل على بصر الغزالى بعلاج الأخلاق ، وتدل من جانب آخر على تقدم الطب فى ذاك الزمان [1]

وقد فصل طرائق التهذيب باختلاف الطباع ، ووضع بجانب كل رذيلة علاجها الخاص . وقد علمنا من ذلك أنهم كانوا يعالجون الكبر إذ ذاك بالسؤال . وهذا فيما أرى استشفاء من داء بداء ، فقد يولد السؤال أمراضا فى النفس تحتاج فى اقتلاعها الى مجاهدة وعناء . ولكن الصوفية يبيحون مالا يباح ! !

---

(١) انظر ص ٦٤ ، ٦٥ ج ٣ احياء . وص ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ من الميزان

الفصل الرابع

غاية الأخلاق

الخير هو ماتعتقد أنه خير ، والشر هو ماتعتقد انه شر . والسبيل الى هذه العقيدة هو وزن العمل بميزان العقل والشرع . ولكن ماهى الغاية من عمل الخير ؟ وما هو الغرض من تجنب الشر ؟

غاية الأخلاق — فيما يرى الغزالى — هى السعادة الأخروية وقد فصل هذا فى الفصل الأول من الميزان . ويقول فى ص ١١٧ من هذا الكتاب « إن السعادة الحقيقية هى الأخروية ، وما عداها سميت سعادة ، إما مجازاً وإما غلطا ، كالسعادة الدنيويه التى لا تعين على الآخرة . وإما صدقا ، ولكن الاسم على الأخروية أصدق ، وذلك كل مايوصل الى السعادة الأخروية ويعين عليها . فان الموصل الى الخير والسعادة ، قديسمى خيراً وسعادة (! ؟)

وهـذا يدل على أن الغزالى ليست له غاية اجتماعية : فالذى يسعف مريضاً ، أو يغيث ملهوفا ، أو يأسو جريحاً ، أو يواسى فقيراً ، لا يهمه شفاء المريض ، ولا إغاثة الملهوف ، ولا برء الجريح ، ولا سدّ حاجة الفقير ، مادامت نيته قد خلصت فى عمله ، ووثق

بجزاء الآخرة ؛ وكل سعادة ينتجها العمل الطيب فى هذه الدنيا إنما هى عنده سعادة مجازية ، وواجب المرء أن يفهمها كذلك . وله أن يعدّها سعادة نسبية ، على معنى أن مايوصل الى السعادة الأخروية قد يسمى خيراً وسعادة ! ؛ وقد نص فى ص ١٣٦ من الميزان على أن من يتجنب الفحشاء محافظة على كرامته لايسمى عفيفا ، لأنه لم يقصد بعفته وجه الله ، فكل عمله تجارة ، وترك حظ لحظ عاجله ! !

مناقشة قصيرة

ونسأل الغزالى سؤالين اثنين :

أولا — اذا أسعفت مريضاً وكان لايهمك برؤه ، لأن سعادتك ليست نتيجة لمسعاك فى هذه الدنيا ، وانما يهمك أن تصح نيتك فتثاب فى أخراك ، ألا تكون تاجراً فى غايتك الأخلاقية ؟

ثانياً — إذا تركت الزنا توفيراً لكرامتك أو لصحتك ، كيف لا تكون عفيفا ؟ ولماذا طلبت العفة ، ودعا اليها الشرع ؟

أليس ذلك لأن فيها حفظاً للصحة ، وتوفيراً للكرامة ؟ واذا كنت تتخذ العقل مقياساً للخير والشر ، فخبرنى أيجد العقل

مايحكم به على ضرر الزنا وأنه شر ، أكثر من أنه مُودٍ بالصحة ، ذاهب بالكرامة ؟

ونعود فنذكر ان الغزالى سخر ممن يرون السعادة الأخروية فى نعيم الجنة ، وما فيها من الحور والولدان ، وان نطق بذلك الكتاب ، ورأى أن سعادة الآخرة هى رضا الله . أفلا يصح لنا قياسا على هذا أن نعد الطامع فى السعادة الأخروية عند إغاثة الملهوف ، وإسعاف الجريح ، ينافى ما تسمو اليه الأخلاق ، وأن واجب الرجل الخيّر أن يرى سعادته فى سعادة من أغاثه وواساه ، لا أن يلقى جزاءه على ذلك فى الآخرة ، وإن لم تثمر أعماله فى الأولى ؟

ولا يفوتنا أن نقرر أن فهم الغزالى للغاية الأخلاقية على هذا النحو جعله يخطئ فى فهم كثير من أسرار الشريعة ، ففريضة الحج مثلا يحسبها الغزالى نوعا من الرياضة الروحية ، فتراه يملأ باب الحج من كتاب الإحياء بالأدعية والأوراد ، حتى لتجد لكل خطوة يخطوها الحاج دعاء خاصا بها ، وحتى لتحسبه غفل عن قوله تعالى (ليشهدوا منافع لهم) اذ تراه يستكثر أن يحج المرء مثلا لينتفع بموسم التجارة !

ونظرة صغيرة الى حرص الشريعة على وحدة المسلمين ،

تربنا السر فى فرض الحج على من استطاع اليه سبيلا ؛ فالتجارة التى تنبه اليها الغزالى ثم استنكرها ، ليست شيئاً بجانب ما يستفيده المسلمون حين يتلاقى حُجاجهم ، وينفضُ كل منهم أخبار قومه ليعرفوا ما يحيط بهم من المشاكل الدولية ، وليستعدوا لدرء ما قد يحيط ببعض ثغورهم من خطر . ولكن الغزالى يرى العمل كله فى العبادة المجردة ، ويرى الجزاء أيضاً عبادة مجردة ، وكثيراً ما نص الصوفية على أن لذائذ الجنة ليست مادية ، ولكنها تسبيح وتقديس وتهليل ؟!

الفصل الخامس

هل تورث الأخلاق ؟

قرر الغزالى حين تكلم فى التربية أن قلب الطفل « جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة . وهو قابل لكل ما ينقش عليه ، ومائل إلى كل ما يمال به اليه . فان عُوِّد الخير وعلمه نشأ عليه ، وسعد فى الدنيا والآخرة . وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك » ص ٧٧ ج ٣

وهذا يدل على أن الغزالى يرى أن الفطرة الإنسانيه قابلة لكل شئ ، وأنه ليس لها قبل التربية أى لون . فالخير إذن يكتسب

بالتربية . والشر يكتسب بالتربية . وليس للانسان بفطرته ميل خاص : لا الى الشر ، ولا إلى الخير . وإنما يسعد أو يشقى بما يقدم إليه أبواه ومعلموه

ويؤيد هذا قوله فى تهذيب الأخلاق « وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال ، وإنما تعترى المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال ، فكذلك كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة ، وانما أبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه : أى بالاعتياد والتعليم تكتسب الرذائل . وكما أن البدن فى الابتداء لا يخلق كاملا ، وانما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية والغذاء ، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال ، وانما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم » ص ٦٤ ج ٣

ولكنا نجد الغزالى يقرر فى ص ١٢٧ من الميزان ، أن النسب الدينى أمارة الديانة وحسن الخلق ، لأن العرق نزّاع . ونجده كذلك يحض فى تربية الطفل على أن تكون المرضع امرأة صالحة متديّنة تأكل الحلال « فان اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه ، فإذا وقع عليه نشوء الصبى انعجنت طينته من الخبث ، فيميل طبعه الى ما يناسب الخبائث » ص ٧٧ ج ٣

وهذا صريح فى الحكم بوراثة الأخلاق ، إذ لا يمكن أن تعتبر الرضاعة نوعاً من الأدب والتدريب ، إذ كانت تسبق

الادراك والتمييز . يضاف إلى هذا أنه يقرر أن الطفل قد يشاهد عليه الميل إلى الحياء ، وأنه يجب استغلال هذه الغريزة فيه . ومن الواضح أنه لو كانت الفِطَر جميعاً خالصة من كل الميول ، لكان واجباً أن يغرس الحياء فى الطفل بالتربية والرياضة ، لا أن ينمّى ، إذ لا ينمّى غير الموجود

ومما تقدم نرى للغزالى رأيين مختلفين فى وراثة الاخلاق . فهو حين يقرر أن قلب الطفل جوهرة ساذجة خالية من كل نقش ، وقابلة لكل صورة ، يحكم بأن الأخلاق لا تورث . وحين يدعو إلى أن لا ترضع الطفل امرأة غير متدينة يحكم بأنها تورث ؛ فهل يمكن رفع ما بين هذين الأمرين من ظاهر الخلاف ؟

تحرير هذا البحث

الواقع أن الغزالى لم يعن بهذا البحث ، لذلك كان كلامه فيه متناقضاً وغير محدود . ولو أنه عنى به عناية خاصة لبيَّن لنا أن الأخلاق تورث ، وأن هذه الوراثة لا تمنع من قبول الطفل لكل صورة . فالفطرة البشرية صالحة لكل غرس ، لأن الأخلاق التى يرثها الطفل من أبويه تولد معه ضعيفة ميسورة الاقتلاع ، بل الكهول يقدرون على استئصال رذائلهم بالرياضة والمجاهدة ،

والطباع التى يرثها المرء من أبويه لا تعاوده إلا عند خمود مزاياه التى كسبها بنصح أساتذته، أو تأثير بيئة صالحة ساقته إليها الأقدار

اذن لا تناقض فى كلام الغزالى إلا من حيث الظاهر. فهو يقول بوراثة الأخلاق، فى ثنايا آرائه المبعثرة هنا وهناك، وإن كان يجعل للتربية السلطان الأكبر فى تكوين النفوس

الباب السابع

فى الفضائل

نتكلم فى هذا الباب عن تحديد الفضيلة، وبيان أمهات الفضائل وما لها من الفروع، ثم نذكر طائفة من الفضائل التى عنى بدرسها الغزالى: كالصدق، والصبر، والتوكل، والخمول، وما إلى ذلك مما تدور عليه حياة الافراد، وينبنى عليه الاجتماع، ليرى القارئ مايسمو إليه فى تصوّر المثل الاعلى للحياة

تحديد الفضيلة

لا يفرق الغزالى بين كلمة فضيلة، وكلمة خُلق، فهما عنده عبارة عن هيئة النفس، وصورتها الباطنة

وأساس الفضيلة فيما يرى يرجع بعضه إلى ما أخذ عن ارسطو وبعضه إلى ما أخذ عن أفلاطون. فهو يأخذ عن أرسطو نظرية (التوسط) التى يسميها الاعتدال، فقوة الغضب مثلا إن مالت عن الاعتدال، إلى طرف الزيادة، سميت تهوراً؛ وإن مالت إلى الضعف سميت جبناً، فأما إن ظلت وسطاً بين الزيادة والنقصان فهى الشجاعة. فالمحمود هو الوسط، وهو الفضيلة، والطرفان رذيلتان، كما يقول

ولا يجمد الغزالى على هذه النظرية حتى يعترض عليه بأن من الفضائل مالا وسط له ، بل يقرر أن العدل ليس له طرفان : زيادة ونقص ، بل له ضد واحد ، ومقابل واحد: هو الجور

ويأخذ عن أفلاطون نظرية المماثلة ، أى مشابهة الله ، فان الله فيما يرى أفلاطون : هو الوحدة التى تجتمع فيها وتتصالح جميع كمالات المخلوقات . والرجل الفاضل عند أفلاطون هو الذى ينظر إلى الله بلا انقطاع كما ينظر الفنان إلى الأنموذج . والغزالى يقرر أن المرء يقرب من الله بقدر مايقرب من رسول الله. ومعنى ذلك أن الرسول جمع مكارم الأخلاق ، وقد حضنا على أن نتخلق بأخلاق الله ، ماعدا الكبرياء . فمشابهة الرسول واحتذاؤه عند الغزالى تماثل تماماً مشابهة الله عند أفلاطون

وأخذ أيضاً عن أفلاطون نظرية التوافق L,harmonie ويسميها العدل . والتوافق عند أفلاطون هو تناسب القوى والملكات لتكمل فى المرء جوانبه الخلقية . وإليك مايقول الغزالى فيما يشابه هذا المعنى « وكما أن حسن الصورة الظاهرة لايتم مطلقا بحسن العينين دون الأنف والفم والخد ، بل لابد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر ، فكذلك فى الباطن أربعة أركان ، لابد من الحسن فى جميعها حتى يتم حسن الخلق . فاذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق ، وهى : قوة العلم ، وقوة الغضب ، وقوة

الشهوة . وقوة العدل بين هـذه القوى الثلاث . أما قوة العلم فحسنها وصلاحها فى أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب فى الأقوال ، وبين الحق والباطل فى الاعتقادات ، وبين الجميل والقبيح فى الأفعال . فاذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة ، والحكمة رأس الأخلاق الحسنة . وأما قوة الغضب فحسنها فى أن يصير انقباضها وانبساطها فى حدما تقتضيه الحكمة . وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها فى أن تكون تحت إشارة الحكمة ، أعنى اشارة العقل والشرع »

ويجب أن نتنبه إلى هذه الكلمة الأخيرة ، وهي (اشارة العقل والشرع) فان الغزالى يدمج فيها التوافق والمماثلة معا ؛ أما المماثلة فهى فى لفظ الشرع ، وقد وضع لهذا أخلاق الرسول ممثلة فى القرآن . وأما التوافق فهو فى لفظ العقل ، إذ يرجع كل الملكات إلى طاعته . وانظر قوله « فالعقل مثاله مثال الناصح المشير وقوة العدل هى القدرة ، ومثالها مثال المنفذ الممضى . والغضب هو الذى تنفذ فيه الاشارة ، ومثاله مثال كلب الصيد فانه يحتاج إلى أن يؤدب حتى يكون استرساله وتوقفه بحسب الاشارة »

والأمر كذلك فى قوة العلم وقوة الشهوة . وقد نص فى الميزان على أن العدل عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب واستشهد بالقول المأثور : بالعدل قامت الارض والسموات . وهذا الترتيب الواجب خاضع للعقل بالطبع ، وهـذا مايراد بنظرية التوافق

أمهات الفضائل

أصول الفضائل فيما يرى الغزالى أربعة : الحكمة والشجاعة والعفة والعدل . وقد نص على أنه يعنى بالحكمة حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ فى جميع الأحوال الاختيارية . ويعنى بالعدل حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة . ويعنى بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل فى إقدامها وإحجامها . ويعنى بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع

ولهذه الأصول فروع ، كما يرى الغزالى . فمن اعتدال قوة العقل يحصل : حسن التدبير ، وجودة الذهن ، وثقابة الرأى ، واصابة الظن ، والتفطن لدقائق الاعمال ، وخفايا آفات النفوس

وأما خلق الشجاعة فيصدر عنه : الكرم ، والنجدة ، والشهامة ، وكسر النفس ، والاحتمال ، والحلم ، والثبات ، وكظم الغيظ ، والتودد .

وأما خلق العفة فيصدر عنه : السخاء ، والحياء ، والصبر ، والمسامحة ، والقناعة ، والورع ، واللطافة ، والمساعدة ، والظرف ، وقلة الطمع

وقد نص فى الميزان على أن الحكمة فضيلة القوة العقلية ، والشجاعة فضيلة القوة الغضبية ، والعفة فضيلة القوة الشهوانية، والعدل عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب (فليس جزءاً من الفضائل ، بل هو عبارة عن جملة الفضائل [١])

وقد لحظ الغزالى أن فى هذه الفروع شيئاً من الغموض ، فكتب فى شرحها ثلاثة فصول مطولة فى الميزان ، وبيّن معها كذلك ما ينشأ من الافراط والتفريط ، من أنواع الرذائل ، وسنرجع اليها فى غير هذا الباب

الفضائل السلبية

فى مقدورنا أن نقسم الفضائل الى إيجابية وسلبية : فالأمل فضيلة إيجابية ، لأنه يحمل صاحبه على العمل فى سبيل الحياة . والزهد فضيلة سلبية ، لأنه يرضى صاحبه بما قد يكون عليه من سوء الحال

وبعد أن نفهم هذا ننظر فى الفضائل التى عُني بدرسها الغزالى ، فنجدها فى الأغلب فضائل سلبية : من ذلك فضيلة الفقر ، وفضيلة الزهد ، وفضيلة التوكل ، وفضيلة الخوف ، وفضيلة الخمول ، وفضيلة التواضع ، وفضيلة الجوع

(١) ص ٩٠

ولم يُعْنَ الغزالى بشرح الفضائل الايجابيـة : كالشجاعة ، والإقدام ، والحرص ، وما الى ذلك ممـا يحَمل المرء على حفظ ما يملك ، والسعى لنيل ما لايجد . فانه لايكفى أن يسـلم الرجل من الآفات النفسية ، بل يجب أن يزوّد بكل مقوّمات الحياة . وخير للمرء أن يوصم برذائل القوة من أن يتحلى بفضائل الضعف . فان الضعف شر كله ، ولكن أكثر الناس لايفقهون

الفضائل الفردية

ويمكننا أن نقسم الفضائل الى فردية واجتماعيـة . فالقناعة فضيلة فردية ، لأنهـا تخص صاحبها بالذات . والأمانة فضيلة اجتماعية ، لأن المرء يحتاج اليها حين يعامل الناس

والغزالى يُعنى فى الأغلب بالفضائل الفردية ، حتى لتحسبه يكتب مؤلفاته لأفراديعيشون فى عزلةوانفراد . فلو أنك أردت أن تدخل فى عالم السكون، لوجدت لدى الغزالى من آداب الوحدة والعُزلة مايقنعك ويرضيك . ولكنك لو أردت أن تدخل فى عالم السياسة ، لما وجدت لديه فكرة واحدة يمكن أن تكون نبراساً يهتدى به الساسة من الوزراء والسفراء .

درجات الأخلاق

وبعد معرفة أمهات الفضائل وما لهـا من الفروع ، يخطر بالبال هذا السؤال : هل يرى الغزالى أن فى مقدور المرء أن يصل الى أعلى درجات الأخلاق ؟

ونجيب بأنه يرى ذلك فى مقدور المرء ، وانظر قوله

« وكل من جمع كمال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكا مطاعا يرجع الخلق كلهم اليه ، ويقتدون به فى جميع الأفعال . ومن انفك عن هذه الجملة كلها واتصف بأضدادها استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد »

والدرجة العليا عنده هى درجة النبوة ، والصوفية فيما يرى يقربون من هـذه الدرجة ، واليك ما يقول عنهم فى كتابه المنقذ من الضلال :

« لو جمعوا عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئاً من سيرتهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا اليه سبيلا : فان جميع حركاتهم وسكناتهم ، فى ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به »

وأظن أننا هدمنا هذا الحكم من أساسه بما أسلفنا من نقد أحوال الصوفية ، فان ما استحسن الغزالى من أحوالهم لا يمكن

أن يكون مقتبساً من نورمشكاة النبوة ، وهل كانت النبوة ياهذا وساوس وأضاليل ؟ تعالت النبوة عما تصفون !

أين مقياس العقل والشرع ؟ هاته ، هاته : فهو وحده فصل الخطاب !

الفصل الأول

فضيلة الصدق

ابتدأ الغزالى الكلام على هذه الفضيلة بقوله تعالى (رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه) وبقوله عليه السلام (ان الصدق يهدى الى البر ، والبر يهدى الى الجنة ، وان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صِدّيقا . وان الكذب يهدى الى الفجور ، والفجور يهدى الى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا) ثم قال : ويكفى فى فضيلة الصدق أن الله تعالى وصف الأنبياء به فى معرض المدح والثناء فقال : واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صِدّيقاً نبياً . وقال : واذكر فى الكتاب اسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً . قال : واذكر فى الكتاب إدريس انه كان صديقاً نبياً .

مراتب الصدق

للصدق فيما يرى الغزالى ستة معانٍ : صدق فى القول ، وصدق فى النية والارادة ، وصدق فى العزم ، وصدق فى الوفاء بالعزم ، وصدق فى العمل ، وصدق فى تحقيق مقامات الدين . فمن اتصف بالصدق فى جميع ذلك فهو صدّيق ، ومن صدق فى شىء فهو صادق بالإضافة الى مافيه صدقه

الاول صدق القول . وهو أشهر أنواع الصدق . ولا يجوز العدول عنه إلا لمصلحة . كتأديب الصبيان والنساء ومن يجرى مجراهم . وفى الحذر من الظلمة ، وفى قتال الأعداء ، والاحتراز من اطلاعهم على أسرار الملك . قال الغزالى « فمن اضطر الى شىء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه لله فيما يأمره الحق به ، ويقتضيه الدين . فاذا نطق به فهو صادق ، وإن كان كلامه مفهما غير ماهو عليه . لأن الصدق ما أريد لذاته ، بل للدلالة على الحق والدعاء اليه . فلا ينظر الى صورته ، بل الى معناه . نعم فى مثل هذا الموضع ينبغى أن يعدل الى المعاريض ما وجد اليها سبيلا . فقد كان رسول الله اذا توجه الى سفر ورّي بغيره . كيلا ينتهى الخبر الى الأعداء فيقصد . وليس هذا من الكذب فى شىء . قال رسول الله : ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً ونمى خيراً . ورخص فى النطق على وفق المصلحة فى ثلاثة مواضع : من أصلح بين اثنين . ومن كان له زوجتان . ومن كان فى مصالح

الحرب . والصدق ههنا يتحول الى النية ، فلا يراعى فيه إلا صدق النية وارادة الخير »

الثانى — صدق النية والارادة ، ويرجع ذلك الى الاخلاص وهو أن لايكون له باعث فى الحركات والسكنات الا الله

الثالث — صدق العزم . فان الانسان قد يُقدّم العزم على العمل ، فيقول : إن رزقنى الله مالا تصدقت بجميعه ، أو بشطره ، فهذه العزيمة قد يصادفها فى نفسه وهي جازمة صادقة ، وقد يكون فى عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق فى العزيمة ، فالصدق هنا عبارة عن التمام والقوة

الرابع — صدق الوفاء بالعزم ، فان النفس قد تسخو بالعزم فى الحال ، إذ لا مشقة فى الوعد والعزم ، فاذا حقت الحقائق ، وحصل التمكن ، وهاجت الشهوات ، انحلت العزيمة ، ولم يحصل الوفاء بالعزم ، وهذا يضادّ الصدق فيه

الخامس — صدق الأعمال ، وهو أن تكون أعمال المرء الظاهرة ، صورة لحالته الباطنة . بخلاف أعمال الرياء

السادس — الصدق فى مقامات الدين ، كالصدق فى الخوف والرجاء والزهد والرضى والتوكل والحب ، لأن لأمثال هذه الأمور مبادئ يطلق بظهورها الاسم ، ثم لها حقائق ، والصادق من نال تلك الحقائق . . . وفى هذا المعنى شىء من الغموض

الفصل الثانى

فضيلة الصبر

يرى سقراط أن الفضيلة أساسها العلم . فمتى علم الانسان الخير فعله ، ومتى عرف الشر تركه . ويقرب رأى الغزالى من هذا فى أساس الصبر ، إلا أنه يشترط أن تصل المعرفة الى اليقين حتى تثمر الصبر . واليك قوله فى هذا المعنى « ترك الأعمال المشتهاة عمل يثمره حال يسمى الصبر ، وهو ثبات باعث الدين الذى هو فى مقابلة باعث الشهوة . وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضادتها لأسباب السعادات فى الدنيا والآخرة . فاذا قوى يقينه ، أعنى المعرفة التى تسمى إيمانا ، وهو اليقين بكون الشهوة عدواً قاطعا لطريق الله تعالى قوى باعث الدين ، واذا قوى ثباته تمت الأفعال على خلاف ماتتقاضاه الشهوة (١) » وقال فى موطن آخر « والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين ، إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة ، والطاعة نافعة ، ولا يمكن ترك المعصية ، والمواظبة على الطاعة الا بالصبر ، وهو استعمال باعث الدين فى قهر باعث الهوى (٢) » ويذكر إميل بوارك فى كتابه cours élémentaires de philosohie ص ٣٤٣ أن العلم لا يكفى

(١) ٦٧ ج ٤ (٢) ٧٠ ج ٤

أساسا للفضيلة .فمعرفة الواجب لاتكفى للقيام به. بل لابد من حبه وارادته ارادة حرة ثابتة . وهذا التقييد يساوى مااشترط الغزالى من اليقين ، لأن المرء متى تيقن نفع شىء أحبه ، أوكاد يحبه . ويرى الدكتور منصورفهمى والاستاذعبده خير الدين أن المعرفة التى يراها سقراط أساس الفضيلة لابدأن تكون المعرفة الجازمة التى تورث الارادة ثم التنفيذ . واذن فلا اعتراض على سقراط

أسماء الصبر

ويقرر الغزالى أن الصبر تختلف أسماؤه باختلاف مايصبر المرء عنه ، فهو جماع كثير من الفضائل ، أو هو نصف الايمان . فان كان صبراً عن شهوة البطن والفرج سمى عفة . وان كان فى احتمال مكروه سمى صبراً ، وضده الجزع . وان كان فى احتمال الغنى سمى ضبط النفس ، وضده البطر . وان كان فى الحرب سمى شجاعة ، وضده الجبن . وان كان فى كظم الغيظ والغضب سمى حلما ، وضده التذمر . وان كان فى نائبة مضجرة سمى سعة الصدر وضده الضجر . وان كان فى إخفاء كلام سمى كتمان السر . وإن كان عن فضول العيش سمى زهدا ، وضده الحرص . وان كان صبراً على قدر يسير من الحُظوظ سمى قناعة ، وضده الشره

درجات الصابرين

وللانسان بالنسبة للصبر ثلاثة أحوال

الاولى — أن يقهر داعى الهوى ، فلا تبقى له قوة المنازعة ، ويتوصل الى هذه الحال بدوام الصبر

الثانية — أن تغلب دواعى الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين ، وهى أسوأ الأحوال

الثالثة — أن تكون الحرب سجالا بين الهدى والضلال

حكم الصبر

ويُقسّم الصبر باعتبار حكمه إلى فرض ونفل ومكروه ومحرم. فالصبر عن المحظورات فرض ، وعن المكروهات نفل ، والصبر على الأذى المحظور محظور ، كمن تقطع يده أو يد ولده فيسكت ويصبر ، وكمن يُقصد حريمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته ، فيصبر عن إظهار الغيرة ، ويسكت على مايجرى على أهله ، فهذا الصبر محرم . والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة فى الشرع ، كنظر الأجنبى الى امرأته

ضرورة الصبر

ويرى الغزالى أن المرء محتاج الى الصبر فى كل حال : فهو يحتاج إليه فى السراء ، كما يحتاج اليه فى الضراء . بل هو اليه فى السراء أحوج ، فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية . والصبر هنا يكون بأن يراعى المرء حقوق الله فى ماله بالإنفاق ، وفى بدنه يبذل المعونة للخلق ، وفى لسانه يبذل الصدق .

والطاعة تحتاج إلى صبر ، لأن النفس بطبعها تنفر من العبودية . وللصبر على الطاعة ثلاث أحوال ، الأولى قبل الطاعة ، وذلك تصحيح النية والإخلاص ، والصبر على شوائب الرياء ، والعزم على الإخلاص والوفاء . والثانية حالة العمل ، كى لا يفتر قبل الفراغ منه . والثالثة بعد انتهائه ، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به ، والنظر إليه بعين العُجب .

ويحتاج المرء إلى الصبر عن المعاصى ، وعلى الأخص التى صارت مألوفة بالعادة ، إذ تنضاف العادة إلى الشهوة . ثم إن كانت المعصية مما يسهل فعله كان الصبر عنها أثقل على النفس : كالصبر عن معاصى اللسان من الغيبة ، والكذب ، والمراء ، والثناء على النفس تعريضاً وتصريحاً ، والمزح المؤذى للقلوب

والصبر على أذى الناس فضيلة ، وأعظم منه الصبر على أنواع البلاء : كموت الأعزة ، وهلاك الأموال ، وزوال الصحة

ويرى الغزالى أن توجع القلب ، وبكاء العين ، لاينافى الصبر ، لأن ذلك مقتضى البشرية ، ولا يفارق الانسان إلى الموت

والذى كُفى جميع الشهوات واعتزل الناس ، لايستغنى عن الصبر على العزلة والانفراد ، ويريد الغزالى بهذا أن يؤكد احتياج المرء إلى الصبر فى جميع الأحوال والأفعال

تحصيل الصبر

ويمكن تحصيل الصبر بإضعاف باعث الشهوة ، وتقوية باعث الدين . ويضعف باعث الشهوة بتقليل مادته من حيث النوع والكثرة ، أو قطع أسبابه ، أو تسلية النفس بمباح من جنس مايشتهيه . ويقوى باعث الدين بأمرين : الأول إطماعه فى فوائد المجاهدة ، بالتفكر فى الأخبار الواردة عن الصبر وعواقبه . والثانى أن يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى حتى يمرن على جهاده ومقاومته

الفصل الثالث

فضيلة الخمول

الغزالى يسمى الخمول فضيلة ، ويخيل إلىّ أنه لافضل فيه !!
ولكن تسمية الغزالى هذه تدلنا عن شئ خاص يوضح رأيه فى الأخلاق : ذلك أنه حين دعا إلى الخمول ، لم يدع إلى التجرد من الخصائص الذاتية الى توجب ذيوع الشهرة وبعد الصيت ؛ وقد خص الشهرة المذمومة بما يأتى من طريق التكلّف . وهو لاينكر أن يشتهر المرء بعمله فى غير جلبة ولا ضوضاء

وقد نبه بلطف إلى أن حسن السمعة قد يفسد المعلمين بنوع خاص ، فقد يعوّد المعلم على كثرة الطلبة ، فيفتر نشاطه حين يقلون . وفى هذا المعنى يذكر عن أبى العاليه انه كان إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة قام . ولم ينس الغزالى أن التجمهر حول الأمراء فتنة لهم ، وذلة لتابعيهم ، فذكر فى هـذا المعنى كلمة جامعة لعمر ابن الخطاب

ويقول الغزالى : فان قلت فأى شهرة تزيد على شهرة الأنبياء والخلفاء الراشدين وأئمة العلماء ، فكيف فاتتهم فضيلة الخمول ؟ فاعلم

أن المذموم طلب الشهرة ، فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلف من العبد فليس بمذموم . نعم فيه فتنة على الضعفاء ، دون الأقوياء ، وهم كالغريق الضعيف اذا كان معه جماعة من الغرقى فالأولى به أن لا يعرفه أحد منهم ، فانهم يتعلقون به فيضعف عنهم ، فيهلك معهم . وأما القوى فالاولى أن يعرفه الغرقى ليتعلقوا به فيحييهم ويثاب على ذلك »

فالرجل الخيِّر فيما يرى الغزالى هو الذى لا يعرف غير الواجب ولا يهمه أقبل الناس عليه ، أم أعرضوا عنه ، لأنه بالواجب مشغول

الفصل الرابع

فضيلة التوكل

كتب الغزالى عن التوكل أربعا وخمسين صفحة في الاحياء وثلاث عشرة صفحة فى كتاب الأربعين ، وسبعا وعشرين صفحة فى منهاج العابدين . وهو يبالغ فى المنهاج أكثر مما يفعل فى الاربعين والاحياء ، فان كلامه فى الكتابين الأخيرين واحد ، وان اختلف فى الايجاز والإطناب ، وكثيراً ما يُحيل فى الأربعين على الاحياء

وأول ما نلاحظه أن الغزالى اهتم بهذه الفضيلة ، حتى احتاج إلى أن يعتذر عن تطويله فى كتاب المنهاج ، إذ كان

التطويل يخالف شرط ذلك الكتاب . وهذا الاهتمام نفسه يوضح لنا جانباً من أهم الجوانب فى فهمه للحياة

ونقرر منذ الآن أن ما كتبه عن التوكل صريح فى الدعوة إلى الرهبنة ، وقطع العلائق مع الناس ، والتدرج على احتمال الظمأ والجوع ، والاقتناع بأن الموت من جملة الارزاق !

ونحن نعلم أن العلماء يجب أن يضربوا الامثال بأنفسهم للناس كما فعل عمر حين خرج بعد الخلافة يتجر فى الأسواق ، ولكن الغزالى يقول « فالاهتمام[1] بالرزق قبيح بذوى الدين ، وهو بالعلماء أقبح ، لأن شرطهم القناعة . والعالم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة إن كانوا معه ، إلا إذا أراد أن لا يأخذ من أيدى الناس ويأكل من كسبه ، فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذى سلوكه بظاهر العلم والعمل ، ولم يكن له سير بالباطن ، فان الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن ، فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ من يد من يتقرب الى الله تعالى بما يعطيه أولى ، فانه تفرغ لله عز وجل ، وإعانة للمعطى على نيل الثواب » ص٢٨٦ ج ٤

(١) ناقشنى الاستاذ محمد بك جاد المولى يوم الامتحان فيما أخذته على الغزالى من تقبيحه الاهتمام بطلب الرزق ، وهو يرى أن « الاهتمام » هو القبيح ، فأما طلب الرزق فلا قبح فيه . ولكن يلاحظ أن الغزالى قابل الاهتمام بالقناعة ، والقناعة فى طلب الرزق ليست فضيلة ، بل الفضيلة هى الاهتمام بالرزق . ولازلت أرى أنه لامعنى لأن يكون الاهتمام بالرزق قبيحا بذوى الدين حتى يكون بالعلماء أقبح . ولكن عذر الغزالى أنه ينظر الى هذه المسألة نظرة صوفية كما قال فضيلة الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار

ولو أنه دعا الحكومات إلى الأخذ بيد العلماء ، وإغنائهم عن السعى إلى الرزق ، لتنحصر جهودهم فى نشر العلم ، لكان له قسط من الصواب . أما زعمه أن الكسب يمنع من السير بالفكر الباطن ، وأن الأولى للعالم أن يكتفى بما يعطيه الناس ليعينهم على نيل الثواب ، فهو رأى يهوى بصاحبه الى الحضيض ، ولا يتناسب مع مكانة العلماء

كراهة السؤال

ومع أن الغزالى يبيح للعالم السؤال ليعين المعطى على نيل الثواب ، فانا نجده فى مكان آخر يقرر أن السؤال حرام فى الأصل وإنما يباح لضرورة ، أو حاجة قريبة من الضرورة ، لأن فى السؤال إظهار الشكوى من الله بإظهار الفقر ، ولأن السائل يذل نفسه بسؤاله ، وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله ، ولأنه يؤذى المسئول : فقد لا تسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب . فإن بذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ

ويمكن الحكم بأن الغزالى يحتاط أبلغ احتياط فى إباحة السؤال ، ولكن يبقى أنه من إهانة العلم والدين أن يُقبل المرء بكليته على العبادة أملاً فى أن يطعمه سواه ، فانه لا يعقل أن

تكون نوافل العبادات مما يترك فى سبيله طلب المعاش ، حتى يباح لأجلها السؤال [١]

حكم الكسب

والغزالى مع هذا لا يرى الكسب منافياً للتوكل فى كل حال ، فمن الخطأ فيما يرى أن « يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن ، وترك التدبير بالقلب ، والسقوط على الارض كالخرقة الملقاة ، وكاللحم على الوضم ، وهذا ظن الجهال ، فان ذلك حرام فى الشرع ، والشرع قد أثنى على المتوكلين ،فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين؟ » وقد بين أن الإنسان فى سعيه إلى مقاصده إما أن يكون لجلب نافع هو مفقود عنده كالكسب ، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار ، أو لدفع ضار لم ينزل به كدفع

---

(١) قامت ضجة يوم الامتحان بسبب هذا الحكم ، وأنكر فضيلة الاستاذ الشيخ عبد المجيد اللبان أن يكون الغزالى قال شيئاً من ذلك . وهذا يدل على أن الفطرة الخالصة تستنكر السؤال.

وقد كتب فضيلة الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار بهامش النسخة التى كانت عنده ما يأتى : كانت قدم المعرى أرسخ فى الزهد من قدم الغزالي . فقد كان متحققا بالزهد عملا واشتهر ذلك عنه اشتهارا لاشبهة فيه . وقد قال :

الا مر لله قد أصبحت فى دعة ... أرضى القليل ولا اهتم للقوت
وشاهد خالق أن الصلاة له ... أعز عندى من درى وياقوتى

ومع هذا فرأيه فى الزهد خير من رأى الغزالى ، لأنه كان مع إعجابه بالقناعة والزهد يعيب على القانع الزاهد ان يكون عيشه من فضلات أهل اليسار . ويقول

ويعجبنى دأب الذين ترهبوا ... سوى اكلهم كد النفوس الشحائح

الصائل والسارق ، أو لإزالة ضار قد نزل به : كالتداوى من المرض .

والنافع باعتبار الأسباب التى يجلب بها ثلاث درجات : مقطوع به . ومظنون ظناً يوثق به ، وموهوم وهما لاتثق النفس به ثقة تامة ، ولا تطمئن إليه

والأولى كالأسباب التى ارتبطت بها المسببات بتقدير الله ومشيئته ارتباطاً مطرداً لا يختلف ، كمن يرى الطعام موضوعا بين يديه وهو جائع ، ثم لا يمد إليه يده ، لأنه يرى السعى إلى تناوله ومضغه تفويتاً للتوكل ، وهـذا فيما يرى الغزالى جنون « فانك إن انتظرت أن يخلق الله فيك شبعا دون الخبز ، أو يخلق فى الخبز حركة اليك ، أو يسخر ملكا ليمضغه لك ويوصله الى معدتك ، فقد جهلت سنة الله . وكذلك لولم تزرع الأرض وطمعت فى أن يخلق الله نباتا من غير بذر ، أو تلد زوجتك من غير وقاع ، فكل ذلك جنون »

والتوكل فى هـذا المقام — كما نص الغزالى — لا يكون بالعمل ، بل بالعلم ، ومعنى ذلك أنه لا يجوز لك ترك الأسباب ، وإنما تعلم أن الله هو مسبب الأسباب

والثانية الأسباب التى ليست مُتيقَّنة ، ولكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها ، وكان احتمال حصولهـا دونها بعيداً ، كمن يترك الأمصار والقوافل ، ويسافر فى البوادى التى يندر

أن يطرقها الناس ، ويكون سفره من غير زاد ، فهو ليس شرطا فى التوكل ، بل استصحاب الزاد سنة الأولين ، ولا يزول التوكل به

وقد أسرف الغزالى حين تحدث عن هذا الموقف فى المنهاج ، وانظر ماذا يقول : «فإن قلت: فهل تدخل البادية بلا زاد ؟ فأقول : إن كان لك قوة قلب بالله تعالى وثقة بالغة بوعد الله سبحانه ، فادخل ، وإلا كن كالعوام بعلائقهم » ص ٨٢

ولو أننا رجعنا الى ما وضعه من آداب المسافر لعلمنا أنه احتاط هناك ، فحث المسافر على أن يأخذ حاجته من الزاد ، ثم أوصاه بأن يأخذ قدراً يوسع به على رفقائه ، فكيف يصبح المسافر بزاده فى البادية من العوام ؟ ومن عسى أن يكون هؤلاء العوام المؤدبون ؟

وقد توقع الغزالى أن يسأل عن حمل رسول الله وأصحابه للزاد ، ولكنه تفضل فأجاب بأن ذلك مباح غير حرام ! ثم توقع أن يسأل : هل ترك الزاد أولى أم أخذه ، لمن قوى يقينه ؟ وأجاب فى المنهاج بأن الترك أفضل ، وأنا لا أعلم لهذا الفضل أساساً غير التنسك الذى ينكره العقل ، ويأباه الدين !

ولم يفت الغزالى أن يذكر أن هذه المجازفة قد تكون إلقاء بالأيدى إلى التهلكة ، فأجاب بأن شرطها أولاً رياضة النفس حتى تحتمل الجوع أسبوعا أو مايقاربه ، وثانياً أن يكون المتوكل بحيث يقوى على التقوت بالحشيش ، وما يتفق من الأشياء الخسيسة ، إذ لا يخلو الأمر من أن يجد آدمياً فى بحر الأسبوع أو ينتهى الى محلة ، أو قرية ، أو إلى حشيش يجتزئ به !

وأحب أن يذكر القارئ هذه الصورة الغريبة ، فإن الغزالى يدعو إليها جمهور المسلمين !

وانظر كيف يقول : فان قلت فما قولك فى القعود فى البلد بغير كسب . أهو حرام أو مباح أو مندوب ؟ فاعلم أن ذلك ليس بحرام لان صاحب السياحة فى البادية اذا لم يكن مهلكا نفسه ، فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه حتى يكون فعله حراما . بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ، ولكن قد يتأخر عنه ، والصبر ممكن الى أن يتفق . ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لاطريق لأحد اليه ففعله ذلك حرام . وان فتح باب البيت وهو غير مشغول بعبادة ، فالكسب والخروج أولى له . ولكن ليس فعله حراما الى أن يشرف على الموت ، فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب . وان كان مشغول القلب بالله غير مشرف الى الناس ، ولا متطلع الى من يدخل من الباب فيأتيه برزقه ، بل تطلعه الى فضل الله تعالى واشتغاله بالله فهو أفضل »

وما أدرى كيف يتفق هذا مع قوله فى نفس الصفحة : فإذاً التباعد عن الأسباب كلها مراغمة للحكمة ، وجهل بسنة الله تعالى ؛ إلا أن يكون السؤال من الأسباب ، وهو سبب مَهين !

وأحب أيضاً أن يذكر القارئ هذا التناقض فى الجمع بين التوكل وبين السؤال ! ! وكيف تقوم لأمة قائمة وهى تربَّى على هذه الأخلاق ! !

ثم ما هو الفرق بين من يترك الطعام عند وجوده ، وبين من يدخل البادية بلا زاد ؛ لا فرق إلا أن الثانى قد يجد من يتصدق عليه ، أو يجد حشيشاً يقتات به ! ولو ذكر الغزالى أن اليد العليا خير من اليد السفلى ، وأن الله كرم بنى آدم وحملهم فى البر والبحر ورزقهم من الطيبات ، لما اختار لامرئ هذا الحظ الخسيس ، ولما وضع هؤلاء المشردين ، فى طبقة المتوكلين .

والدرجة الثالثة ملابسة الأسباب التى يتوهم إفضاؤها الى المسببات من غير ثقة ظاهرة ، كالذى يستقصى التدبيرات الدقيقة فى تفصيل الاكتساب ووجوهه . يقول الغزالى « وذلك يخرج بالكلية عن درجات التوكل كلها ، وهو الذى فيه الناس كلهم ، أعنى من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتساباً مباحا لمال مباح »(١)

(١) ٢٨٨ ج ٤

وإذا كان الاحتيال لكسب المباح مما ينافى التوكل ، فقد انهدم أعظم ركن فى بناء الممالك والشعوب . والغزالى يردد النفرة من الحيلة لكسب الرزق ، وقد لاحظنا ذلك عليه حين تكلم عما يجمل بالتاجر من أن لا يكون أول داخل فى السوق ولا آخر خارج منه

ونرى الحاجة ماسة إلى أن ننبه إلى أن فهم التوكل بهذه الصورة خطأ صُراح ، وليس علينا من حرج إذا رأينا الغزالى من الخاطئين ، وما نريد أن نزيد :

مقامات المتوكلين

والمتوكل مقامات ثلاث :

الأول — مقام من يترك الزاد وهو يدور فى البوادى ، وإنما كان هذا أفضل فيما يرى الغزالى لأن فيه تثبيتاً على الرضى بالموت ؛

الثانى — مقام من يقعد فى بيته أو فى مسجد ، ولكنه فى القرى والأمصار . وهذا أضعف من الأول كما يقول

الثالث — من يخرج للكسب على الوجه الذى ارتضاه حين تكلم عن آداب الكسب ، وهو أن لا يقصد به الاستكثار ،

ولم يكن اعتماده على بضاعته وكفايته ، وعجيب والله أن يكون الكسب أدنى درجات المتوكلين .

توكل المعيل

غير أن الغزالي يخص تلك الحالة الشديدة بالمنفرد ، وقد قدمنا أنه يرضى له الاقتناع بأن الموت من جملة الأرزاق

أما المُعيل صاحب الأولاد فإنه لا يجوز له إلا المقام الثالث، وهو توكل المكتسب ، كتوكل أبى بكر رضى الله عنه اذ خرج للمكسب «فأما دخول البرارى وترك العيال توكلا فى حقهم ، أو القعود عن الاهتمام بأمرهم توكلا فى حقهم ، فهذا حرام . وقد يفضى الى هلاكهم ، ويكون هو مؤاخذا بهم . بل التحقيق أنه لافرق بينه وبين عياله . فانه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة وعلى الاعتداد بالموت على الجوع رزقا وغنيمة فى الآخرة فله أن يتوكل فى حقهم » وهذه مجازفة من الغزالى : إذ يرضى أن يعوّد الرجل أبناءه على الجوع ، وأن يمرنهم على الاعتداد بالموت جوعاً فى سبيل الآخرة ، وقد يكونون لم يبلغوا سن التكليف

يقول الغزالى : وقد انكشف لك من هذا ان التوكل ليس انقطاعا عن الأسباب ، بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدة ، والرضى بالموت إن تأخر الرزق نادراً ، وملازمة البلاد والأمصار وملازمة البوادى التى لا تخلو عن الحشيش ومايجرى مجراه . فهذه كلها أسباب البقاء

ولكن مع نوع من الأذى... الخ » ؟

ونكرر مالاحظناه من أن فهم التوكل بهذه الصورة خطأ مبين ، فانه يجر القادر على الطلب الى الرضى بالسؤال ، وانتظار المصادفات ، والترحيب بالموت ، مع أن قطع أسبابه من أول ما يعنى به بُناة الأخلاق

الادخار

ورأى الغزالى فى الادخار عجيب ، إذ أفضل الحالات عنده لمن حصل على مال بإرث أو كسب أو أى سبب من الأسباب أن يأخذ قدر حاجته فى الوقت : فيأكل إن كان جائعاً ، ويلبس إن كان عارياً ، ويشترى مسكناً مختصراً إن كان محتاجاً ، ويفرّق الباقى فى الحال . ولا يأخذ ، ولا يدخر ، إلا بالقدر الذى يدرك به من يستحقه ويحتاج إليه ، فيدخره على هذه النية ؛

والذى يدخر لسنة ليس من المتوكلين أصلاً كما يقول ؛

والذى يدخر لأربعين يوماً فما دونها يحرم من المقام المحمود الموعود فى الآخرة للمتوكلين

ونحب أن يتأمل القارئ هذا الرأى فى الاقتصاد ، فقد أكثر المؤرخون من لوم العرب على اهمال هذا العلم ، وعدوا الجهل به سبباً لسقوط المملكة العربية ، مع أنها كانت تسيطر

على أخصب بلاد العالم كمصر والعراق . ولكن كيف يحترم هذا العلم فى أمة يقول إمام الأئمة فيها: إن ادخار المال لأربعين يوما يحرم المرء من المقام المحمود ! ؟

وقد تفضل الغزالى فأباح للمعيل أن يدخر قوت عياله لسنة ! !

وتفضل كذلك فأجاز للرجل أن يدخر الكوز وأثاث البيت ! !

والفرق عنده بين الكوز وغيره ، أن سنة الله لم تجر بتكرر الأوانى مع الحاجة إليها فى كل وقت ، ولكن جرت سنته بتكرر الأرزاق فى كل سنة . وكان عليه أن يعرف أن الرزق انما يتجدد فى كل سنة ، لمن يملك من المزارع والمتاجر ما يتجدد ريعه فى كل سنة . فياعجبا كيف يجيز التوكل إتلاف رأس المال !

آداب المتوكلين

وضع الغزالى الآداب الآتيه للمتوكل حين يخرج من بيته :

(١) ان يغلق الباب ، ولا يستقصى فى أسباب الحفظ ، كالتماسه من الجيران الحفظ مع الغلق ، وكجمعه أغلاقا كثيرة !

(٢) أن لا يترك فى البيت متاعا يحرص عليه السراق !

(٣) ما يضطر الى تركه فى البيت ، ينبغى أن ينوى عند خروجه الرضى بما يقضى الله فيه من تسليط سارق عليه ؛

(٤) إذا عاد فوجد المال مسروقاً فينبغى أن لا يحزن ، بل يفرح إذا أمكنه ؛

(٥) أن لا يدعو على السارق الذى ظلمه بالأخذ . فان فعل بطل توكله ، ودل على تأسفه على مافات ؛

(٦) أن يغتم لأجل السارق وعصيانه وتعرضه لعذاب الله ، ويشكر الله إذ جعله مظلوما ولم يجعله ظالما ؛

وما أدرى ما الذى أنسى الغزالى أن يحض المتوكل على أن يترك باب البيت مفتوحا ، وأن يعلق عليه لوحة مكتوبا فيها بخط واضح جميل : من أراد أن يأخذ شيئاً من هذا البيت فهو مغفور الذنوب ، بل مجزىٌّ بما مكّن صاحبه من صنع المعروف ؟!

وليس من التوكل بالطبع أن يتعقب المرء الجناة ، لينالوا على يد الوالى جزاء ماقدمت أيديهم . بل التوكل هو أن لا يبالغ المرء فى أسباب الحفظ ، وأن يوطن النفس على مايسرق من من متاعه ، وأن لا يحزن بل يفرح حين يسرق ، وأن يغتم لأن هذا السارق المسكين عصى الله وتعرض لعذابه ، وأن يشكر الله على أن جعله من المظلومين ، ولم يجعله من الظالمين .

وأظرف ما فى هذا الباب دعوة الغزالى الى أن يجعل الرجل ما سرق منه ذخيرة له فى الآخرة ، وإن أعيد إليه فالأولى أن لا يقبله !

توكل الخائف

يقرر الغزالى أن الضرر قد يعرّض للخوف فى النفس والمال . أما فى النفس فكالنوم فى الأرض المسبعة ، أو فى مجارى السيل من الوادى ، أو تحت الجدار المائل ، أو السقف المنكسر ، وكل ذلك فيما يرى منهى عنه ، لأنه تعريض للهلاك بلا فائدة

وجملة القول أن أسباب الخوف إما مقطوع بها أو مظنونة أو موهومة ، وترك الموهوم هو شرط التوكل ، فالمبالغة فى الاحتياط تبعد المرء عن مقام المتوكلين (؟)

وهنا لا نرى بأساً من تحقيق مسألة أخطأ فيها الغزالى ، فقد عدّ من الأسباب الموهومة الكىّ ، وذكر أن رسول الله لم يصف المتوكلين إلا بترك الكى والرُّقية والطيرَة . ولو صح رأيه فيما استشهد به ، لكان للرقية والطيرة فائدة موهومة ، مع أنه يستحيل أن يرى رسول الله قيمة لهذه الأسباب ، وإنما يريد أن يضيف المكْتوين والمتطيّرين والراقين الى جملة الموسوسين

ولو كان للكى فائدة موهومة لما عد تركه من التوكل ، وهو

يتعلق مباشرة بالصحة . وإنما نهى عنه الرسول لأن ضره كثير، ومحقق، ونفعه قليل بل موهوم . وفوق هذا يجب أن نلاحظ أن الأسباب الموهومة لم يكن تركها شرطاً فى التوكل إلا لأن فى تركها تعويداً على المخاطرة، وهى من صفات الأحياء، فاذا اختلفت الظروف، وكانت رعاية الأسباب الموهومة نوعا من الحيطة، فانى لا أفهم كيف تحرم المرء من المقام المحمود!

واذا خاف الإنسان على ماله، فله أن يغلق بيته، وأن يعقل بعيره، لأن هذه أسباب عرفت بسنة الله إما قطعاً وإما ظناً، فلا ينقض بها التوكل، كما لا ينقض بدفع العقارب والحيات والسباع، لأن الصبر على هذه جنون

توكل المريض

يقسم الغزالى الأسباب المزيلة للمرض إلى مقطوع به، ومظنون، وموهوم، ويقرر أن ترك المقطوع به ليس من التوكل بل تركه حرام عند خوف الموت . وكان عليه أن يتنبه إلى أن المرض متى وجد، فالموت مخوف فى كل حال، لأن للمرض طفولة وحداثة وفتوة، فان ترك وهو ناشئ أمسى وهو قوى متين، بل يجب حرب جراثيم المرض، لأنها تبيض وتفرخ، ثم تصبح أعداء ألداء . فأما الموهوم فشرط التوكل تركه . وقد بينا ما تختلف

عليه هذه الحال . وأما المظنون كالفصد والحجامة وشرب الدواء المسهل ، وما إلى ذلك من الأسباب الظاهرة عند الأطباء ، فليس تركه من التوكل ، كما أن تركه ليس محظوراً كالمقطوع به ، بل قد يكون أفضل من فعله فى بعض الأحوال وفى بعض الأشخاص . وهذا مالا نوافق عليه الغزالى ، لأنا لا نفهم كيف يكون الحرص على الصحة مما يفضل اغفاله فى بعض الأحيان

وإلى القارئ الأحوال التى يحمد فيها عنده ترك التداوى :

(١) أى يكون المريض من المكاشفين ، وقد كوشف بأن أجله انتهى ، وأن الدواء لا ينفعه (!)

(٢) أن يكون المريض مشغولا بحاله وبخوف عاقبته

(٣) أن تكون العلة مزمنة ، والدواء الذى يؤمر به موهوم النفع بالنسبة لعلته

(٤) أن يقصد بترك التداوى استبقاء المرض لينال أجر الصابرين ، أو ليمرن نفسه على الصبر الجميل !

(٥) أن يكون قد سبق له كثير من الذنوب ، ويرى المرض تكفيراً إذا طال ، وكان قد عجز عن التكفير !

(٦) أن يستشعر فى نفسه مبادئ البطر والطغيان بطول مدة الصحة ، فيترك التداوى خوفاً من أن يعاجله زوال المرض ،

فتعاوده الغفلة والبطر والطغيان !

ويحسن أن نلفت النظر الى أن هـذه أسباب ضعيفة ، لا تقتضى ترك الدواء ، وهى فى الوقت نفسه تدل على مبلغ حرص الغزالى على نزعته الصوفية ، فمن الواضح أن إيثار المرض فى سبيل الفرار من آفات العافية ، إنما هو عمل سلبى قليل الغناء . وماذا يضرنا لو حاربنا المرض ، ثم رجعنا بعد ذلك إلى حرب ما للصحة من الآفات ، لنخرج رجالا صحاح الجوارح والقلوب ؟

والغزالى فوق ما سلف يفضل كتمان المرض ، ولا يجيز اظهاره إلا فى الأحوال الآتية :

(١) أن يكون الغرض التداوى ، فيذكر المرض للطبيب ، لا فى معرض الشكاية ، بل فى معرض الحكاية

(٢) أن يوصف المرض لمن يرجى منه الدعوة الى الصبر

(٣) أن يقصد باظهار المرض اظهار العجز والافتقار الى الله

قال الغزالى « فبهذه النيات يرخص فى ذكر المرض ، وانما يشترط ذلك لأن ذكره شكاية والشكوى من الله حرام . ويصير الاظهار شكاية بقرينة السخط واظهار الكراهة لفعل الله . فان خلا عن قرينة السخط وعن النيات التى ذكرناها فلا يوصف بالتحريم ولكن يحكم فيه بأن الأولى تركه . لأنه ربما يوهم الشكايه ، ولأنه ربما يكون فيه تصنع

ومزيد فى الوصف على الموجود من العلة . ومن ترك التداوى توكلا فلا وجه فى حقه للاظهار ، لأن الاستراحة الى الدواء أفضل من الاستراحة الى الافشاء »

وهذه الكلمة الأخيرة غاية فى الحكمة والسداد

ملاحظات ثلاث

الأولى

جاء فى ص ٢٩٢ ج ٤ إحياء مانصه « فان قلت فكيف يكون للمتوكل مال حتى يؤخذ ؟ فأقول : المتوكل لا يخلو بيته عن متاع كقصعة يأكل منها وكوز يشرب منه وإناء يتوضأ منه وجراب يحفظ به زاده ، وعصا يدفع بها عدوه ، وغير ذلك من ضرورات المعيشة من أثاث البيت . وقد يدخل فى يده مال وهو يمسكه ليجد محتاجا فيصرفه اليه فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلا لتوكله . وليس من شرط التوكل اخراج الكوز الذى يشرب منه والجراب الذى فيه زاده ، وانما ذلك فى المأكول وفى كل مال زائد على قدر الضرورة . لأن سنة الله جارية بوصول الخير الى الفقراء والمتوكلين فى زوايا المساجد . وما جرت السنة بتفريق الكيزان والأمتعة فى كل يوم وفى كل أسبوع »

وهذه الفقرة تدل واضح الدلالة على أن التوكل هذا نزعة صوفية ، وقد وضع الغزالى مقياساً لتقدير الأعمال هو العقل والشرع ، وما أحسبه يستطيع أن يثبت أن آية « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » خاصة بهذا الصنف من الناس ، بل التوكل

المأمور به فى القرآن هو الاعتماد على الله مع مباشرة الأسباب والايمان بأنه لايضيع أجر العاملين

الثانية

جاء في المنهاج ص ٨٠ ما نصه « فان قيل هل يلزم العبد طلب الرزق بحال ما ؟ فاعلم أن الرزق المضمون الذي هو الغذاء والقوام لا يمكننا طلبه إذ هو شئ من فعل الله سبحانه للعبد كالحياة والموت لا يقدر العبد على تحصيله ولا على دفعه (؟ !) « فان قيل : لكن لهذا الرزق المضمون أسباب : فهل يلزمنا طلب الأسباب ؟ قيل له لا يلزمك ، إذ لا حاجة للعبد اليه إذ الله سبحانه يفعل بسبب و بغير سبب ، فمن أين يلزمنا طلب السبب ثم ان الله تعالى ضمن لك ضمانا مطلقا من غير شرط الطلب والكسب ، قال الله تعالى « وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها » ثم كيف يصح أن يأمر العبد بطلب مالا يعرف مكانه فيطلبه ، والواحد منا لا يعرف سبب الرزق يتناوله من أين يحصل له ، فلا يصح تكليفه . فتأمل »

وقد تأملنا كثيراً ، فلم نر هذه الحجج إلا خيالاً فى خيال !

الثالثة

أراد الغزالى أن يحض على التوكل فأمر بملاحظة الجنين كيف وُصلت سرته بسرة الأم لينتهى إليه الغذاء لما كان عاجزاً عن الحركة والاضطراب ، فلما انفصل سلط الله على الأم الحب لترضعه وهى راغمة ، وأدرّ له اللبن اللطيف ، إذ كان مزاجه لايحتمل الغذاء الكثيف . وانتقل الغزالى من هذا إلى بيان أن الكبير

قد كثرت أسباب الرفق به ، فبعد أن كان المشفق واحداً هو الام أو الأب ، أصبح أهل البلد كافّةً يشفقون عليه . ثم أخذ يبين كيف ينتفع اليتيم بشفقة المسلمين ، إلى آخر ما قال

وهذه الحجة على الغزالى لاله ، فانه إذا كان الله وصل سرة الجنين بسرة أمه لضعفه عن الحركة ، وأدرّ عليه اللبن لعجزه عن المضغ ، وسلط على أمه الحب لعجزه عن السعى ، فلماذا منحهُ القوة إذن ، إذا كان لم يشأ أن يستغنى بها عن الناس ؟

فأما ماقاله من أن كل واحد من أهل البلد إذا أحس بمحتاج تألم قلبه ، ورق عليه ، وانبعثت له داعية إلى إزالة حاجته ، فهى أمنية شعرية ، وليته ذكر أن العرب هموا بترك دينهم ليخلصوا من الزكاة !

الفصل الخامس

فضيلة الاخلاص

ابتدأ الغزالي كلامه عن هــذه الفضيلة بقوله تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) ثم ذكر جملة من الاحاديث والأخبار . ثم قرر بعد ذلك أن كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ، ويميل إليه القلب ، قلّ أم كثر ، إذا تطرق إلى

العمل تكدر به صفوه ، وزال به إخلاصه . ثم بيّن أنه قلما يخلو فعل من أفعال المرء وعبادة من عباداته ، عن حظوظ وأغراض عاجلة . وأن العمل الخالص هو الذى لاباعث عليه إلا طلب القرب من الله

ومقياس الاخلاص فيما يرى الغزالى هو أن يشعر المرء بارتياح حين يجد غيره يعمل عملا كان يريد أن يقوم به . نعرف هذا من قوله :

« وأشد الخلق تعرضا لهذه الفتنة هم العلماء . فان الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء ، والفرح بالأتباع . والشيطان يُلَبِّس عليهم ذلك ويقول : غرضكم نشر دين الله ، والنضال عن الشرع الذى شرعه رسول الله . وترى الواعظ يمن على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلاطين . ويفرح بقبول الناس قوله ، وإقبالهم عليه ، وهو يدعى أنه يفرح بما يُسر له من نصرة الدين . ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظا وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه ، ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه هذا المهم بغيره . ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول : انما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس الى غيرك . إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب ، واغتمامك لفوات الثواب محمود . ولا يدرى المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الامر أفضل وأجزل ثوابا وأعود عليه فى الآخرة »

وقد انحصر الاخلاص عنده فى الأمور الدينية ، لغلبة هذه الأمور عليه ، ولو كان الغزالى من الذين باشروا الحركات العامة ،

ووقفوا على الشئون الاجتماعية ، لذكر لنا ضروباً من الاخلاص في نهوض الأفراد بأممهم . وبيّن لنا كيف يتطرق الغرض إلى الأعمال الاجتماعية ، وكيف تشقى الشعوب بأصحاب الأغراض ، فليس الاخلاص وقفاً على الصلاة والزكاة والحج والصيام ، بل الاخلاص فيما بين الرجل وبين أمته ، أوجب من الاخلاص فيما بينه وبين ربه ، لأنه حين يحرم الاخلاص فى العبادة لايضر الله شيئاً ، فان الله غنى عن العالمين . ولكنه حين يحرم الاخلاص فيما يعمل لأمته ، يُشقى بسوء غرضه ملايين من النفوس ، ثم يصبح وهو منبوذ مَهين. ولكن أكثر الناس لايعلمون !

الباب الثامن

في

نوفى الرذائل

تمهيد

لم يضع الغزالى للرذيلة تعريفاً يخصها بالذات ، وإنما هى عنده إفراط فى الفضيلة أو تفريط . وهو يرى أن الافراط فى قوة العلم ينشأ عنه المكر والحقد والخداع والدهاء ، وأن التفريط فيها يصدر عنه البله ، والغمارة ، والحمق ، والجنون . وينشأ من الافراط فى الشجاعة التهور وما إليه من الجسارة ، والتبجح ، والاستشاطة والتكبر ، والعجب ، والبذخ . ويصدر من التفريط فيها الجبن ، والهلع ، والمهانة ، وصغر النفس ، والنكول . وأما الرذائل الصادرة من الافراط أو التفريط فى العفة ، فهى : الشره ، وكلال الشهوة ، والوقاحة ، والتخنث ، والتبذير ، والتقتير ، والرياء ، والتهتك والمجانه ، والعبث والشكاسة ، والملق والحسد والشماتة الخ

وألاحظ أن كلامه فى هذا الباب غير واضح ، وقد لاحظ هو ذلك ، فأخذ يشرح أمثال الرذائل الآتية : الاستشاطة ،

الانفراك ، التخاسس ، البذالة ، الشكاسة ، الكزازة ، التحاشى ، النكول ، الغمارة ، الخ

والأمر كذلك فى الفضائل المتفرعة عن أمهات الأخلاق

وينبغى أن لا ننسى أن الغزالى يوصى دائماً بقلع الخلال الرديئة وغرس مكارم الأخلاق ، ويسمى هذا بالتخلية ، والتحلية ، أى إخلاء القلب من الشهوات ، ثم تحليته بكرائم النزعات

وإذ كنا بينا رأيه فى جملة من الفضائل الضرورية للأفراد ، فإنا ذاكرون كذلك رأيه فى طائفة من العيوب والرذائل الكثيرة الوجود ، ليتضح ما يتصوره من المثل الأعلى للحياة

الفصل الأول

رذيلة الغضب

الغضب قوة تتوجه عند ثورانها إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها ، وإلى التشفى والانتقام بعد وقوعها . وهو فيما يرى الغزالى ثلاث درجات : التفريط ، والإفراط ، والاعتدال

أما التفريط ففقد هذه القوة ، أو ضعفها . وهو مذموم إذ من ثمراته قلة الانفة مما يؤنف منه ، كالتعرض للحرم والزوجة

والأمة ،واحتمال الذل من الأخساء ، وصغر النفس

وأما الإفراط فهو أن تغلب هـذه الصفة حتى تخرج عن العقل والدين ، فلا تبقى للمرء بصيرة ، ولا نظر ، ولا فكرة ، ولا اختيار

وأما الاعتدال فهو المحمود ، وهو غضب ينتظر إشارة العقل والدين : فينبعث حيث تجب الحمية ، وينطفىء حيث يحسن الحلم

قال الغزالى « فمن مال غضبه الى الفتور حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة ، وخسة النفس فى احتمال الذل والضيم فى غير محله فينبغى أن يعالج نفسه حتى يقوى غضبه . ومن مال غضبه الى الافراط حتى جره الى التهور واقتحام الفواحش فينبغي أن يعالج نفسه ليغض من سورة الغضب ويقف على الوسط الحق بين الطرفين [1] »

أسبابه

وأسباب الغضب فيما يرى الغزالى ترجع إلى ثلاثة أقسام :

الأول — ماهو ضرورة فى حق الكافة كالقوت ، والملبس والمسكن ، وصحة البدن . وهذه ضرورات لايخلو الانسان من كراهة زوالها ، ومن الغيظ على من يتعرض لها

الثانى — ماليس ضروريا لأحد من الخلق كالجاه ، والمال

(١) ١٦٩ ج ٣ احياء

الكثير ، والغلمان ، والدواب . وقد صارت هذه الأشياء محبوبة بالعادة ، والجهل بمقاصد الأمور

الثالث — مايكون ضروريا فى حق بعض الناس دون البعض ، وهذا يختلف باختلاف الاشخاص

علاجه

وقد وضع الغزالى طريقة لاستئصال رذيلة الغضب ، كما وضع طريقة لتسكينه حين يثور

أما الطريقة الأولى فهى استئصال الغضب باستئصال أسبابه وإذ كانت الأسباب المهيجة له هى الزهو ، والعجب ، والمزاح ، والهزل ، والهزء ، والتعيير ، والمماراة ، والمضادة ، والغدر ، وشدة الحرص على حصول المال ، والجاه ، فينبغى للخلوص من الغضب إزالة هذه الأسباب ، وهى فى أنفسها رذائل تحتاج إلى رياضة ، ورياضتها الرجوع إلى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها ، وتنفر عن قبحها ، ثم المواظبة على مباشرة أضدادها مدة مديدة حتى تصير بالعادة مألوفة هينة على النفس . فاذا انمحت عن النفس فقد زكت وتطهرت من هذه الرذائل ، وتخلصت أيضاً من الغضب الذى يصدر منها

أما علاج الغضب بعد هيجانه فيرجع إلى العلم والعمل . والعلم ستة أمور :

(١) أن يتفكر فى الأخبار الواردة فى كظم الغيظ ، والعفو ، والحلم ، والاحتمال

(٢) أن يخوف نفسه بعقاب الله ، فيذكر أن قدرة الله عليه أعظم من قدرته على من يريد أن يمضى فيه غضبه

(٣) أن يحذر نفسه عاقبة العداوة ، والانتقام ، وتشمير العدو لمقابلته ، والسعى فى هدم أغراضه ، والشماتة بمصائبه

(٤) أن يتفكر فى قبح صورته عند الغضب ، ومشابهة الغضبان للكلب الضارى ، ومشابهة الحليم للأنبياء

(٥) أن يتفكر فى السبب الذى يدعوه الى الانتقام ، ويمنعه من كظم الغيظ

(٦) أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشئ على وفق مراد الله لا على وفق مراده

أما علاج الغضب بالعمل فهو أن تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، فان لم ينفع ذلك ، فاجلس إن كنت قائما ، واضطجع إن كنت جالساً ، واقرب من الارض التى منها خلقت ، لتعرف ذل نفسك ، فان لم ينفع ذلك فتوضأ ، أو اغتسل بالماء البارد

درء الشر بالشر

بعد أن بين الغزالى علاج الغضب ، وفضيلة الحلم ، وكظم الغيظ ، أخذ فى بيان القدر الذى يجوز الانتصار والتشفى به من الكلام . وهو على الجملة لا يجيز مقابلة الغيبة بالغيبة ، ولا مقابلة التجسس بالتجسس ، ولا السب بالسب ، وكذا سائر المعاصى . ويجيز أن ينتصر المظلوم لنفسه بالكلام فى غير تلك المنكرات ، ولكن الأفضل تركه ، فانه يجر إلى ما وراءه ، ولا يمكنه الاقتصار على قدر الحق فيه . والسكوت عن الجواب لعله أيسر من الشروع فى الجواب والوقوف على حد الشرع فيه

ثم قسم الناس باعتبار الغضب الى أربعة أقسام : قسم سريع الوقود سريع الخمود ، وقسم بطىء الوقود بطىء الخمود ، وقسم سريع الوقود بطىء الخمود ، وهو شرهم ، وقسم بطىء الوقود سريع الخمود . قال الغزالى وهو الأحمد مالم ينته الى فتور الحمية والغيرة

وقد أوجب على صاحب السلطان أن لا يعاقب أحداً فى حال غضبه لأنه ربما يتعدى الواجب ، ولأنه ربما يكون متغيظا على المعاقب فيكون متشفيا لغيظه ومريحا نفسه من ألم الغيظ ،

فيكون صاحب حظ ، مع أن الواجب أن يكون انتقامه وانتصاره لله تعالى لا لنفسه

ولا يفوتنا أن نذكر أن الغزالى كرر النصح بتجنب من من يتبجحون بتشفى الغيظ وطاعة الغضب ، ويسمون ذلك شجاعة ورجولة . فان الفضل فى الصفح الجميل

الفصل الثانى

رذيلة الحقد

هو فيما يرى الغزالى وليد الغضب ، فان الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفى فى الحال ، رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقداً ، ومعنى الحقد — كما نص على ذلك — أن يُلزِم المرء قلبَه استثقال المغضوب عليه ، والبغضة له ، والنفور منه ، وأن يدوم ذلك ويبقى

وللحقد ما يأتى من النتائج :

(١) الحسد ، وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عن عدوك ، فتغتم للنعمة تصيبه ، وتسر للمصيبة تنزل به

(٢) أن تزيد على إضمار الحسد فى الباطن فتظهر الشماتة بما أصابه من البلاء

(٣) أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه وإن طلبك وأقبل عليك

(٤) أن تعرض عنه استصغاراً له

(٥) أن تتكلم فيه بما لا يحل: من كذب، وغيبة، وإفشاء سر وهتك ستر

(٦) أن تحاكيه استهزاءً به، وسخرية منه

(٧) أن تؤذيه بضرب أو شبهه مما يؤلم بدنه

(٨) أن تمنعه حقه: من قضاء دين، أو صلة رحم، أو رد مظلمة

قال الغزالى « وكل ذلك حرام . وأقل درجات الحقد أن تحترز من الآفات الثمانية المذكورة، ولا تخرج بسبب الحقد الى ما يعصى به الله، ولكن تستثقله فى الباطن . ولا ينتهى قلبك عن بُغضه حتى تمتنع عما كنت تتطوع به من البشاشة والرفق والعناية والقيام بحاجاته، أو الدعاء له، والثناء عليه، والتحريض على بره ومواساته . فهذا كله مما ينقص درجتك فى الدين، وان كان لا يعرضك لعقاب[1] »

وللحقود عند القدرة ثلاثة أحوال: الأولى استيفاء الحق من غير زيادة ولا نقصان وهو العدل، والثانية الاحسان بالعفو والصلة وهو الفضل، والثالثة الظلم، وهو المنهى عنه

---

(١) ١٨١ ج ٣

الفصل الثالث

رذيلة الحسد

هو احدى نتائج الحقد ، وله فيما يرى الغزالى أربع مراتب :

الأولى — أن يحب المرء زوال النعمة عن غيره ، وان كانت لا تنتقل اليه ، وهذا غاية الخبث

الثانية — أن يحب زوالها إليه : لرغبته فى مثل تلك النعمة ، كأن يرى عند غيره امرأة جميلة ويحب أن تكون له ، فمطلوبه تلك النعمة لا زوالها ، ومكروهه فقدها لا تنعُّم غيره بها

الثالثة — أن لا يشتهى عينها لنفسه ، بل يشتهى مثلها ، فان عجز عن مثلها أحب زوالها ، كى لا يظهر التفاوت بينهما

الرابعة — أن يشتهى لنفسه مثلها ، فإن لم تحصل فلا يحب زوالها عنه ، وهذا الأخير هو المعفو عنه إن كان فى الدنيا ، والمندوب إليه إن كان فى الدين

والرتبة الأُولى مذمومة ، وتسمية الثانية حسداً تجوُّز ، فإنما هى تمنى ما للغير ، وهو أيضاً مذموم لقوله تعالى (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض) والثالثة أخف من الاولى

أسبابه وعلاجه

ويرى الغزالى أن أسباب الحسد ترجع إلى العداوة، والتعزز، والكبر، والعجب، والخوف من فوت المقاصد المحبوبة، وحب الرياسة، وخبث النفس. وأكثر ما يكون الحسد بين الأمثال والأقران، والإخوة، وبنى العم، والأقارب، لأن كثرة الروابط تولد أسباب الحسد والبغضاء

وعلاج الحسد فيما يرى الغزالى ينحصر فى تأديب النفس وتبصيرها بخطر هذه الرذيلة، فإن الحاسد إنما ينكر فى غيره نعمةً أنعم الله بها عليه، ومن واجب الرجل أن يشغل بنفسه، وأن يحفظ وقته فلا يضيعه فيما لا يغنى ولا يفيد، فليس أضيع من وقت يصرف فى بغض نعمة لا يملك المرء زوالها عن سواه

وقد قرر الغزالى أن الحسد يكاد يكون طبيعة فى النفوس، وأن الأمل فى السلامة منه بالكلية بعيد

الفصل الرابع

رذيلة العجب

للعالم بكمال نفسه فى علم، أو عمل، أو مال، ثلاث حالات:

الاولى — أن يكون خائفاً على زواله، ومشفقاً على تكدره،

أو سلبه من أصله ، وهذا ليس بعجب

الثانية — أن لا يكون خائفاً من زواله ، ولكن يكون فرحا به ، من حيث هو نعمة من الله ، لا من حيث إضافته إلى نفسه ، وهذا أيضاً ليس بعجب

الثالثة — أن يكون غير خائف عليه ، بل يكون فرحا به ، مطمئناً إليه ، ويكون فرحه من حيث إنه كمال ونعمة ، وخير ورفعة ، لا من حيث إنه عطية من الله ونعمة منه ، وهذا هو العجب . فهو إذن استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم . قال الغزالى : « فان انضاف إلى ذلك أن غلب على نفسه أن له عند الله حقا ، وأنه منه بمكان ، حتى يتوقع بعمله كرامة فى الدنيا واستبعد أن يجرى عليه مكروها يزيد على استبعاده ما يجرى على الفساق سمى هذا إدلالاً بالعمل . . والادلال وراء العجب ، فلا مدل إلا وهو معجب ، ورب معجب لا يدل ، إذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء ، والادلال لا يتم الا مع توقع جزاء . والعجب والادلال من مقدمات الكبر وأسبابه [1] »

أسبابه وعلاجه

وإليك ما يعجب به الناس مع وصف العلاج :

الأول — أن يعجب المرء ببدنه : فى هيئته ، وصحته ، وقوته ، وتناسب أشكاله ، وحسن صورته ، وجمال صوته .

---

(١) ٣٧٧ ج ٣

وعلاجه أن ينظر فى مصير الوجوه الجميلة ، والأبدان الناعمة ، وكيف يعبث بها التراب

الثانى — البطش والقوة ، وعلاجه أن ينظر ما حل بقوم عاد

الثالث — العجب بالعقل ، والكياسة ، والتفطن لدقائق الأمور ، من مصالح الدنيا والدين . وآفة هذا الاستبداد بالرأى وترك المشورة .

وعلاجه أن ينظر فى مصير عقله لو أصيب بمرض فى دماغه

الرابع — العجب بالنسب الشريف . وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه فى أفعالهم وأخلاقهم ، وظن أنه يلحق بهم ، فقد جهل

الخامس — العجب بنسب السلاطين الظلمة ، وأعوانهم ، دون نسب العلم والدين .

وعلاجه أن يفكر فى مخازيهم ، وفى مصيرهم يوم الحساب

السادس — العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والغلمان والعشيرة والأقارب والأنصار والأتباع . وعلاجه أن يتفكر فى ضعفه وضعفهم ، وأنهم كلهم عبيد عَجَزَة ، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعا

السابع — العجب بالمال . وعلاجه أن يتفكر فى آفات المال ، وكثرة حقوقه ، وغوائله

الثامن — العجب بالرأى الخطأ ، كما قال تعالى : أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا . قال الغزالى « وعلاج هذا العجب أشد من غيره ، لأن صاحب الرأى الخطأ جاهل بخطئه ولو عرفه لتركه ، ولا يعالج الداء الذى لا يعرف ، والجهل داء لا يعرف ، فتعسرت مداواته جداً . . . وانما علاجه على الجملة أن يكون متهما لرأيه أبداً لا يغتر به إلا أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقلى صحيح جامع لشروط الادلة [١] »

وقد بين الغزالى فوق ما سلف أن العجب مع الله يدعو الى نسيان الذنوب وإهمالها ، فبعض ذنوب المرء لا يذكرها ولا يتفقدها لظنه أنه مستغن عن تفقدها فينساها . وما يتذكره منها يستصغره ولا يستعظمه ، فلا يجتهد فى تداركه وتلافيه ، بل يظن أنه يغفر له . ومتى أُعجب المرء بأعماله عمى عن آفاتها . ومن لم يتفقد آفات أعماله كان أكثر سعيه ضائعا ، فإن الأعمال الظاهرة اذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع . وإنما يتفقد عمله من يغلب عليه الخوف والاشفاق دون المعجب ، فإنه يغتر بنفسه وبرأيه ، ويأمن مكر الله وعذابه ، إذ يظن أنه قد استغنى وفاز ، وهذا هو الهلاك الصريح الذى لا شبهة فيه . كما قال الغزالى

---

(١) ص ٣٨٤ ج ٣

الفصل الخامس

رذيلة الكبر

يقسم الغزالى الكبر : الى باطن وظاهر . فالباطن هو خلق فى النفس . والظاهر هو أعمال تصدر من الجوارح . ويسمى الباطن الكبر ، والظاهر التكبر . والكبر فيما يرى ثمرة العجب . وينفصل عنه بأنه يتطلب متكبَّراً عليه ، بخلاف العجب ، فقد يعجب المرء بنفسه ، وماله ، وعمله ، ولو خلق وحده

والتكبر باعتبار المتكبَّر عليه ثلاثة أقسام :

الاول — التكبر على الله وهو أفحش أنواع الكبر ، ومثاله ما كان من فرعون

الثانى — التكبر على الرسل ، ومثاله ما كان من قريش وبنى اسرائيل

الثالث — التكبر على العباد ، بأن يستعظم المرء نفسه ، ويستحقر غيره

أسباب التكبر

وللتكبر سبعة أسباب :

الاول — العلم ، وما أسرع الكبر الى العلماء !

الثانى — العمل والعبادة . ولكن العلماء والعُبّاد فى آفة الكبر على ثلاث درجات : الأولى ، أن يكون الكبر مستقراً فى قلب المرء فيرى نفسه خيراً من غيره ، إلا أنه يجتهد ويتواضع ويفعل فعل من يرى غيره خيراً من نفسه ، وهذا قد غرست فى نفسه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها . الثانية ، أن يظهر ذلك على أفعاله بالترفع فى المجالس والتقدم على الأقران واظهار الانكار على من يقصّر فى حقه ، بتصعير خده وتقطيب جبينه . قال الغزالى « وليس يعلم المسكين أن الورع ليس فى الجبهة حتى تقطب ، ولا فى الوجه حتى يعبس ، ولا فى الخد حتى يصعر ، ولا فى الرقبة حتى تطأطأ ، ولا فى الذيل حتى يضم ، وانما الورع فى القلوب [1] »

الثالثة ، أن يَظهر الكبر على لسانه حتى يدعوه الى الدعوى والمفاخرة والمباهاة وتزكية النفس وحكاية الأحوال والمقامات

الثالث — التكبر بالحسب والنسب

الرابع — التفاخر بالجمال ، وأكثر ما يجرى هذا بين النساء

الخامس — التكبر بالمال ، ويجرى هذا بين الملوك فى خزائنهم وبين التجار فى بضائعهم ، وبين الدهاقين فى أراضيهم ، وبين المتجملين فى ملابسهم ، وخيولهم ، ومراكبهم

السادس — التكبر بالقوة وشدة البطش

(١) ٣٥٥ ج ٣

السابع — التكبر بالأتباع والأنصار والتلامذة والغلمان وبالعشيرة والأقارب ، ويجرى ذلك بين الملوك فى المكاثرة بالجنود وبين العلماء فى المكاثرة بالمستفيدين

قال الغزالى « وبالجملة فكل ماهو نعمة وأمكن أن يعتقد كمالا وإن لم يكن فى نفسه كمالا أمكن أن يتكبر به (١) »

وعلامات التكبر — كما ذكر الغزالى — تظهر فى شمائل الرجل : كصَعَر خده ، ونظره شزراً ، وإطراقه برأسه ، وفى جلوسه متكئاً . وتظهر فى مشيته ، وتبختره ، وقيامه وقعوده ، وحركاته وسكناته ، وفى سائر تقلباته فى أحواله وأقواله وأعماله

وإزالة الكبر — فيما يرى الغزالى — فرض عين ، وهو لايزول بمجرد التمنى ، بل بالمعالجة ، واستعمال الأدوية القامعة له

علاجه

ولعلاجه طريقتان :

الأولى — قلع شجرته من مغرسها فى القلب ، وذلك بمعرفة المرء نفسه بالذلة ، وربه بالعزة ، الى آخر ما قال الغزالى

الثانية — دفع عارض الكبر ، بدفع الأسباب الخاصة التى يتكبر بها الإنسان على غيره ، وأنت لاتزال قريباً من تلك

(١) ٣٥٧ ج ٣

الأسباب السبعة التى توجب التكبر فيما يراه ، وقد وضع لكل سبب علاجا خاصاً ، غير أنه لا يفترق كثيراً عما لخصناه له من علاج العجب ، فلنكتف به ، فإن أسباب هاتين الرذيلتين تكاد تكون واحدة ، وإن كانت الثانية نتيجة الأولى

الفصل السادس

آفات اللسان

وقد رأى الغزالى أن اللسان كثير العثرات ، ولابد للمرء من ضبطه . فبسط القول فى آفاته ، وكتب فى ذلك نحو خمسين صفحة ، بيّن فيها حدود تلك الآفات ، وأسبابها ، وغوائلها ، وطريق الاحتراز عنها

وقد مهد لآفات اللسان بكلمة مطولة حض فيها على الصمت ، ثم قال فى تبرير ما دعا إليه من الإخلاد الى السكوت

« فان قلت : فهذا الفضل الكبير للصمت ماسببه ؟ فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ ، والكذب ، والغيبة ، والنميمة ، والرياء ، والنفاق ، والفحش ، والمراء ، وتزكية النفس ، والخوض فى الباطل ، والخصومة ، والفضول ، والتحريف ، والزيادة ، والنقصان ، وايذاء الخلق ، وهتك العورات

فهذه آفات كثيرة ، وهى سبّاقة إلى اللسان ، لاتثقل عليه ، ولها

حلاوة فى القلب ، وعليها بواعث من الطبع ، ومن الشيطان . والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان ، فيطلقه بما يحب ، ويمسكه ويكفه عما لا يجب ، فان ذلك من غوامض العلم »

ثم خشى أن يرميه القارئ بالاسراف فقال « ويدلك على فضل لزوم الصمت أمر : وهو أن الكلام أربعة أقسام : قسم هو ضرر محض ، وقسم هو نفع محض ، وقسم فيه ضرر ومنفعة ، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة . أما الذى هو ضرر محض فلابد من السكوت عنه وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تفى بالضرر . وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول ، والاشتغال به تضييع زمان ، وهو عين الخسران

فلم يبق إلا القسم الرابع ، فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام . وبقى ربع ، وهذا الربع فيه خطر إذ يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء ، والتصنع ، والغيبة ، وتزكية النفس ، وفضول الكلام ، امتزاجاً يخفى دركه ، فيكون الانسان به مخاطرا [1] »

وهذا من الغزالى إغراق فى حب السلامة . ونحن ذاكرون خلاصة هذه الآفات ، لنعرف رأيه فى طبائع الأفراد

الكلام فيما لا يعنى

أما الآفة الأولى : فهى الكلام فيما لا يعنى ، وحدّه — كما قال الغزالى — أن تتكلم بكل ما لو سكتّ عنه لم تأثم ، ولم تستضرّ به فى حال، أو مآل . ومن أمثلته فيما يرى أن يذكر المرء أسفاره وما رأى فيها من جبال وأنهار ، وما وقع له فيها من الوقائع

(١) ص ١١٨ ج ٣ إحياء

وما استحسنه من الأطعمة والثياب ، وما تعجب منه من مشايخ البلاد وحوادثهم .

ولم يتنبه الغزالى لخطر هذا المثال : فان الكلام عن الأسفار والرحلات من الأمور ذوات البال ، والتحدث عن طبائع البلاد وأخلاق الناس من المستحسنات . ونحن مدينون بما نعلم من عادات الأمم وأخلاقها إلى هؤلاء الذين يتحدثون بما لا يعنيهم ، فيقصون علينا ما رأوا فى أسفارهم من الجبال ، والأنهار ، والأطعمة والثياب ، وان عد الغزالى حديثهم ولو احترزوا تضييعاً للزمان .

ومما أصاب فى عده مما لا يعنى أن ترى انساناً فى الطريق فتقول من أين ؟ فربما يمنعه مانع من ذكره ، فإن ذكر تأذى به واستحيا ، وإن لم يصدق وقع فى الكذب ، وكنت السبب فيه . وكذلك سؤالك امرأً عن المعاصى ، وعن كل ما يخفيه ويستحيى منه ، وسؤالك عما حدّث به غيرك

والباعث على هذه الآفة — فيما يرى — هو الحرص على معرفة مالا حاجة به إليه ، أو المباسطة بالكلام على سبيل التودد ، أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها

وأما علاج ذلك فهو أن يعلم أن الموت بين يديه ، وأنه مسئول عن كل كلمة ، وأن أنفاسه رأس ماله ، وأن لسانه شبكة

يقدر على أن يقتنص بهـا الحور العين ، فإهماله ذلك وتضييعه خسران مبين

يقول الغزالى « هذا علاجه من حيث العلم ، وأما من حيث العمل فالعزلة ، وأن يضع حصاة فى فيه ، وأن يلزم نفسه السكوت عن بعض مايعنيه،حتى يعتاد اللسان ترك مالا يعنيه (١) » (؟!)

فضول الكلام

أما الآفة الثانية فهى فضول الكلام . وهو يتناول الخوض فيما لايعنى، والزيادة فيما يعنى على قدر الحاجه . فان من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ، ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره . قال الغزالى « ومهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين ، فالثانية فضول وهو مذموم وان لم يكن فيه اثم ولا ضرر (٢) »

وسبب هذه الآفة وعلاجها مماثلان لسبب وعلاج الكلام فيما لا يعنى

الخوض فى الباطل

وأما الآفة الثالثة فهى الخوض فى الباطل . وعد الغزالى منه حكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ، ومقامات الفساق ، وتنعم الأغنياء ،وتجبر الملوك، ومراسمهم المذمومة، وأحوالهم المكروهة

(١) ١٢١ ج ٣ — إحياء (٢) ١٢١

وقرر أن مثل هذا لايحل الخوض فيه وهو حرام ، بخلاف الكلام فيما لايعنى أو أكثر مما يعنى فهو ترك الأولى . ويدخل الغزالى فى هذا الباب الخوض فى حكاية البدع والمذاهب الفاسدة،وحكاية ماجرى من قتال الصحابة على وجه يوهم الطعن فى بعضهم. ثم قال « وأنواع الباطل لايمكن حصرها لكثرتها وتفننها فلذلك لامخلص منها إلا بالاقتصار على مايعنى من مهمات الدين والدنيا (١) »

المراء والجدال

أما الآفة الرابعة فهى المراء والجدال . والمراء كما حده الغزالى « هو كل اعتراض على كلام الغير باظهار خلل فيه إما فى اللفظ ، وإما فى المعنى ، واما فى قصد المتكلم »

وترك المراء فيما يرى يكون بترك الإنكار والاعتراض ، فكل كلام سمعه المرء صدّق به إن كان حقاً ، وسكت عنه إن كان باطلا أو كذباً . ولم يكن متعلقاً بأمور الدين . وليس له أن يطعن فى كلام غيره بإظهار خلل فيه من جهة النحو أو من جهة اللغة ، أو من جهة النظم والترتيب ، أو من جهة المعنى ، أو من جهة القصد : كأن يقول هذا كلام حق ، ولكن ليس قصدك منه الحق ، وانما أنت فيه صاحب غرض . يقول الغزالى « وهذا الجنس إن جرى فى مسألة علمية ربما خص باسم الجدل . وهو

---

(١) ص ١٢٢ ج ٣

أيضاً مذموم ، بل الواجب السكوت أو السؤال فى معرض الاستفادة لاعلى وجه العناد . أو التلطف فى التعريف لافى معرض الطعن »

« وأما المجادلة فعبارة عن قصد إفحام الغير ، وتعجيزه ، وتنقيصه بالقدح فى كلامه ، ونسبته إلى القصور والجهل فيه »

والباعث على المراء والجدال فيما يرى الغزالى هو الترفع باظهار العلم والفضل ، والتهجم على الغير باظهار نقصه ، وهما شهوتان باطنتان للنفس يرجعان إلى السبُعية والكبرياء

وأما العلاج فيكون بكسر الكبر الباعث له على إظهار فضله ، والسبُعية الباعثة له على تنقيص غيره (والسبُعية فى عبارات المتقدمين هى القوة الوجدانية المشتركة بين الانسان وبين كبار الحيوانات : فالانتقام قوة سبعية لأنه من صفات الجمل ، والعفة عن أكل ما يكسب الغيرُ قوة سبعية لأنه من صفات الأسد ، إذ لا يأكل غير فريسته)

الخصومة

أما الآفة الخامسة فهى الخصومة . وهى لجاج فى الكلام ليُستوفَى به مال أو مقصود . قال الغزالى « فان قلت : فاذا كان للانسان حق فلابد له من الخصومة فى طلبه أو فى حفظه، مهما ظلمه ظالم ، فكيف يكون حكمه ، وكيف تذم خصومته ؟ فاعلم أن هذا الذم يتناول الذى يخاصم بالباطل والذى يخاصم بغير علم ، ويتناول الذى يمزج

بالخصومة كلمات مؤذية لا يحتاج إليها فى نصرة الحجة وإظهار الحق . ويتناول الذى يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره ... فاما الذى ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد وإسراف وزيادة لجاج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وإيذاء ففعله ليس بحرام ، ولكن الاولى تركه ماوجد إليه سبيلا »

وقد بين الغزالى كيف توغر الخصومة الصدر ، وتهيج الغضب حتى ينسى المتنازع فيه ، ويبقى الحقد بين المتخاصمين : فيفرح كل واحد بمساءة صاحبه، ويحزن بمسرته ، ويطلق اللسان فى عرضه . فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات

التقعر فى الكلام

الآفة السادسة هى التقعر فى الكلام بالتشدق ، وتكلف السجع والفصاحة ، والتصنع فيه بالتشبيهات والمقدمات، وماجرت به عادة المتفاصحين

والغزالى يفرق بين من يلقى خطبة ، وبين من يتكلم كلاماً عادياً ، ولا حرج على الخطيب فيما يرى الغزالى أن يلجأ إلى المحسنات اللفظية ، فى غير إفراط أو إغراب ، فان المقصود من الخطبة تحريك القلوب ، وتشويقها ، وقبضها ، وبسطها ، ولرشاقة اللفظ فى ذلك كله تأثير

أما المحاورات التى تجرى لقضاء الحاجات، فالغزالى ينكر أن يكون فيها أى مظهر من مظاهر التكلف كالسجع أو غيره « بل ينبغى أن يقتصر المرء فى كل شىء على مقصوده، ومقصود الكلام التفهيم للغرض، وما وراء ذلك تصنع مذموم »

والآفة الخلقيـة للتصنع فيما يرى الغزالى ترجع إلى الباعث عليه: وهو الرياء، وحب الظهور بالفصاحة، والتميز بالبراعة

الفحش

الآفة السابعـة هى الفحش، وهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة. وهذه العبارات متفاوتة فى الفحش، وبعضها أفحش من بعض، وربما اختلف ذلك بعادة البلاد. وقد ذكر الغزالى من ذلك ما يجرى فى ألفاظ الوقاع وما يتعلق به، والعيوب التى يستحيا منها كالبرص والقراع والبواسير، ثم حض على استعمال الكناية فى مثل تلك المواطن

والباعث على الفحش فيما يرى: إما قصد الإيذاء، وإما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق، وأهل الخبث واللؤم

وقد عد الغزالى الفحش والسب والبذاء آفة واحدة، وأضاف إليها (البيان) الوارد فى حديث (البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق) وفسر هذا البيان بكشف مالا يجوز كشفه، أو المبالغة

فى الإيضاح حتى ينتهى إلى حد التكلف . أو البيان فى أمور الدين ، وفى صفات الله أمام العوام ، إذ قد يثور من غاية البيان فيها شكوك ووساوس

اللعن

أما الآفة الثامنة فهى اللعن ، لحيوان أو انسان أو جماد ، وكل ذلك مذموم

وللغزالى فى هذا الباب نظر دقيق : فهو لا يجيز أن تقول فى رجل حى من اليهود مثلا لعنه الله ، كما تقول لعن الله أبا جهل وفرعون ، فإنه ربما يسلم فيموت مقرباً عندالله ، ولا يجيز أن يلعن المبتدع لأن معرفة البدعة غامضة « ومن بان لنا موته على الكفر جاز لعنه وجاز ذمه ان لم يكن فيه أذى لمسلم ، فان كان لم يجز . ولا يجوز لعن يزيد ، لأنه لايجوز أن يقال إنه قتل الحسين أو أمر بقتله مالم يثبت ذلك. فضلا عن اللعنة: إذ لاتجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق ، ولا يجوز أن يرمى مسلم بفسق وكفر من غير تحقيق»

قال الغزالى « والمؤمن ليس بلعان ، فلا ينبغي أن يطلق اللسان باللعنة إلا على من مات على الكفر ، أو على الأجناس المعروفين بأوصافهم دون الأشخاص المعينين »

المزاح

الآفة التاسعة هى المزاح ، والمذموم منه فيما يرى الغزالى هو

الإفراط فيـه ، أو المداومة عليه . فلك أن تمزح كما كان يمزح رسول الله : فلا تقول إلا حقاً ، ولا تؤذي قلباً ، ولا تُفرِط فيسقط وقارك

الاستهزاء

أما الآفة العاشرة فهى الاستهزاء . وحدُّه كما قال الغزالى :

« الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك وقد يكون ذلك بالمحاكاة فى الفعل والقول ، وقد يكون بالاشارة والإيماء »

وقد نص الغزالى على أن هذا إنما يحرم فى حق من يتأذى به ، فأما من جعل نفسه مسخرة ، وربمـا فرح من أن يسخر به ، كانت السخرية فى حقه من جملة المزاح فله حكمه ، لأن المحرم هو استصغار يتأذى به المستهزأ به ، لما فيه من التحقير

إفشاء السر

الآفة الحادية عشرة هى إفشاء السر ، وهو مذموم لمـا فيه من الايذاء والتهاون فى حق المعارف والأصدقاء ، يقول الغزالى : وهو حرام اذا كان فيه إضرار ، ولؤم ان لم يكن فيه إضرار

وقد عد من حقوق الأخ على أخيـه فى كتاب الصحبة :

« أن يسكت عن إفشاء سره الذى استودعه ، وله أن ينكره وإن كان كاذباً ، فليس الصدق واجباً فى كل مقام ، فانه كما يجوز للرجل أن يخفى

عيوب نفسه وأسراره وان احتاج إلى الكذب ، فله أن يفعل ذلك فى حق أخيه . فان أخاه نازل منزلته ، وهما كشخص واحد لايختلفان إلا بالبدن »

الوعد الكاذب

الآفة الثانية عشرة هى الوعد الكاذب ، وقد بين الغزالى أن ذلك يكون بالوعد على نية الخلف ، أو ترك الوفاء من غير عذر ، ولا جناح على من عزم على الوفاء فعنّ له عذر منعه

الكذب فى القول واليمين

الآفة الثالثة عشرة هى الكذب فى القول واليمين . وقدنص الغزالى على « أن الكذب ليس حراماً لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره ، فان أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشىء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلا ، وقد يتعلق به ضرر غيره . ورب جهل فيه منفعة ومصلحة. فالكذب المحصل لذلك الجهل يكون مأذونا فيه وربما كان واجباً » وقد بينا المواطن التى أباح الغزالى فيها الكذب حين تكلمنا عن رأيه فى الوسائل والغايات

الغيبة

الآفة الرابعة عشرة هى الغيبة. وحدُّها « أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه ، سواء ذكرته بنقص فى بدنه ، أو نسبه ، أو فى خلقه ، أو فى فعله ، أو فى قوله ، أو فى دينه ، أو فى دنياه ، حتى فى ثوبه وداره ودابته »

وقد نص على أن التصريح ليس شرطاً فى تحقق الغيبة ، بل تكفى الاشارة ، والايماء ، والغمز ، والهمز ، والكتابة ، والحركة ، وكل ما يفهم منه المقصود

وللغيبة أسباب نذكر منها الأربعة الآتية :

(١) موافقة الأقران ، ومجاملة الرفقاء ، ومساعدتهم على الكلام

(٢) ارادة التصنع ، والمباهاة ، كأن يرفع المرء نفسه بتنقيص غيره

(٣) اللعب ، والهزل ، والمطايبة ، وتزجية الوقت بذكر عيوب الناس

(٤) البراءة مما ينسب المرء إليه بتنقيص من يفعله

وقد تنبه الغزالى الى ما يقع فيه علماء الدين ، فقد ينكرون المنكر ، ويقعون فى صاحبه ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، مع أنه يكفيهم أن يشخصوا المنكرات ، بلا تعرض للأشخاص ، وقد يغضبون لله حين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ولكنهم يذكرون أشخاصا بالسوء ، فيحبطون ما يعملون

والغزالى يصف لعلاج الغيبة قراءة الآثار والأحاديث الواردة فى هذه الآفة . وقد عد سوء الظن غيبة القلب ونهى

عنه ، ثم ذكر المواطن التى تجوز فيها الغيبة ، وقد فصلناها أيضا فى الوسائل والغايات ، كما بينا رأيه فى كفارة الغيبة فى الخروج من المظالم

النميمة

الآفة الخامسة عشرة هى النميمة . وهى كما يقول الغزالى « كشف ما يكره كشفه ، سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه ، أو كرهه ثالث . وسواء كان الكشف بالقول ، أو بالكتابة ، أو بالرمز ، أو بالايماء . وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الاقوال ، وسواء كان ذلك عيباً ونقصاً فى المنقول عنه أو لم يكن [١] »

ولم يقتصر الغزالى على تقبيح النميمة ، وعدها من آفات اللسان ، بل وضع للرجل آداباً خاصة إزاء النمام . وهى :

(١) أن لا يصدقه ، لأن النمام فاسق ، وهو مردود الشهادة

(٢) أن ينهاه عن ذلك ، وينصح له ، ويقبح عليه فعله

(٣) أن يبغضه فى الله ، فإنه بغيض عند الله

(٤) أن لا يظن بأخيه الغائب السوء ، فان بعض الظن إثم

(٥) أن لا يحمله ما حكى له على التجسس ، والبحث لأجل التحقق

(٦) وأن لا يحكى النميمة ، وإلا رضى لنفسه مانهى النمام عنه

---

(١) ص ١٥٧ ج ٣

قال الغزالى « والسعاية هى النميمة ، إلا أنها اذا كانت الى من يخاف جانبه سميت سعاية » ثم نقل قول مصعب بن الزبير (نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية ، لأن السعاية دلالة والقبول إجازة ، وليس من دل على شيء فأخبر به كمن قبله وأجازه ، فاتقوا الساعى ، فلو كان صادقاً فى قوله لكان لئيما فى صدقه ، حيث لم يحفظ الحرمة ، ولم يستر العورة[1]

ولا شك فى أن الغزالى يرتضى حكم مصعب فى قبول السعاية ، لأنه لم يعقب عليه ، ولم يذكر من أقوال السلف ماينقضه .

والسعاية والنميمة شئ واحد ، أو كأنهما شئ واحد ، فمن الواجب أن تكون آداب المرء واحدة إزاء النمامين والسعاة ، وهو مانحسبه رأى الغزالى وان لم يصرح به

وفى الوسائل والغايات تجد مايجوز من النميمة فيما يرى الغزالى

كلام ذى اللسانين

الآفة السادسة عشرة هى كلام ذى اللسانين الذى يتردد بين المتعادين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه وهو فيما يرى الغزالى نفاق

« ولو دخل الرجل على متعادين وجامل كل واحد منهما وكان صادقاً لم يكن ذا لسانين ولم يكن منافقاً ، فان الواحد قد يصادق متعادين ولكن صداقة ضعيفة لا تنتهى إلى حد الأخوة ، إذ لو تحققت الصداقة لاقتضت معاداة الأعداء . نعم لو نقل كلام كل واحد منهما الى الآخر

(١) ص ٢٥٨

فهو ذو لسانين وهو شر من النميمة ، اذ يصير نماماً بأن ينقل من أحد الجانبين فقط ، فاذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام . وان لم ينقل كلاماً ، ولكن حسَّن لكل واحدمنهما ماهوعليهمن المعاداة لصاحبه فهذا ذو لسانين . وكذلك اذا أثنى على أحدهما واذا خرج من عنده ذمه فهو ذو لسانين. بل ينبغى أن يسكت ، أو يثنى على المحق من المتعادين فى غيبته وفى حضوره ، وبين يدى عدوه . . . ولا يجوز الثناء ولا التصديق ولاتحريك الرأس فى معرض التقرير على كلام باطل ، فان فعل ذلك فهو منافق ، بل ينبغى أن ينكر ، فان لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه [١] »

المدح

الآفة السابعة عشرة هى المدح ، وهو منهى عنه فى بعض المواضع ، وفى بعضها لا بأس به ، بل ربما كان مندوباً إليه ، وقد بيَّن الغزالى أن لهذه الرذيلة أربع آفات فى حق المادح ، واثنتين فى حق الممدوح ، أما آفاتها فى حق المادح فهى :

(١) أنه قد يفرط فينتهي به الإفراط إلى الكذب

(٢) وقد يدخله الرياء ، فانه بالمدح مُظهر للحب ، وقد لا يكون مضمراً له ، ولا معتقداً لجميع ما يقوله ، فيصير به مرائياً منافقاً

(٣) وقد يقول مالا يتحققه ولاسبيل له إلى الاطلاع عليه

(١) ص١٦٠ ج ٣

ويرى الغزالى أن هذه الآفة تتطرق إلى المدح بالأوصاف المطلقة التى تعرف بالأدلة : كقولك انه متق ، وورع ، وزاهد ، وخيّر ، وما يجرى مجراه

(٤) وقد يفرح الممدوح ، وهو ظالم أو فاسق ، وذلك غير جائز

أما آفاتها فى حق الممدوح فهى :

١ — أن المدح قد يحدث فيه كبراً وإعجاباً وهما مهلكان

٢ — وأنه إذا أثنى عليه بالخير فرح به وفتر ، ورضى عن نفسه ، فقل جده

وبعد أن بين الغزالى آفات المدح ، دعا الممدوح إلى أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر ، والعجب ، وآفة الفتور ، بأن يتأمل ما فى خطر الخاتمة ، ودقائق الرياء ، وآفات الأعمال ، فانه يعرف من نفسه مالا يعرفه المادح ، ولو انكشفت له جميع أسراره، وما يجرى على خواطره، لكف المادح عن مدحه ؛ وحضه كذلك على أن يظهر كراهة المدح بإذلال المادح

الغفلة

الآفة الثامنة عشرة هى الغفلة عن دقائق الخطأ فى فحوى الكلام ، لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته، ويرتبط بأمور الدين

ومن الأمثلة التى ذكرها الغزالى أنه لا يصح أن تقول عبدى وأَمَتى ، لأننا جميعاً عبيد الله ، ونساؤنا جميعاً إماء الله ، بل تقول غلامى وجاريتى الخ

السؤال عن صفات الله

الآفة التاسعة عشرة هى سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن كلامه ، وعن الحروف ، وأنها قديمة أو محدثة . يقول الغزالى : « وكل كبيرة يرتكبها العامى فهي أسلم له من أن يتكلم فى العلم ، لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته ، وانما شأن العوام الاشتغال بالعبادات ، والايمان بما ورد به القرآن ، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث . وسؤالهم عن غير مايتعلق بالعبادات سوء أدب منهم يستحقون به المقت من الله عز وجل ، ويتعرضون لخطر الكفر ، وهو كسؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك ، وهو موجب للعقوبة[1] »

الغناء

الآفة العشرون هى الغناء ، وتجد تفصيلها فى البحث عن رأيه فى الفنون .

وإنه ليخيل إلى المرء أن الغزالى بالغ فى آفات اللسان ، ولكن هذه المبالغة ليست إلا نوعا من الاحتياط ، وهى ليست كبيرة على من يطمع فى مكارم الأخلاق

الفصل السابع

رذيلة الرياء

إنك لترحم الغزالى حين تقرأ ما كتبه عن الرياء ، فانك تتصوره رجلا كاد يُجنّ من غلبة الجهّال فى عصره . ويكفى أن نلخص آراءه فى هـذا الباب لترى كيف كان الرجل يمقت الرياء ، ويبغض من أعماق صدره أعمال المرائين

فما يمقته الغزالى أن يظهر المسلم النحول والصفار ، ليدل بالنحول على قلة الأكل ، وبالصفار على سهر الليل . يقول الغزالى « ويقرب من هذا خفض الصوت ، واغارة العينين ، وذبول الشفتين ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم ، وأن وقار الشرع هو الذى خفض صوته ، وضعف الجوع هو الذى أضعف من قوته »

ومن الرياء تشعيث الشعر ، وحلق الشارب ، وإطراق الرأس فى المشى ، والهدوء فى الحركة ، وإبقاء أثر السجود على الوجه ، وغلظ الثياب ، وتشميرها إلى قريب من الساق ، وتقصير الأكمام وترك تنظيف الثوب ، والتطويل فى الركوع والسجود الخ

ولم يغفل الغزالى عن الشئون الاجتماعية وهو يتكلم فى الرياء فقد بيّن أن من الناس من يظهر التقوى والورع والامتناع عن

أكل الشبهات ، ليعرف بالأمانة فيولّى القضاء ، أو الأوقاف ، أو الوصايا ، أو مال الأيتام ، فيأخذها . أو يسلم إليه تفرقة الزكاة أو الصدقات ليستأثر بما قدر عليه منها . أو يودع الودائع فيأخذها ويجحدها . أو تسلم إليه الأموال التى تنفق فى طريق الحج فيختزل بعضها أو كلها الخ

وللغزالى فى هذا الباب نظر بعيد : فهو يعيّن العيوب الاجتماعية ، ويشرح عيوب العلماء والزهاد . ويظهر أن الناس لعهده كانوا يتخذون دين الله سُلَّماً لأغراضهم الخبيثة : من الفسق والفجور ، ونهب الأموال

وأكرر ما قلته من أن الغزالى لا يغضب إلا حين يحارب رذيلة يراها بعينه ، فكلامه فى ذلك صورة لعصره ، وليس أثراً لمطالعاته فى الكتب القديمة التى تصف عيوب الناس . وفى مقدور الباحث أن يستخرج من كتاب الاحياء صورة واضحة للعلماء والزهاد فى عهد الغزالى . ولا أقول الحكام والأمراء ، لأنه تكلم عن الحكومة لعهده بضعف وفتور ، ولم يقارس السلاطين شيئاً من لسانه الحديد !!

الباب التاسع

في

العلوم والفنون والتربية

نذكر فى هذا الباب خلاصةً لآراء الغزالى فى العلم والعمل والفرق بين علم الدنيا وعلم الآخرة ، وكيف يفهم علم الفقه ، وعلم التوحيد ، ثم نذكر بالإيجاز فهمه للفنون الجميلة ، ثم نبين المنهج الذى وضعه لتربية الأطفال ، وما يراه من آداب المعلمين والمتعلمين وكيف أهمل تربية البنات .

الفصل الأول

العلوم

تكلم الغزالى عن العلم والعمل ، وأيهما أفضل للمريد ، فى مواطن كثيرة من مؤلفاته فى الأخلاق

وقد لاحظت أنه لم يكن مُوَحَّد الرأى فى هذا البحث ، فتارة يُقدّم العلم على العمل ، وأخرى يقدم العمل على العلم . ويخيل إلىّ أن نزعته الصوفية كانت سبب هذا التردد ، بل

وأحسب أيضاً أنه كان يداري أهل عصره ، ويسايرهم فى كثير من الشئون . فقد أراه يهم بالكشف عن المقصود من العلم المفضّل عن العمل ثم يتراجع . ولو جرؤ قليلا لبين لنا أن العلم النافع لايقتصر على معرفة العبادات ، وما إليها من دقائق التصوف والتوحيد ، بل هنالك البحث فى طبائع الأشياء ، والتنقيب عن السر فى أن الله سخر لنا مافى الأرض جميعاً

غير أنه لم يكد يذكر قوله عليه السلام : فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر ، حتى اندفع يقول « ذلك العلم المقدم على العمل لايخلو : إما أن يكون هو العلم بكيفية العمل ، وهو الفقه وعلم العبادات ، وإما أن يكون علماً سواه . وباطل أن يكون الاول لوجهين : أحدهما أنه فضل العالم على العابد ، والعابد هو الذى له العلم بالعبادة ، وإلا فهو عابث فاسق ، والثانى أن العلم بالعمل لايكون أشرف من العمل ، لأن العلم بالعمل لايراد لنفسه ، وانما يراد للعمل ، وما يراد لغيره يستحيل أن يكون أشرف منه »

وكان المظنون بعد هذه المقدمة أن يعطى العلوم ماتستحق من التفضيل . ولكنه قسمها إلى قسمين : عملى ونظرى . أما العملى فقد قدم أنه ليس أفضل من العمل ، وأما النظرى فقد زيفه جميعه ، ولم يستبق منه إلا مايرجع « إلى العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وملكوت السموات والارض وعجائب النفوس الانسانية والحيوانية من حيث إنها مرتبطة بقدرة الله عز وجل لا من حيث ذواتها »

مناقشة قصيرة

من هنا يتبين أن واجب العابد لايخرج عن العبادة والتفكر فى المعبود ، وما إلى ذلك من معرفة الملائكة والكتب والرسل وملكوت السموات والأرض إلى آخر ماقال

ونسأل الغزالى : مارأيه إذا توقف فهم الكتب السماوية على إدراك روح التشريع ، بفهم أصول القوانين ؟

وما رأيه إذا توقف فهم « عجائب النفوس الانسانية والحيوانية » على علم النفس ، وعلم وظائف الأعضاء ؟

وما رأيه إذا اقتضت معرفة الرسل درس التاريخ القديم والحديث ، لفهم ماقد يضطر إليه المشرعون من الرسل والانبياء فى مختلف العصور ؟

وما رأيه إذا توقف إدراك مافى الكتب السماوية من سياسة الناس على علم الاجتماع ؟

لم ينكر الغزالى أهمية العلوم العقلية ، والنقلية ؛ ولكنه جعل بعضها وسيلة للعلوم النظرية ، والوسيلة بالطبع دون الغاية فى الرتبة . وجعل بعضها علوما عملية ، وهى أيضا وسيلة للعمل ، فلا يعقل أن تكون أشرف منه !

فلم يبق من العلم المقدم على العمل إلا العلم بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر ؛ وهو فى ذاته علم شريف

ولكنى أحب أن أضع هذا السؤال : أيكون من يشغل نفسه بهذا النوع من المعرفة أفضل أمام العقل والشرع ممن أفنى عمره فى درس الطب حتى استطاع أن يعرف كيف تُغْزى الديدان التى تحدث البول الدموى ، والتى تهلك فى كل عام مايعد بالملايين ؟ وهل يقدم محيي الدين بن عربى يوم القيامة ، على من يقضى حياته لافى التفكر فى ملكوت الله ، بل فى غزو السل والسرطان ؟

الشك طريق اليقين

وبمناسبة العلم نثبت قول الغزالى فى نهاية الميزان « ولو لم يكن فى مجاري هذه الكلمات إلا مايشكك فى اعتقادك الموروث لتنتدب للطلب ، فناهيك به نفعاً . إذ الشكوك هى الموصلة للحق ، فمن لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال »

غير أن الغزالى لم يبين لنا مصير المرء إذا بقى فى شكه ، ولم يهتد إلى اليقين . وما نحسب عصر الغزالى كان يسمح له بتحرير هذه المسألة ، وإن كانت غاية فى الوضوح . فمتى كان المرء حراً فى أن لا يثق بعقيدة قديمة مهما أجمع عليها الناس لاحتمال أن تكون باطلة ، فهو بالضرورة غير مسئول عن الوصول الى

نتيجة معينة ، وإنما يسأل عن اعتقاد ما أدّاه إليه الدليل

ولا يفوتنا أن نلفت النظر إلى أن الغزالى نبه فى عدة مواطن من كتبه إلى أنه يجب على المعلم أن يتجنب كل ما يثير الشك فى نفوس الضعفاء ، وحض المرشد على الاقتصار مع العامة على المتداول المألوف . ومعنى هذا أن الشك وإن كان سبيل اليقين ، إلا أنه لا يستعمل إلا بمقدار . وهذا المنهج يبين لنا أن الغزالى يحرص على وَحدة الهيئة الاجتماعية، وينفر من كل مايقربها من الانحلال . فللعلماء أن يشكّوا وأن يختلفوا ، ولكن عليهم أن يجنّبوا العامة مواطن الشك والخلاف ، ومن هنا نفهم كيف يرى أن الاجابة على بعض الأسئلة حرام . وسنعود إلى هذا البحث عند الموازنة بينه وبين الفلاسفة المحدثين

علم الفقه

وقد بلغ من إغراب الغزالى فى التصوف أن جعل الفقه من علوم الدنيا ، وألحق الفقهاء بعلماء الدنيا . وأنت تعلم قيمة الدنيا عنده!

ولكن أليس الفقه هو معرفة القوانين التى يُساس بها الناس ؟ ليكن كذلك ! إذ ماقيمة هؤلاء الناس ؟ أليس الله أخرج آدم من التراب ، وأخرج ذريته من سلالة من طين ، ومن ماء

دافق ، فأخرجهم من الأصلاب إلى الأرحام ، ومنها إلى الدنيا ثم إلى القبر ، ثم إلى العرض ، ثم إلى الجنة أو النار ؟ وإذ كان هذا مبدأهم ، وهذه غايتهم ، وكانت الدنيا زادهم ، فما قيمة الفقه ، وما هي أقدار الفقهاء ؟ أليسوا يفصلون فى خصومات لو عدَلنا ما احتجنا إلى أن يفصلوا فيها ، ولما كان لهم قيمة فى هذا الوجود ؟

هذا هو منطق الغزالى !

والحمد لله الذى رحم الشرق وأهله من علم الفقه ، ومنّ عليهم بالقوانين الأجنبية التى يقدم إليها أصحابها آيات التقديس ، عند الشروق وعند الغروب !

الفقه لا قيمة له فى نظر الغزالى ، لأنه يتعلق بسياسة هؤلاء الناس المناكيد ، الذين اضطرونا بشرهم إلى الفقه والفقهاء ، والذين لو عدلوا لما احتجنا إلى قاض ولا إلى فقيه !

صدقت يا مولانا الأستاذ ! ولكن اسمح لنا بأن نذكرك بأن النبى كان فقيهاً ، وكانت شريعته فقها ، وهل الفقه شىء آخر غير قواعد الفصل فى الخصومات ؟

وهل بلغ من هوان الدنيا عندك أن تحتقر لأجلها الفقه والتشريع ؟

اتركوا الدنيا لأصحابها يا جماعة الصوفية ! اتركوا الدنيا

للمسلمين ، فان الله لم يبعث محمداً إلا ليمكّن للمؤمنين فى الأرض ويجعلهم أئمة ، ويجعلهم الوارثين

علم التوحيد

وأما التوحيد فهو عند الغزالى وقف فى جوهره على علماء المكاشفة

وما هو علم المكاشفة ؟

هو علم لا نعرفه ، ولكن يقال إن سوء الخاتمة مُعَدّ لمن ليس له منه نصيب ! !

ويقال إن أدنى نصيب من هذا العلم هو التصديق به ، وتسليمه لأهله ؛ ويقال كذلك إن أقل عقوبة من ينكره أن لا يذوق منه شيئاً !

وما هى غاية هذا العلم ؟

غايته أن تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله وبصفاته الباقيات التامات !

وأنا لا أدرى سبب هذه الشهوة الغريبة التى تحمل علماء الدين على البحث عن ذات الله وصفاته ، ولا أعلم كيف عميت قلوبهم حتى اندفعوا يذكرون عن ذات الله وصفاته ما يجب أن يتورع عنه المؤمنون !

يطمع الغزالى فى معرفة ذات الله معرفة حقيقية ، وهذا والله عين الجهل ، ونفس الضلال ! ويطمع كذلك فى معرفة صفاته التامات ، وهو الذى بلغ به الأدب مع الأشاعرة والمعتزلة إلى الاختلاف فى صفات الله ، وفى كلامه ، وفى أفعاله ، وفى رؤيته بالأبصار يوم القيامة ، إلى غير ذلك من المباحث التى لا يقدم عليها غير عُمْى القلوب !

والظاهر أن الغزالي ومن على شاكلته لم يشهدوا المعركة القائمة بين الهدى والضلال ، ولم يروا يوماً واحداً كيف تتصاول العقول ؛ فان البحث عن ذات الله وصفاته حمق وسفه ، وإنما سبيل المؤمنين أن يتأملوا ما يحيط بهم من جلال الوجود ، وأن يبحثوا فى المراد من أن الله سخر لهم مافى الأرض جميعاً ، فانه ليس للعاقل أن يترك الانتفاع بما تلمس يده ، وترى عينه ، ليغيب فى مجاهل من الظنون ، يسميها سفهاً علمَ التوحيد

وما أسفت لشئ أسفى لانحصار الافكار الاسلامية

« فى معرفة معنى النبوة والنبي ومعنى الوحي ومعنى الشيطان ومعنى لفظ الملائكة والشياطين وكيفية معاداة الشياطين للانسان ، وكيفية ظهور الملك للأنبياء ، وكيفية وصول الوحى إليهم ، والمعرفة بملكوت السموات والأرض ، ومعرفة القلب وكيفية تصادم الملائكة والشياطين ومعرفة الفرق بين لِمّة الملك ولِمّة الشيطان ، ومعرفة الآخرة والجنة

والنار وعذاب القبر والصراط والميزان والحساب ، ومعنى لقاء الله والنظر إلى وجهه ، ومعنى القرب منه والنزول فى جواره ، ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملإ الأعلى ، ومعنى تفاوت درجات أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض كما يُرى الكوكب الدرى فى جوف السماء »

فان هذه فى الأصل أكثرها رموزٌ ظنها المسلمون حقائق، فوضعوا لها ضروباً من التفسير والتأويل

والذى يطالع الكتب القديمة يرى جمهور الفقهاء أعلم بخريطة الآخرة منهم بخريطة الدنيا : فهم يعرفون من أنهار الجنة مالا يعرفون من أنهار هـذا العالم ، ويعلمون من أبواب جهنم مالا يعلمون من أسباب انحطاط الأمم وضعف الشعوب ، ويدركون من نعيم الآخرة مالا يدركون من معنى الملك والقوة فى هذا الوجود . وفى مقدور المرء أن يجد مئات الكتب فى وصف الحشر والنشر ، ولا يجد كتابا واحداً فى تحديد المراد من الخلافة الاسلامية ، التى قامت بسببها آلاف الفتن ، ومئات الحروب

والغزالى من الذين ساعدوا على بقاء هذه العماية ، فقد وضع الكتب المطولة فى كيفية العزلة ، ولمّا أراد أن ينقد الشئون الاجتماعية ، وضع كتابه التبر المسبوك فى نصيحة الملوك ، فكان آية فى السخف والاضطراب

والى من تقاضى هؤلاء العلماء ؟

تقاضيهم الى القرآن : ففيه الدعوة الى الملك ، والى أن تكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين . وهل الأخلاق شئ آخر غير حرب الذلة والقلة : فى الأفراد ، والجماعات ، والشعوب ؟

نقول هذا ونطالب كل مسلم بالحذر البالغ عند مطالعة كتب المتقدمين ، فان أكثرهم لم يعرف السياسة ، ولا شئون الاجتماع . وإلا فأين غُرر المؤلفات فى الأمور السياسية والاجتماعيه ؟ وأين البصر النافذ الى أعماق الحياة الدولية ؟ بل وأين الخبرة بالسريرة الانسانية ، التى حسبوها لا تعدو طلاب الجنة من الزهّاد ، والعبّاد ، من كل راضٍ بالفقر ، قانعٍ بالسؤال ؟

الفصل الثانى

الفنون

أباح الغزالى أن يُحبَ المرء لجماله ، فكان ذلك منه اعترافاً بالحاسة الفنية ، التى يدرك بها الأديب ، والفنّان ، والفيلسوف ، ما فى العالم من دقائق الجمال

وتجد فى حقوق الأخوّة من هذا الكتاب أن الغزالى

ضرب المثل بالنظر الى الفواكه ، والأنوار ، والأزهار ، والتفاح المشرب بالحمرة ، والى الماء الجارى والخضرة . ومعنى هذا أن الإنسان متى جاز له ، وبعبارة أدق ، متى أمكن له أن يحب هذه الأشياء بلا نية سيئة ، فقد يمكن له أن يحب الرجل الجميل بلا غرض خبيث

وشاهدُنا فى هذه الفكرة ، هو أن الغزالى يؤمن بأن للروح شيئا من السلطان ، وله بعض الحقوق . فانه متى جاز أن يحب الرجل لجماله ، والجمال فى الرجال كثير ، فقد أصبح للروح الحق فى أن يتمتع بكل جميل ، متى استطاع أن يتحلى بالعفاف . وهذا فيما أرى اعتراف من الغزالى بضرورة وجود الفنون الجميلة لتتمتع بها الأرواح ، كما يجب أن تملأ الخزائن والأسواق ، لتجد الأجسام ما تحتاجه من الغذاء

ويحسن أن نذكر ما لاحظناه على الغزالى حين تكلم عن التشريح : فقد قرر أنه يسير بفريق من العلماء إلى أن النفس تموت ؛ فإنا سألناه : هل يقضى ذلك بتحريم التشريح ؟ وبالطبع ليس عند الغزالى جواب على هذا السؤال !

وكذلك نسأله الآن : يجوز أن يحب الشخص الجميل ، ولكنا لاحظنا أن مثل هذا الحب قد يجر الى الفسوق . فهل

يحرم لذلك حب كل شخص جميل ؟ وليس للغزالى أيضاً على هذا السؤال جواب !

وانما قدمنا هذه الكلمة أمام رأيه عن الفنون الجميلة ، ليعرف القارئ أنه لم يذكر أصلا من أصول الأخلاق يبرر رأيه فى الفنون فقد أتى عليها جميعاً بالنقد والتجريح ، وإن لم ينكر (أن لله سراً فى مناسبة النغمات الموزونة للأرواح) وأحسب أنه لو تروّى قليلا لعرف أن لله سراً فيما تحدث الفنون ، من أنواع الفتون .

الشعر

رأى الغزالى فى الشعر رأى عجيب ، فهو يرى أن مقصوده المدح والذم والتشبيب . وعلى فرض أن الشعر لا يقصد منه غير ذلك فهو مقصود حميد ، وإن قبح فى بعض الأحوال

وقد رأى الغزالى نفسه أمام أمر واقع : وهو أن الشعر أنشد بين يدى رسول الله ، ولكنه اعتذر عن هذا بأن المبالغات التى وردت فى ذلك الشعر ، لم يقصد بها الكذب ، وإنما هى من صنعة الشعر ، فلا يقصد بها اعتقاد الصورة التى وضعها الشعراء .

ولا أدل على هوان الشعر فى نظر الغزالى من قوله

« وأما الشعر فكلام حسنه حسن ، وقبيحه قبيح ، إلا أن التجرد له مذموم » ص ١٣١ ج ٣

والتجرد للشعر هو صنعة الشاعر الفنّان ، الذى يريد أن يمثل عصره ، وقطره ، فى صحيفة التاريخ . ومتى كان من المذموم أن يتجرد المرء للشعر ، فمعنى ذلك أن الشعر لايصح أن تخصص له حياة فرد من الأفراد . وإن جاز للناس أن ينشدوا أو ينشئوا ماحسُنَ منه ، لانه ككل كلام : حسنه حسن ، وقبيحه قبيح !!

ولا يفوتنا أن نلفت النظر إلى أن الأحاديث التى رواها الغزالى فى ذم الشعر اقتضتها ظروف خاصة ، بدليل ماروى الغزالى نفسه ، مما يناقضها كل المناقضة ، فكان عليه أن يراعى تلك الظروف

الموسيقى

تكلم الغزالى عن الموسيقى باحتياط يدل على مبلغ رأيه فى هذا الفن الجميل ، وهو يقسم الأصوات الموزونة باعتبار مخارجها إلى ثلاثة : مايخرج من جماد : كصوت المزامير ، والأوتار ، وضرب القضيب ، والطبل وغيره . وما يخرج من حنجرة حيوان ، وذلك الحيوان إما انسان ، أو غيره : كصوت العنادل ، والقمارى ، وذوات السجع من الطيور . ثم يحكم بأن سماع هذه الأصوات

يستحيل أن يحرم لكونها طيبة أو موزونة ، إذ لا ذاهب إلى تحريم صوت العندليب ، وسائر الطيور ، ولا فرق بين حنجرة وحنجرة ، ولا بين جماد وحيوان ، فينبغي أن يقاس على صوت العندليب الأصوات الخارجة من سائر الأجسام باختيار الآدمى كالذى يخرج من حلقه ، أو من القضيب والطبل والدف

إلى هنا لا تجد شيئاً يغض من الموسيقى باعتبار أنها فن جميل ، ولكنك تجده يقول بعد ذلك « ولا يستثنى من هذا إلا الملاهى والأوتار والمزامير التى ورد الشرع بالمنع منها ، لا للذتها ، اذ لو كان للذة لقيس عليها كل مايلتذ به الانسان ، وإنما حرمت لعلل ثلاث : إحداها أنها تدعو إلى شرب الخمر ، فان اللذة الحاصلة بها إنما تتم بالخمر ، ولمثل هذه العلة حرم قليل الخمر . الثانية أنها فى حق قريب العهد بشرب الخمر تذكر بمجالس الأنس بالشرب ، فهى سبب الذكر ، والذكر سبب انبعاث الشوق ، وانبعاث الشوق إذا قوى فهو سبب الإقدام . والثالثة الاجتماع عليها ، وهو من عادة أهل الفسق » ونجده بعد هذه الفقرة ينص على تحريم المزمار العراقى ، والأوتار كلها ، كالعود والصنج والرباب والبربط (١) وكل مايذكر بالخمر ، ومجالس الخمر ، فأما ماعدا ذلك فهو على الإباحة ، قياساً على أصوات الطيور

وما نريد أن نناقش هذا الرأى ، ولا أن نبحث فى الأساس

(١) البربط كجعفر هو العود معرب بربط : أى صدر الاوز لأنه يشبهه

الذى وضع عليه ، ولكن ننبه على أن فيه دلالةً على دقته فى وقاية الجبهة الخلقية ، وحرصه على أن يظل المرء بعيداً عن مثار الشهوات

ونضيف إلى ما سلف من رأيه فى الموسيقى ، أنه عدّ بيع الملاهى من المنكرات التى يجب كسرها ، حين تكلم عن منكرات الأسواق ، وعد من منكرات الضيافة سماع الأوتار وسماع القيان ، وعد إعطاء المال للمطرب إسرافاً يجب على المحتسب إنكاره ، ولم يعيّن مهنة المطرب ، فصلح لأن يطلق على المغنى والموسيقار . ونص فى ص ٣٢٧ ج ٣ إحياء على أن أصوات المزامير والأوتار اذا ارتفعت فى دار بحيث جاوزت الحيطان ، فلمن سمعها دخول الدار وكسر الملاهى ، ونص كذلك على أن للمرء الحق فى أن يكسر العود إذا رأى شخصا يحمله

ومما سلف نعلم أنه لا يحرم الموسيقى مرة واحدة ، ولكننا نعرف كذلك أنه لا يقيم لها وزنا باعتبار أنها فن جميل ، فمن الواضح أن لكل فن سيئات وحسنات ، وأن السيئات لا تقل قيمة فى نظر الفنّان عن الحسنات ، إذ كان جمال الفنون يرجع أكثره الى ما تحدث فى عشاقها من الجرءة على المألوف ، وهو ما يخافه الغزالى ويتوقاه

وهذا الذى يوجب كسر العود ، لا يبيح فيما نظن أن تبنى

دار للموسيقى ، وأن يختار للتعلم فيها حِسان الاصوات ، وصِباح الوجوه !

ولا ننس أنه لم يحرم الأوتار والمزامير إلا لانها تذكر بمجالس الخمر ، فلنذكر أنه يحرم من أجل الخمر هذه اللذة الروحية البديعة . فهى عنده أم الخبائث ، وأصل المنكرات

الغناء

لم يفرد الغزالى باباً للموسيقى ، ولا للغناء ، وإنما نأخذ رأيه فى هذين الفنين مما جاء فى كتاب السماع والوجد ، وهو الكتاب الثامن من ربع العادات من كتب الاحياء

وأول ما يلفت النظر إلى رأيه فى الغناء ، موافقته للشافعى فى أن الرجل الذى يتخذ الغناء صناعة لاتجوز شهادته ، لأن الغناء فيما يرون من اللهو المكروه ، الذى يشبه الباطل ، ومن اتخذه صناعة كان منسوبا إلى السفاهة ، وسقوط المروءة !

ومتى كان الغزالى يرى أن محترف الغناء مردود الشهادة ، فانه لايرى للغناء قيمة ، وماظنك بفن يهبط بصاحبه إلى الحضيض ، ويسقط عدالته بين الناس !

ونحن متى ذكرنا كلمة فن ، فانا نذكر بجانبها مايجب على الأفراد والحكومات من تشجيعه ، لأن الفن ليس ضرباً من

اللهو المكروه ، وإنما هو لهو مفروض ، تحتاجه الأرواح والأجسام ، فيما تحتاجه من صنوف الغذاء ، وليس محترف الغناء هو المردود الشهادة فقط فيما يرى الغزالى ، بل المغرم بالسماع والمفرط فيه هو أيضا سفيه ، ترد شهادته ، لأن المواظبة على اللهو جناية !

والفن — كما تعلم — لا حياة له إلا بوجود الهواة ، فلن يحسن الغناء إلا إذا وجد هواة الإنشاد والسماع ، ومتى كان الإكثار من الانشاد ، والافراط فى السماع ، جناية ، وكان من واجب كل فرد أن يحارب هذه الجناية ما استطاع ، فقد أصبح ما نسميه فن الغناء ، عرضة للانقراض ، ولا عبرة بما يقوله الغزالى من إباحته إذا لم يوجد موجب التحريم ، فحسب الفن ضياعا أن تقول إنه مباح !

غناء المرأة والأمرد الجميل

ولا يجيز الغزالى أن يسمع الغناء من امرأة لا يحل النظر إليها ، وتخشى الفتنة من سماعها ، وفى معناها الصبى الأمرد الذى تخشى فتنته

وقد توقع الغزالى أن يسأل سائل : هل ذلك حرام فى كل

حال ، حسماً للباب ، أولا يحرم إلا حيث تخاف الفتنة فى حق من يخاف العنت ؟ وأجاب بأن هذه المسألة يتجاذبها أصلان : أحدهما أن الخلوة بالأجنبية ، والنظر إلى وجهها حرام ، سواء خيفت الفتنة أو لم تخف ، لانها مظنة الفتنة على الجملة . والثانى أن النظر إلى الصبيان مباح مالم تخف الفتنة ، فلا يلحق الصبيان بالنساء فى عموم الحسم ، بل يتبع فيه الحال ، وصوت المرأة دائر بين هذين الأصلين . فان قسناه على النظر اليها وجب حسم الباب ، وهو قياس قريب ، ولكن بينهما فرق ، إذ الشهوة تدعو إلى النظر فى أول هيجانها ، ولا تدعو إلى سماع الصوت ، وليس تحريك النظر لشهوة المماسة كتحريك السماع ، بل هو أشد ، وصوت المرأة فى غير الغناء ليس بعورة ، ولكن للغناء مزيد أثر فى تحريك الشهوة ، فقياس هذا على النظر إلى الصبيان أولى لأنهم لم يؤمروا بالاحتجاب ، كما لم تؤمر النساء بستر الأصوات ، فينبغى أن يتبع مثار الفتن ويقصر التحريم عليه [1]

موضوع الغناء

ولا مانع فيما يرى الغزالى من أن يكون فى الغناء تشبيب بوصف الخدود ، والأصداغ ، وحسن القد ، والقامة ، وسائر

(١) انظر ص ٢٨٠ ج ٢ إحياء

أوصاف النساء ، بشرط أن لا يكون فى امرأة معينة ، فانه لا يجوز وصف المرأة بين يدى الرجال ، وعلى المستمع أن لا ينزله على امرأة معينة إلا أن تكون زوجته أو جاريته ، فان نزّله على أجنبية فهو من العصاة . ويحرم على من كان فى غِرّة الشباب أن يستمع ، إذا كانت الشهوة غالبة عليه ، سواء غلب على قلبه حب شخص معين أولم يغلب (٤)

ما يباح من الغناء

وإليك جملة ما يباح فيه الغناء كما يرى الغزالي :

(١) غناء الحجيج ، إذ يدورون فى البلاد بالطبل والشاهين والغناء

(٢) ما يعتاده الغزاة لتحريض الناس على الغزو

(٣) الرجزيات التى يستعملها الشجعان فى وقت اللقاء . وهذا مباح فى كل قتال مباح ، ومندوب فى كل قتال مندوب ، ومحظور فى قتال المسلمين وأهل الذمة

(٤) أصوات النياحة فى البكاء على الخطايا والذنوب

(٥) السماع فى أوقات السرور المباح ، كالغناء فى أيام العيد ، وفى العرس ، وفى وقت الوليمة والعقيقة ، وعند ولادة المولود ، وعند ختانه ، وعند حفظه القرآن ، وعند قدوم الغائب

(٦) سماع العشاق ، تحريكاً للشوق ، وتهييجاً للعشق ، وتسلية

للنفس . وهـذا حلال إن كان المشتاق إليه ممن يباح وصاله ، كمن يعشق زوجته ، أو سُرِّيَّته ، فيصغى إلى غنائهـا لتضاعف لذته ، وكذلك إن غضبت منه جاريته ، أو حيل بينه وبينها بسبب من الأسباب ، فله أن يحرك بالسماع شوقه ، وأن يستثير به رجاء لذة الوصال . فان باعها أو طلقها حرم عليه ذلك بعده ، إذ لا يجوز تحريك الشوق حيث لا يجوز تحقيقه بالوصال واللقاء

(٧) سماع من أحب الله وعشقه واشتاق الى لقائه ، فلا ينظر الى شئ إلا رآه فيه . وقد أطال الغزالى فى هذه النقطة ، ثم قرر أن اطلاق العشق على حب غير الله مجاز لا حقيقة ، لأن كل محبوب سواه يتصور له نظير ، إما فى الوجود وإما فى الإمكان ، أما جمال الله فلا ثانى له ، لا فى الإمكان ، ولا فى الوجود (؟)

آداب السماع

لا يعتد الغزالى بسماع من يطرب للغناء بمجرد الطبع ، ولا حظ له فى السماع إلا استلذاذ الألحان ، والنغمات ، إذ كان هذا الذوق لا يتطلب لوجوده غير الحياة ، فلكل حيوان نوع تلذذ بالأصوات الطيبة . ويسخر الغزالى ممن ينزلون المسموع على حسب شهواتهم ، ومقتضى أحوالهم ، ويرى حالتهم هذه أخس من أن تفرد بالبيان

ويعتدّ فقط بمن ينزل ما يسمعه على أحوال نفسه فى معاملته لله ، أو من عزب عن فهم ما سوى الله حتى عزب عن نفسه ، وأحوالها ، ومعاملاتها ، وكان كالمدهوش الغائص فى عين الشهود ، الذى يضاهى حاله حال النسوة اللاتى قطعن أيديهن فى مشاهدة جمال يوسف عليه السلام (!؟)

وإذا سمع أحد هؤلاء « الموفقين » ذكر عتاب أو خطاب ، أو قبول أو رد ، أو وصل أو هجر ، أو قرب أو بعد ، أو تلهف على فائت ، أو تعطش إلى منتظر ، أو شوق الى ورد ، أو طمع أو يأس ، أو وحشة أو أنس ، أو وفاء بالوعد ، أو نقض للعهد ، أو خوف من فراق ، أو فرح بوصال ، أو ذكر ملاحظة الحبيب ، ومدافعة الرقيب ، إلى غير ذلك مما تشتمل عليه الأشعار ، فلا بد أن يوافق بعضها حالا فى نفسه ، فيورى زناد قلبه

ولهؤلاء وضع الغزالى الآداب الآتية

(١) مراعاة الزمان ، والمكان ، والإخوان : فليس له أن يسمع وقت شغل القلب ، ولا فى شارع مطروق ، أو موضع كريه ، أو مع قوم من أهل الدنيا يحتاج إلى مراقبتهم ، ومراعاتهم

(٢) أن يكون مصغيا الى ما يقول القائل ، حاضر القلب ، قليل الالتفات الى الجوانب ، متحرزا عن النظر الى وجوه

المستمعين ، وما يظهر عليهم من أحوال الوجد ، مشتغلا بنفسه ، ومراعاة قلبه

(٣) أن لايقوم ، ولا يرفع صوته بالبكاء ، وهو يقدر على ضبط نفسه . ولكن إن رقص أو تباكى بغير قصد الرياء فهو مباح

(٤) موافقة القيام فى القيام ، إذا قام واحد منهم فى وجد صادق من غير رياء وتكلف ، أو قام باختياره من غير وجد ، وقامت له الجماعة ، فلا بد من الموافقة ، رعايةً لأدب الصحبة

وهناك أدب خامس وضعه الغزالى خاصا بالشيخ المرشد ، وهو ملاحظة المريدين ، فينبغى أن لايسمع فى حضورهم ، إذا كان فيهم من لم يدرك من الطريق الا الأعمال الظاهرة ، ولم يكن له ذوق السماع ، أو رزق ذوق السماع ، ولكن فيه بقية من الحظوظ والالتفات الى الشهوات ، والصفات البشرية ، أو كُسِرت شهوته ، وأُمنت غائلته ، وانفتحت بصيرته ، واستولى على قلبه حب الله ، ولكنه لم يُحكِم ظاهر العلم ، ولم يعرف أسماء الله وصفاته ، وما يجوز عليه وما يستحيل

الرقص

وقد رأينا الغزالى يبيح الرقص ، ولكن أى رقص ؟ هو مايجرى فى مجالس الغناء الذى قصد به الحث على العمل للآخرة ،

وما نحسبه يمنع أن يرقص الرجل فى مجلس تغنيه فيه امرأته أو جاريته .
وعلى كل حال فلنسجل هنا أن الرقص والغناء يجب فيما يرى الغزالى أن يكونا بعيدين كل البعد عن مثار الشهوات . وما نريد أن نفصل أثر هذا التحرُّج في حياة الأمم ، وإنما ننبه فقط على أن الغزالى يضع حول الشهوة أسواراً من حديد ، ولا تُخرج الاخلاق عنده إلا رجالا مملوئين بالحيطة ، قد بُغِّضت اليهم بسمات الحياة ، وقلما ينجح هؤلاء فى ميدان الحياة ، لأن التنسك باب الخمود

النقش والتصوير

أراد الغزالى أن يذم (الطب ، والحساب ، واللغة ، والشعر ، والنحو ، وفصل الخصومات ، وطرق المجادلات) بسبب ماتورث من الكبر ، فلم يزد على أن قال (وهذه بأن تسمى صناعات أولى من تسمى علوما [(١)])

إذن الصناعات دون العلوم ، وإنما كان الطب والحساب الخ من الصناعات ؛ لأن العلم فيما يرى الغزالى هو ما يوصل الى الآخرة ، ومايخص الدنيافهو صناعة . وقدنص على أن من الصناعات ما هى مهمة ، ومنها ما يستغنى عنها لرجوعها الى طلب التنعم والتزين فى الدنيا) من أجل ذلك حض المسلم على أن يشتغل بصناعة مهمة ،

(١) انظر ص ٣٥٢ ج ٣

ليكون بقيامه بها كافياً عن المسلمين مهمًا فى الدين . ثم قال

« وليجتنب صناعة النقش والصياغة ، وتشييد البنيان بالجص ، وجميع ما تزخرف به الدنيا ، فكل ذلك كرهه ذوو الدين [1] »

وقد عدّ بيع أشكال الحيوانات المصورة فى أيام العيد لأجل الاطفال منكراً تجب إزالته « والصور التى تكون على باب الحمام أو داخل الحمام تجب ازالتها على كل من يدخله ان قدر ، فان كان الموضع مرتفعا لا تصل اليه يده فلا يجوز له الدخول الا لضرورة ، وليعدل الى حمام آخر ، فان مشاهدة المنكر غير جائزة . ويكفيه أن يشوه وجهها ويبطل به صورتها[2] »

« ولا يمنع من صور الأشجار وسائر النقوش سوى صورة الحيوان ... وأما الصور التى على النمارق ، والزرابي المفروشة ، فليس منكرا . وكذا على الاطباق والقصاع ، لا الأوانى المتخذة على شكل الصور ، فقد تكون رءوس بعض المجامر على شكل طير فذلك حرام يجب كسر مقدار الصورة منه (؟) »

على أن كلمة الغزالى لم تكن واحدة فيما يخص البناء والزخرفة ، فقد رأيت كيف بين أن تشييد البنيان ، وكل ما تزخرف به الدنيا ، كرهه ذوو الدين ، ومع هذا قال بعد « وفعل ذلك ممن له مال كثير

---

(١) ٧٩ ج ٢ (٢) وضع فضيلة الاستاذ الشيخ النجار بهامش نسخته ما يأتى : لعل الشيخ محمد صائم الدهر الذى شوه وجه أبى الهول وغيره من الصور وجعل أكبر همه ذلك قد سرى اليه هذا الفكر من إحياء الغزالى وقد رأيت فى بعلبك صورا فى الرواق المحمول على الاعمدة وهى مشوهة ، وقيل لنا إنها شوهت من أيام دخول العرب ذلك البلد . وشاهدت كذلك صورة البعل وهو معبود أهل ذلك البلد قديما مشوهة ، وهو وجه انسان بصورة أسد

ليس بحرام ، لأن التزيين من الأغراض الصحيحة . ولم تزل المساجد تزين وتنقش أبوابها وسقوفها مع أن نقش الباب والسقف لا فائدة فيه الا مجرد الزينة فكذا الدور »

واذا كان التزيين من الأغراض الصحيحة ، فكيف تكون صناعته غير مهمة [1] ؟

خلاصة هذا البحث

ونرى مما سلف أن النقش مكروه ، وأنه لايجوز تصوير الحيوان ، ولا حرج فى استعمال النمارق والزرابى المصورة ، بصورة الحيوانات طبعا ، لانها موضوع الاستثناء . ويظهر أنها استثنيت لان الصور فيها ستصير ممتهنة بالاستعمال ، وعلى الأخص الاطباق والقصاع . وهو يتبع فى هذا الرأى جمهور الفقهاء ، إذ يرون التصوير داعيا الى الوثنية . وقد نهوا عما يذكر بعبادة الأوثان

ولا يفوتنا فى ختام هذا الباب أن ننبه إجمالا على أن الغزالى لم يعن بتربية الأذواق ، وهذه الآراء التى قدمناها له فى الفنون الجميلة تدل على إهماله هذا الجانب من بناء الأخلاق

ومما يلاحظ أنه يغشّى بعض النظرات الدقيقة فى كتبه

(١) كأنى بالرجل ينظر الى الشيء نظرة علمية فيقضى بعدم الضرر فيه اذا كان على حد الاعتدال وينظر اليه نظرة صوفية فيكرهه . وهذا منشأ الاضطراب الظاهرى لان الكلام فى موضوعين
عبد الوهاب النجار

بأخبار وأقاصيص تحمل القارئ حملاً على ازدراد الزهادة ، والإخلاد الى الخمول . وأكرر ما قلته غير مرة من أن فى هذا الشطط شيئاً من الحق ، وهو الحرص البالغ على السلامة ، والنفرة المطلقة من مواطن الشبهات . ولهذا القصد محاسن ، وفيه كذلك كثير من العيوب

الفصل الثالث

تربية الأطفال

يسميها الغزالى رياضة الصبيان ، وكانت كلمة صبى فى التعابير القديمة تقابل كلمة طفل فى التعبير الحديث ، وكذلك كلمة صبية تقابل كلمة طفلة أو فتاة ، فكانوا يقولون دخلت عليه صبية حسناء كما نقول فتاة حسناء

وقد سبقت كلمتنا فى وراثة الأخلاق عن فطرة الأطفال ، فلا نعود إليها الآن ، وإنما نذكر المنهج الذى وضعه الغزالى لتربية الطفل ، وهو تفصيل لما أجملناه فى واجبات الآباء

فيجب على الوالد فيما يرى :

(١) أن يؤدب ابنه، ويهذبه، ويعلمه محاسن الأَخلاق، ويحفظه من قرناء السوء

(٢) وأن لايحبّب إليه الزينة، وأسباب الرفاهية، لئلايتعود التنعم: فيعسر تقويمه بعد ذلك

(٣) وإذا رأى فيه مخائل التمييز، وبوادر الحياء، فليعلم أن عقله مشرق، وأن تنمية هذه الباكورة من عزم الأُمور، وأحسن ماتنمى به أن تستعان فى تأديبه وتهذيبه

(٤) وليعلم أن أول ما يغلب على الطفل شره الطعام، فينبغى أن يؤدّب فى ذلك، وأن يُعَوَّد أخذ الطعام بيمينه، والبدء باسم الله، والأَخذ مما يليه، وعدم السبق إلى الطعام، وعدم تحديق النظر اليه، وإلى من يأكل معه، والتمهل فى الأَكل وإجادة المضغ، وعدم الموالاة بين اللقم، والحذر من تلطيخ اليد والثوب، وتعوُّد الخبز القَفَار فى بعض الأَوقات، حتى لايرى الأُدم حتما[1]

(٥) وينبغى أن يُقبّح عنده كثرة الأكل، بذم الطفل الشره ومدح المتأدب القليل الأَكل، وأن يحبّب إليه الإيثار بالطعام وقلة المبالاة به، والقناعة بأى طعام كان

(٦) وأن يحبب إليه الابيض من الثياب، دون الملون، وأن

(١) الخبز القفار هو الذي لا أدم فيه

يُفهمه أن تلوين الثياب ليس عادة الرجال ، وإنما هو عادة النساء والمخنثين ، وأن يحفظه من مخالطة الأطفال الذين عُوِّدُوا التنعم ولبس الثياب الفاخرة ، ومن مخالطة كل من يسمع منه مايرغّب فى ذلك

(٧) وإذا ظهر من الطفل فعل محمود ، فينبغى أن يجازى عليه بما يفرح به ، وأن يمدح أمام الناس ، فإن أساء مرة فيجمل بالوالد أن يتغافل عنه ، ولا يكاشفه ، ولا سيما إذا تستّر الطفل واجتهد فى الاخفاء ، فان مكاشفته قد تزيده جسارة وعدم مبالاة . فان عاد فليعاتب سرا ، وليُحَذَّر عواقب الافتضاح ، وليكن العتب قليلا لئلا يهون على الطفل وقع الملام ، وسماع التأنيب ، وركوب القبيح

(٨) وينبغى أن يمنع من النوم نهاراً ، فان ذلك يورث الكسل ولا يمنع منه ليلاً ، ولكن يمنع الفراش الوثير ، لتصلُب أعضاؤه ويعوَّد خشونة الفراش

(٩) ويجب أن يمنع من كل مايفعله خفية ، فانه لايخفى إلا مايعتقد أنه قبيح

(١٠) وليُعَوَّد المشى فى بعض النهار ، لتحبَّب إليه الحركة والرياضة

(١١) وليمنع من كشف أطرافه

(١٢) وينبغى أن يمنع من الافتخار على أقرانه بشئ مما يملكه والداه ، أو بشئ من مطاعمه وملابسه ، أو لوحه ودواته ، بل يُعَوّد التواضع ، وطيب الحديث

(١٣) ويجب أن يُعلّم أن الرفعة فى الإعطاء لا فى الأخذ وأن الأخذ لؤم ، وخسة ، ودناءة ، إن كان غنياً ؛ وذلة ، ومهانة ، إن كان فقيراً : فلا يصح أن يأخذ شيئاً من الا طفال

(١٤) وينبغى أن يعوّد أن لا يبصق فى مجلسه ، ولا يتمخط ، ولا يتثاءب بحضرة غيره ، ولا يستدبر سواه ، ولا يضع رجلا على رجل ، ولا يضع كفه تحت ذقنه ، ولا يسند رأسه بساعده ويعلّم كيفية الجلوس ، ويمنع كثرة الكلام

(١٥) ويجب أن يُمنع القسم ، صادقاً كان أو كاذباً ، لئلا يعتاد ذلك

(١٦) وليعوّد أن لا يتكلم إلا مجيباً ، وبقدر السؤال ، وأن يحسن الاستماع إذا تكلم غيره ممن هو أكبر منه سنا ، وأن يقوم لمن فوقه ، ويفسح له المكان

(١٧) ويجب أن يمنع من لغو الكلام ، ومن اللعن ، والسب

(١٨) وليعود الصبر إذا ضربه المعلم ، فلا يكثر الصراخ ،

ولا يستشفع بأحد ، وليذكر له أن الصبر دأب الشجعان والرجال وأن كثرة الصراخ دأب المماليك والنساء

(١٩) وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من المكتب باللعب الجميل يستريح به ؛ فإنّ منع الصبي من اللعب يميت قلبه ، ويخمد ذكاءه ، ويحمله على الاحتيال للخلاص من الكتّاب

(٢٠) وينبغي أن يُعلم طاعة والديه ، ومعلمه ، ومؤدبه ، وكل من هو أكبر منه سناً من قريب وأجنبي

(٢١) وإذا بلغ سن التمييز ، فينبغي أن لا يسامح في ترك الطهارة ، والصلاة ، ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان ، ويعلَّم كل مايحتاج إليه من أمور الشرع

(٢٢) وليخوَّف من السرقة ، وأكل الحرام ، ومن الخيانة ، والكذب ، والفحش ، وكل مايغلب على الأطفال

هذه خلاصة ماوضع الغزالي في التربية . وما أنكر أن فيها شيئاً من التكرار . وأرى أنه في مثل هذه المواطن جميل

وإنما ألاحظ أنه لامعنى لأن تحبب إلى الطفل الثياب البيض بنوع خاص . ويظهر أن هذه كانت سنة حسنة إذ ذاك[1] . وألاحظ

---

(١) يرى الاستاذ عبده بك خير الدين أن لبس الثياب البيض فيه دعوة ضمنية إلى النظافة . لان الثوب الابيض يعلن عن نفسه حين يحتاج الى التطهير

كذلك أنه لايصح أن يعلم الصبى أن هناك فئة مخنثة تميل إلى الملوّن من الثياب، فقد يحسن أن لاتُطرق آذان الصبى بمثل هذا الهُجْر ، بل يجب أن لايعرف أن الطفل قد يتخلق بأخلاق النساء . ولا أفهم معنى لأن يدعى الطفل إلى عدم إرخاء يديه ، بل يضمهما إلى صدره حين يمشى ! ويضحكنى أن ينصح الطفل بالصبر والاحتمال حين يضربه المعلم ، وكان أولى له أن ينهى عن هذه العادة الشنعاء ، التى لاتجمُل بالمعلمين (١)

ومن أدق ماتنبه له الغزالى تلميحه إلى أن يعلم الطفل أسرار البلوغ حين يصل إليه

والغزالى يسمى المدرسة بالمكتب والكتّاب ، وليس له فى هذا الباب غير برنامج ضئيل ، يمثل ما كان يفهم فى عصره من المدارس الأولية والابتدائية . ويتلخص هذا البرنامج (فى تعلم القرآن ، وأحاديث الأخيار ، وحكايات الأبرار) ولم تخطر له الرياضة ببال . ولم يتعرض للغة والأدب ، ولكنه نبه على أن الطفل يجب أن « يُحفظ من الاشعار التى فيها ذكر العشق وأهله ويُحفظ من مخالطة

(١) وضع فضيلة الاستاذ الشيخ النجار بهامش النسخة التى كانت بيده ما يأتى : إن أطفال أهل السودان فيهم هذه العادة على أتمها فانهم يعودون عدم البكاء والصراخ مهما حل بالواحد منهم من الالم . ومن فعل ذلك عير . بل كثيرا ماتجد الطفل يأخذ جمرة النار فيضعها على ساعده ويذهب الى أمه ليريها صبره على بقاء النار تأكل فى جسمه دون إظهار تألم قائلا : ابشرى يا أمى أنا أخو البنات

الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع ، فان ذلك يغرس في نفوس الصبيان بذور الفساد »

والغزالى يُعِدّ الطفل فى الواقع لأن يكون جنديًا فى الحياة إذ يحرم عليه كل مظاهر اللين . وإن كان لم يغفل عن غايته الاخلاقية حين أوصى بأن يعلم أن الموت منتظر فى كل ساعة ، وأن العاقل من تزود من دنياه لأخراه . وأرى هـذه الوصية خطرة ، إذ تضعف العزم فى نفوس الأحياء ، ولا تترك للاسلام نفسه جيشًا يُحفظ به ثغر ، أو يُفتح به قطر ، وما كان الاسلام إلا دين الغزاة الفاتحين

تربية البنات

لم يتكلم الغزالى عن تربية البنات ، وكان عليه أن يهبهنّ نصيبًا من عنايته . ولـكن الرجل تأثر بعصره ، وبقومه ، فقـد كانت تربية البنات مما لايهتم به الأولون

وسترى حين نتكلم عن حقوق المرأة أنه يحتّم على الرجل أن يعلم زوجه ، فان لم يعرف ناب عنها فى سؤال العلماء ، ولـكنك سترى كذلك أن هذا العلم الواجب على الرجل لامرأته لايزيد عن معرفة الفرائض من صلاة وصيام . ومعرفة الفرائض هذه لاتفيد المرأة شيئًا فى الحياة المنزليـة ، وهى العبء الملقى على عواتق النساء

الفصل الرابع

آداب المعلمين

قد رأيت المنهج الذى وضعه الغزالى لتربية الطفل ، ورأيت ما خطه لبرنامج التدريس فى المكاتب الصغيرة ؛ والآن نقفك على رأيه فى تربية الطلاب ، ونريد بهم من رأوا الاستزادة من العلم بعد انقضاء ذلك الأمد القصير ، الذى أُعِدّ للأطفال

والغزالى كان أستاذا فى المدرسة النظامية ، وكان يختلف الى الى درسه ثلثمائة من التلاميذ ، وكان له بالطبع زملاء ، وكان لهؤلاء الزملاء تلاميذ ، فمن البعيد أن لا تكون هذه الحركة ألهمته البحث فى التعليم من حيث إنه مهنة ، وهو قد ابتلى بمهنة التعليم !

ولقد تكلم الغزالى عن التعليم ، وأطال فى كتاب الإحياء ، وتكلم عنه فى الاملاء على ما أشكل من الاحياء ، وذكر أنه (أفضل من سائر الحرف والصناعات) وبيّن وجه هذه الأفضلية بالتفصيل

وكل ماتُقيد به هذه الحرفة فيما يرى أنه يجب أن يقصد بها وجه الله ، ويقول فى ذلك (وإنما المعلم هو المفيد للحياة الأخروية

الدائمة ، أعنى معلم علوم الآخرة ، أو علوم الدنيا على قصد الآخرة ، لا على قصد الدنيا . فأما التعليم على قصد الدنيا فهو هلاك وإهلاك نعوذ بالله منه)[١]

وعلوم الدنيا هى فى رأيه مايشمل الطب والحساب والهندسة وتقويم البلدان ، وعلى الجملة كل ماعدا العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم والآخر . فالذى يعلم علوم الدنيا هذه هو بلاشك محترف ، ويكفى أن يقصد بتعليمه الآخرة ، ليكون من الناجين

أضف إلى هذا ان الغزالى — لورعه — يشبه العلم بالمال ، فكما أن لصاحب المال حال استفادة ، وحال ادّخار ، وحال إنفاق على نفسه ، وحال بذل لغيره ، وهو أشرف أحواله ، فكذلك لصاحب العلم حال طلب ، وحال تحصيل ، وحال استبصار ، وحال تبصير ، وهو أشرف الأحوال

والتبصير هو التعليم . والغزالى لاينكر أن يكون المرء معلما ، فقد كان من المعلمين ، وإنما يطالب المعلم بتعليم علوم الآخرة ، أو علوم الدنيا على قصد الآخرة ، وسترى فيما يذكر من آداب المعلم عدم أخذ الأجر ، ولكن هذا لايقدح فى نظره إلى التعليم كمهنة ، فانه يكفينا أن يدرك أن التعليم صناعة ، تحتمل

(١) ص ٦٠ ج ١

الإجادة، كما تحتمل القصور، وأنه يجب على المعلم كيت وكيت، ليحسن أداء مهمته، على وجه نافع مقبول

وقد وضع للمعلم الآداب الآتية:

(١) أن يشفق على المتعلمين، ويجريهم مجرى بنيه. ويقول الغزالى فى توابع هذه البنوة: وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابُّوا ويتعاونوا على المقاصد كلها، فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد، التحاب والتواد

(٢) أن يقتدى بصاحب الشرع، صلوات الله عليه وسلامه، فلا يطلب أجراً على إفادة العلم، ولا يقصد به جزاءً ولا شكورا

(٣) أن لايدع من نصح المتعلم شيئاً، وذلك بأن يمنعه من التصدى لرتبة قبل استحقاقها، والتشاغل بعلم خفىّ قبل الفراغ من العلم الجلىّ

(٤) أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق، بطريق التلميح والرحمة، لابطريق التوبيخ، فان التصريح يهتك حجاب الهيبة، ويورث الجرءة على الهجوم بالخلاف، ويهيج الحرص على الإصرار

(٥) أن لايقبّح فى نفس المتعلم العلوم التى وراء علمه: فليس لمعلم اللغة أن يقبّح فى نفس المتعلم علم الفقه مثلا، بل ينبغى أن يوسع عليه طريق التعليم فى غيره. وإن كان متكفلا بعدة علوم

فينبغي أن يراعى التدريج فى ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة

(٦) أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه، ولا يلقي اليه مالا يبلغه عقله

(٧) أن يلقى للمتعلم القاصر الجلىّ اللائق به ، ولا يذكر له أن وراء هذا الجلىّ تدقيقا يدّخره عنه

(٨) أن يعمل بعلمه : فلا يكذب قولُه فعله . وهذا الأدب الأخير غير خاص بالمعلمين ، ولكنهم أحوج الناس اليه ، وأولاهم به ، إذ كانوا مرشدين ، ومن حسن السياسة على الاقل أن يعمل المرشد بما يقول

(٩) أن يجمّل نفسه كى يعظُم فى نفوس طلبته فلا يستصغروه ولم يذكر الغزالى هذا فى آداب المعلم . ولكن ذكره استطرادا فى باب النظافة حيث قال (كان رسول الله مأمورا بالدعوة ، وكان من وظائفه أن يسعى فى تعظيم أمر نفسه فى قلوبهم كيلا تزدريه نفوسهم . ويحسن صورته فى أعينهم كيلا تستصغره عيونهم . وهذا القصد واجب على كل عالم تصدى لدعوة الخلق الى الله : وهو أن يرعى من ظاهره مالا يوجب نفرة الناس عنه)

(١٠) أن ينظر فى نية المتعلم : فان رآها حسنة علمه ، وإن رآها سيئة أعرض عنه . فلا يجوز فيما يرى الغزالى أن نعلّم من نرى فى أقواله ، أو أفعاله ، أو مطعمه ، أو ملبسه ، أو مسكنه ، مايدل

على فساد نيته ، وسوء قصده . ولا يكفى فيما يرى الغزالى أن يقول المعلم : انما أريد نشر العلم ، وللمتعلم بعد ذلك الخيار ، إن شاء أحسن وإن شاء أساء ، بل يشبهه بمن يهب سيفاً لقاطع الطريق ، ثم يقول : إنما أريد السخاء والتخلق بأخلاق الله الجميلة ، وأن أعينه على الجهاد ، فان استعمل السيف فى الأذى فهو وحده المسئول

وربما كان يحسن بالغزالى أن ينصح المعلم ببذل الجهد فى غزو الغرائز السيئة التى يراها فى تلميذه ، فأما الضنّ عليه بالعلم فهو فيما أرى هروب من الواجب ، وعمل سلبىّ لايغنى ولا يفيد

الفصل الخامس

آداب المتعلمين

وعلى المتعلم مايأتى من الواجبات :

(١) أن يقدم طهارة النفس من رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف

(٢) أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا ، ويبعد عن الأهل والوطن ، فانه مهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق

(٣) أن يذعن لنصيحة المعلم إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق

(٤) أن يحترز فى مبدإ أمره عن الإصغاء إلى اختلاف الناس فان ذلك يحير ذهنه ، ويفتر رأيه ، بل عليه أن يتقن أولاً طريقة أستاذه ، ثم يصغى بعد ذلك إلى الشبه والمذاهب

(٥) أن لا يدع فناً من الفنون المحمودة إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته ، ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه ، وإلا اشتغل بالأهم واستوفاه ، وتطرّف من البقية

(٦) أن لا يخوض فى فن من الفنون دفعة ، بل يراعى الترتيب

(٧) أن لا يخوض فى فن حتى يستوفى الفن الذى قبله ، فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضروريا وبعضها طريق إلى بعض . وهذه الطريقة فيما أرى إنما تصلح فى الفنون التى كان يعرفها الغزالى إذ ذاك ، فمن الواضح أن الفقه مثلا طريق للأصول ، ولكن هل يصح لدينا الآن أن المنطق طريق الحساب أو أن النحو طريق الجغرافيا ووصف الشعوب؟

(٨) أن يعرف أن شرف العلم إنما يرجع إلى شرف الثمرة أو قوة الدليل فعلم الدين فيما يرى الغزالى أشرف من علم الطب ، لأن ثمرة الأول السعادة الأخروية ، وثمرة الثانى السعادة الدنيوية

والآخرة خير من الأُولى . وعلم الحساب أشرف من علم النجوم لقوة أدلته . وعلم الطب أشرف من علم الحساب ، لأن الثمرة أولى من قوة الدليل

وربما كان يحسن أن يتنبه الغزالى إلى أن للحساب ثمرة لا تقل شأناً عن وثاقة دليله، ولكن عذره أنه عاش فى عصر قد غاب عن إنسانه أنه خلق لتعمير الوجود



« مقلمة للغزالى موجودة بدار التحف العربية بالقاهرة »

الباب العاشر

في

الحقوق والواجبات

الحق هو مالك ، والواجب هو ماعليك . فتقول : من حق أن أتعلم ، ومن واجبي أن أعمل بما أعلم

ولكن الغزالي يضع كلمة حق ، موضع كلمة واجب . وربما استغنى عنهما جميعاً بكلمة أدب

وقد فصل الغزالي حقوق المرء نحو نفسه ، ونحو ربه ، ونحو أخيه ، ونحو جاره ، ونحو والديه ، ونحو أبنائه ، وبيّن آداب التاجر ، والصانع ، والمسافر ، وكاد يستوعب ماللمرء ، وماعليه

ونحن ذاكرون خلاصة تمثل وجهة نظره في الحقوق والواجبات ، ليعرف القارئ اتجاه الفكر الاسلامي في ذلك الحين

١

واجب المرء نحو نفسه

يجب على المرء فيما يرى الغزالي أن يجتهد في أن لايراه مولاه حيث نهاه ، وأن لا يفقده حيث أمره ، ولن يقدر على ذلك إلا

بتوزيع أوقاته ، وترتيب أوراده ، من صباحه إلى مسائه

ويحسن فيما يرى الغزالى أن يستيقظ المرء قبل طلوع الفجر ، وأن يكون أول مايجرى على لسانه ذكر الله . وأن لايترك السواك : فانه مطهرة للفم ، ومرضاة للرب ، ومسخطة للشيطان

ولا يفوتنا أن نقرر أن عناية الغزالى بالحث على ماتدعو إليه الشريعة الاسلامية من الوضوء والغسل وما إليهما من أنواع الطهارة ، إنما هو دعوة صريحة إلى الحياة . فان الاسلام بفرضه الوضوء عند كل صلاة ، والغسل عند الاحتلام والوقاع ، انما يرفع عن الناس آصار البطالة والخمول

ولا يعلم إلا الله ما كانت تصل إليه حالة الشرق لولم ينتشر فيه الاسلام ، فإنه يعوض على أهله مافات أكثرهم من سلامة الذوق ، إذ لايعرفون للنظافة قيمة ، ولا يقيمون للطهارة وزنا . حتى لتجد من العلماء من ينص على أن نية النظافة تقلل من قيمة الوضوء ، لأن الطهارة فى نظرهم عبادة آلية ، لاتتعلق بها الأغراض ، وسبحان من وهب العقول !!

غير أننا لانوافق الغزالى فيما ذكر من آداب النوم ، إذ يحض المرء على أن ينام على يمينه كما يضطجع الميت فى لحده ، وأن يتذكر أن النوم مثل الموت ، واليقظة مثل البعث ، ولعل الله يقبض

روحه فى ليلته ، وأن ينام على طهارة ،وأن تكون وصيته مكتوبة تحت رأسه ، الخ

وما كنت لأوافق الغزالى على ذلك ، لأنه يجب إقصاء فكرة الموت عن الأحياء ، فان التفكير فى الموت مدعاة إلى الزهادة والجمود . وهو كذلك نقص فى العزائم . وخمود فى القرائح

وهناك سبل أخرى غير الموت للحض على الطيبات ، فلماذا لانزيّن الخير للناس ، ببيان ما يفعل الخير فى رفعة الأقدار ، وسموّ النفوس ؟

وقد فصّل الغزالى آداب المرء نحو نفسه فى أكثر كتبه فى الأخلاق . ولا عيب عليه غير الافراط فى تحقير الدنيا ، وهو عيب فظيع ، فان الدنيا أجل وأعظم مما يتصور هو وأمثاله ممن يرون الموت من جملة الأرزاق !

وهل كان الله عابثاً يوم خلق هذه الدنيا الجميلة ، التى رميتم عشّاقها بالإثم والفسوق ؟

٢

واجب المرء نحو اخوانه فى الدين

وضع الغزالى عدة آداب للرجل مع أخيه فى الدين ، بعضها خاص بكيفية المعاملة ، والآخر خاص بتنقية النفس من الضغائن

وجزء منها يتعلق بتربية المرء على كف الأذى وإسداء المعروف

ويخطر بالبال هـذا السؤال : ألا يرى الغزالى وجوداً لغير المسلم ؟ وإلا فما رأيه فى معاملة من ليسوا بمسلمين ؟

وفى جواب هذا السؤال نذكر ما جاء فى إحدى فتاويه (١) من أن الذمى كالمسلم فيما يرجع إلى الإيذاء . لأن الشرع عصم دمهم وأموالهم . فيفهم من هذا أن الذمى والمسلم يعاملان معاملة تكاد تكون واحدة ، وان لم ينص على ذلك فى الاحياء

وإلى القارئ خلاصة ماعلى المسلم لأخيه من الواجبات :

(١) أن لا يؤذى أحداً منهم بفعل أوقول

(٢) أن يتواضع لكل منهم ، ولا يتكبر عليه

(٣) أن لايزيد فى الهجر لمن يعرفه على ثلاثة أيام ، مهما غضب عليه

(٤) أن يحسن إلى كل من قدر على الاحسان إليه منهم ، بلا تمييز

(٥) أن لا يدخل على أحد منهم إلا باذنه ، بل يستأذن ثلاثاً فان لم يؤذن له انصرف

(٦) أن يخالق الجميع بخلق حسن ، ويعامل كل امرئ بحسب

(١) انظر ص ١٥ ج ١ من شرح الزبيدي

طريقته : فانه إن أراد لقاء الجاهل بالعلم ، والأُمّيّ بالفقه ، والعَيِيّ بالبيان ، آذى وتأذى

(٧) أن يوقر المشايخ ، ويرحم الصبيان

(٨) أن يكون مع الكافة مستبشراً طلق الوجه رفيقاً

(٩) أن لا يعد مسلماً بوعد إلا ويفي به

(١٠) أن ينصف الناس من نفسه ، فلا يعاملهم إلا كما يحب أن يعاملوه

(١١) أن يزيد فى توقير من تدل هيئته وثيابه على علو منزلته

(١٢) أن يصلح ذات البين مهما وجد إلى ذلك سبيلا

(١٣) أن يستر عورات المسلمين كلهم . وقد استشهد الغزالى بهذا الحديث البديع (يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الايمان قلبه ! لا تغتابوا الناس ولا تتبعوا عوراتهم ، فانه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو كان فى جوف بيته)

(١٤) أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين إلى من له عنده منزلة ، ويسعى فى قضاء حاجته بما يقدر

(١٥) أن يصون عرض أخيه المسلم ، ونفسه ، وماله ، عن ظلم غيره ، مهما قدر . ويرد عنه ، ويناضل دونه ، وينصره ، قياماً بأخوّة الإسلام

(١٦) أن يتقى مواضع التهم ، صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن ، ولألسنتهم عن الغيبة

(١٧) أن يحامل أخاه ويواسيه إذا بُلى بشر

(١٨) أن يجتنب مخالطة الأغنياء ، ويختلط بالفقراء والمساكين

ويرى القارئ فى هذه الحقوق شيئاً من التكرار . وهذا أيضاً يمثل وجهة الغزالى فى الأخلاق : فهو كثير الحذر ، شديد الحيطة ، ولا يزال بالمعنى يردده فى كتبه ، بل فى الكتاب الواحد حتى يرسخ فى نفس المستفيد .

٣

حقوق الجوار

ويرى الغزالى أن الجوار يقتضى حقا وراء ماتقتضيه أخوة الاسلام ، فيستحق الجار المسلم ، مايستحقه المسلم وزيادة ، ويروى قوله عليه السلام (الجيران ثلاثة : جار له حق واحد ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق . فالجار الذى له ثلاثة حقوق الجار المسلم ذو الرحم : فله حق الجوار ، وحق الاسلام ، وحق الرحم ؛ وأما الذى له حقان فالجار المسلم: له حق الجوار ، وحق الاسلام ؛ وأما الذى له حق واحد فالجار المشرك)

ويقول تعليقاً على هذا الحديث : فانظر كيف أثبت للمشرك حقاً بمجرد الجوار !

وقد وضع للجار ما يأتى من الواجبات :

(١) أن يبدأ جاره بالسلام

(٢) وأن لا يطيل معه الكلام

(٣) وأن لا يكثر عنه السؤال . ولا يتبعه النظر فيما يحمل إلى داره

(٤) وأن يعوده فى المرض

(٥) وأن يعزيه فى المصيبة ، ويقيم معه فى العزاء

(٦) وأن يهنئه فى الفرح . ويظهر الشركة فى السرور معه

(٧) وأن يصفح عن زلاته ، ولا يسمع فيه كلاما

(٨) وأن لا يطلّع من السطح على عوراته ، بل يستر ماينكشف له

(٩) وأن لا يضايقه بوضع الجذع على جداره

(١٠) وأن لا يصب الماء فى ميزابه ، ولا يطرح التراب فى فنائه

(١١) وأن لا يضيّق طريقه إلى الدار

(١٢) وأن ينعشه من صرعته إذا نابته نائبة

(١٣) وأن لا يغفل عن ملاحظة داره فى غيبته

(١٤) وأن يغض بصره عن حرمته ، ولا يديم النظر إلى خادمته

(١٥) وأن يتلطف لولده فى كلمته

(١٦) وأن يرشده إلى ما يجهله من أمر دينه ودنياه

يقول الغزالى : هذا الى جملة الحقوق التى ذكرناها للمسلمين ، ولم يستثن المشرك فى جملة هذه الحقوق ، ولكنك رأيت أنه خص الذميين بهذه المساواة ، إذ كان ايذاء الحربى عنده غير حرام

٤

حقوق الأقارب

ثبت حق المشرك بالجوار . وكذلك يثبت حقه بالقرابة . ويروى الغزالى فى هذا أن أسماء بنت أبى بكر قالت : قدِمت علىّ أمى ، فقلت يارسول الله : إن أمى قدمت علىّ وهى مشركة ، أفأصلها ؟ قال نعم . وفى رواية أفأعطيها ؟ قال : نعم ، صليها

ومن الواضح أن القريب المسلم أو الجار يثبت له فوق حق القرابة ما يثبت بأخوة الاسلام وبالجوار من الحقوق

٥

حقوق الوالدين

يقول الغزالى : كيفية القيام بحق الوالدين تُعرف مماذكرنا فى حق الاخوة ، فان هذه الرابطة آكد من الأُخوة ، بل أكثر العلماء على أن طاعة الأبوين واجبة فى الشبهات ، وإن لم تجب فى الحرام المحض ، لأن ترك الشبهة ورع ، ورضاء الوالدين حتم

ويرى الغزالى أن ليس للانسان أن يبادر بالحج وهو فرض إلا بإذن والديه ، لان المبادرة نفل . وكذلك ليس له أن يخرج لطلب العلم الا بإذنهما ، ويستثنى علم الفرائض من الصلاة والصوم إذا لم يكن فى البلد من يعلمه . وليته عمم هذا الحكم فى جميع العلوم الضرورية فى الحياة .

وينقل الغزالى عن رسول الله أن لزوم الوالدة أفضل من الجهاد وهو يقدم الوالدة فى البر على الوالد

٦

حقوق الابناء

يجب على الوالد :

(١) أن يسمى ابنه اسما حسنا

(٢) وأن يؤدبه اذا بلغ ست سنين ، فاذا بلغ تسع سنين عزل

فراشه ، فاذا بلغ ثلاث عشرة سنة ضرب على الصلاة ، فاذا بلغ ست عشرة سنة زوّجه

(٣) وأن يعينه على بره ، فلا يحمله على العقوق بسوء عمله

(٤) وأن يسوى بين أولاده

(٥) وأن يبدأ بالاناث إذا حمل لأولاده طرفة من السوق

٧

واجب التاجر

وعلى التاجر فيما يرى الغزالى ما يأتى من الواجبات :

(١) أن لا يحتكر ، فيدّخر الطعام ينتظر به غلاء الأسعار وهذا مُطّرِد فى أجناس الأقوات . أما ما ليس بقوت ، ولا هو معين على القوت كالادوية ، والعقاقير ، والزعفران وأمثاله ، فلا يتعدى النهى إليه وإن كان مطعوماً . وأما ما يعين على القوت كاللحم والفواكه وما يسد مسد القوت فى بعض الأحيان وإن كان لا يمكن المداومة عليه ففيه نظر . ومن العلماء من طرد التحريم فى السمن والعسل والشيرج والجبن والزيت وما يجرى مجراه ؛ على أن احتكار الأطعمة جائز إذا استغنى الناس عنها ولم يُخش من احتكارها قحط . وبقدر درجات الاضرار تتفاوت درجات الكراهة والتحريم

وكان على الغزالى أن يبين حكم احتكار الأدوية إذا وجد وباء ، أو انتشر مرض من الأمراض . فقد تصبح الأدوية أهم من الأطعمة ، ويمسى احتكارها من عظائم الأمور[١]

(٢) أن لا يثنى على السلعة بما ليس فيها

(٣) أن لا يكتم من عيوبها وخفايا صفاتها شيئاً

(٤) أن لا يكتم فى وزنها ومقدارها شيئاً

(٥) أن لا يكتم من سعرها مالو عرفه المعامل لامتنع عنه

(٦) أن لا يروّج الزيف من الدراهم أثناء النقد ، إذ يستضر به المعامل إن لم يعرف ، وإن عرف فسيروجه على غيره . وهكذا دواليك ، ومن هنا وجب على التاجر تعلم النقد ، لا ليستقصى لنفسه فحسب ، ولكن لئلا يُسلّم إلى مسلم زيفاً وهو لا يدرى فيكون آثماً بتقصيره فى تعلم ذلك العلم

(٧) أن لا يغبن صاحبه بما لا يتغابن به فى العادة ، فأما أصل المغابنة فمأذون فيه ، لأن البيع للربح ، ولا يمكن إلا بغبن مّا ، ولكن يراعي فيه التقريب

(٨) أن يحسن نيته فى ابتداء التجارة : فينوى بها الاستعفاف

---

(١) ليس يستعصى على الانسان أن يفهم ذلك من كلام الغزالى : إذ هو يدير كلامه على محور واحد هو الرفق بالناس ورفع الحرج عنهم وعدم إرهاقهم بما يكون فيه مشقة عليهم
عبد الوهاب النجار

عن السؤال ، وكف الطمع عن الناس ، والقيام بكفاية الأولاد

(٩) أن يقصد القيام فى تجارته أو صنعته بفرض من فروض الكفايات ، فان الصناعات والتجارات لو تركت لهلك أكثر الناس

(١٠) أن لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة ، بأن يكون أول داخل فى السوق وآخر خارج منه ، وبأن يركب البحر فى التجارة ، ففى الخبر : لا يركب البحر إلا بحج أو عمرة أو غزو

هكذا يرى الغزالى . وهذه منه نزعة صوفية لا تأتلف مع واجب الرجل الاخلاق فى الحياة الاجتماعية . فللتاجر أن يكون أول داخل فى السوق وآخر خارج منه ، بل عليه ذلك ، وعليه أن يركب البحر فى التجارة ، وأن يسلك الى الربح كل سبيل . والحج والعمرة ، والغزو ، كل أولئك من وسائل الحياة . ولكن أكثر الناس لا يفقهون

(١١) أن لا يقتصر على اجتناب الحرام ، بل يتقى مواضع الشبهات ، ومظان الريب ، ولا ينظر الى الفتاوى ، بل يستفتى قلبه . واذا حُمِلت اليه سلعة رابه أمرها سأل عنها حتى يعرف وإلا أكل الشبهة

(١٢) أن يراقب جميع مجارى معاملته مع كل واحد من معامليه ويُعِد جوابه ليوم الحساب والعقاب

(١٣) أن يقيل من يستقيله ، فانه لا يستقيل الا متندم مستضِر بالبيع ، ولا ينبغى أن يكون سبب استضرار أخيه

(١٤) أن يخص فى معاملته جماعة من الفقراء بالنسيئة ، وهو فى الحال عازم على ألا يطالبهم إن لم تظهر لهم ميسرة

(١٥) أن يحسن فى استيفاء الثمن ، وسائر الديون ، فيتسامح مرة ، ويمهل مرة ، ويحط البعض مرة

وبعد سرد هذه الآداب ، لا يفوتنا أن ننوّه بعناية الغزالى بصالح الهيئة الاجتماعية ، فان التاجر الذى يتأدب بهذه الآداب تمسى تجارته ولا شك ربحاً عاما للناس ، ويصبح خادماً لأهل بلده من حيث لا يعلمون

هذا وجه الجمال فى هـذه الآداب التى خص بها التجار وما أنكر أن فيها جانباً من الضعف بإثقال التاجر بكثير من التكاليف الظاهرة ، والمستورة ، فى حين أنه يجب تمرينه على المخاطرة فى سبيل الحياة ، ولكن الغزالى لا يعدل بالسلامة شيئاً والسعيد عنده من نجا بدينه ، وإن خسر دنياه

٨

آداب المسافر

وضع الغزالى فصولا مطولة عن السفر ، وفوائده ، وآفاته

وعدَّه نوعا من الحركة والمخالطة . وبيّن الباعث عليه من هرب أو طلب ، وأطال فى ذلك وأجاد .

ونحن ذاكرون هنا طائفة مما وضع للمسافر من الآداب :

(١) أن يبدأ برد المظالم ، وقضاء الديون ، وإعداد النفقة لمن تلزمه نفقته ، وبرد ماعنده من الودائع ، ولا يأخذ لزاده إلا الحلال الطيب ، وليأخذ قدراً يوسع به على رفقائه

(٢) أن يختار رفيقاً ، فلا يخرج وحده ، وليكن رفيقه من أهل الدين ، فان المرء على دين خليله

(٣) أن يودِّع رفقاء الحضر ، والأهل ، والأصدقاء

(٤) أن يرحل من المنزل بكرةً فان الخير فى البكور

(٥) أن يجعل أكثر سيره بالليل ، فان الأرض تُطوى بالليل مالا تُطوى بالنهار

(٦) أن يحتاط بالنهار ، فلا يمشى منفرداً خارج القافلة ، فربما ينقطع ، أو يُغتال ، وأن يتحفظ عند النوم بالليل

(٧) أن يرفق بالدابة فلا يحملها مالا تطيق ، ولا يضربها فى وجهها ، وأن يروّحها بالنزول عنها غُدوةً وعشية

(٨) أن يحمل معه مرآة ، ومكحلة ، ومقراضاً ، ومسواكا ومُشطا ،وقارورة ، وركوة ، وحبلا

(٩) أن ينوى فى دخول كل بلدة أن يرى شيوخها ، ويجتهد فى أن يسمع من كل واحد كلمة ، أو أدبا ينتفع به

(١٠) أن لا يزيد على ثلاثة أيام فى زيارة أخ له ، وإذا زار أحد أساتذته فى سفره ، فلا يُقم عنده أكثر من يوم وليلة

(١١) أن يرجع من سفره إذا رأى فى نفسه نقصانا عما كان عليه فى الحضر

وأحب أن يتنبه القارئ إلى دقة هذا الأدب الأخير

٨

حقوق المرأة

لا يرى الغزالى ان المرأة تساوى الرجل ، بل يرى أن الرجل سيد المرأة . ويقول فيمن أطاع زوجه ، وملكها نفسه « انه عكس القضية . وأطاع الشيطان لما قال : ولآمرنهم فليغيرن خلق الله . إذ حق الرجل أن يكون متبوعاً لا تابعاً وقد سمى الله الرجال قوامين على النساء ، وسمى الزوج سيداً فقال : وألفيا سيدها لدى الباب . فاذا انقلب السيد مُسخراً فقد بدل نعمة الله كفراً [1] »

(١) إن النساء يغلب عليهن المزاج العصبي ، فهن يتأثرن بالتافه من الامور ويجعلن من الهفوة الصغيرة أمراً خطيراً ويصيرن الحبة من مخالفتهن قبة ويبنين علالي الشقاق على أوهن أساس . وهذا أمر لا يعرفه الا مجرب ممارس لاحوال الزوجات وبخاصة من كان لهن فى البيت نظائر ومنافسات كزوجة أخى الزوج وأخته ونحو ذلك من أم زوج وهكذا فهناك الشقاق الدائم والخصام الذى لا ينقضي . ولا دواء لذلك سوى أن يكون الزوج قاهر الحكم نافذ الكلمة مطاع الامر ، فاذا ضعف أو وهن فلا انقضاء لشقاء البيت

عبد الوهاب النجار

ولم يقتصر الغزالى على ذلك ، بل حكم على طبيعة المرأة حكما أقسى من الصخر ، فقد قال فى معرض الحديث عن أدب النساء (والغالب عليهن سوء الخلق وركاكة العقل) واستدل بحديث لا أعلم مبلغه من الصحة ، وهو قوله عليه السلام (مثل المرأة الصالحة كمثل الغراب الأعصم بين مائة غراب)

وإليك جملة ماوضع الغزالى للمرأة من الحقوق :

أولا — على الرجل أن يحسن الخلق معها ، وأن يحتمل الأذى منها ، ترحماً عليها لقصور عقلها . ويقول الغزالى : « واعلم أنه ليس حسن الخلق مع المرأة كف الأذى عنها ، بل احتمال الأذى منها ، والحلم عند طيشها وغضبها »

ثانياً — أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة ، والمزاح ، والملاعبة ، فهى التى تطيّب قلوب النساء . ويقول الغزالى « وقد كان رسول الله يمزح معهن ، وينزل الى درجات عقولهن فى الأعمال والأخلاق » وهذا تأكيد لرأيه فى طبيعة المرأة

ثالثاً — الاعتدال فى الغيرة ، فلا يتغافل الرجل عن مبادئ الأمور التى تخشى غوائلها ، ولا يبالغ فى إساءة الظن ، والتعنت وتجسس البواطن

رابعاً — الاعتدال فى النفقة ، فلا ينبغى أن يقتّر عليها

فى الإنفاق ، ولا ينبغى أن يسرف . ولا ينبغى ترك الحلوى بالكلية ، وينبغى أن يأمر الرجل أهله بالتصدق ببقايا الطعام ، وما يَفسُد لو ترك . وللمرأة أن تفعل ذلك بحكم الحال من غير إذن الزوج . ولا ينبغى أن يستأثر الرجل عن أهله بمأكول طيب ، فان ذلك ينافى المعاشرة بالمعروف

خامساً — على الرجل أن يعلّم زوجه أحكام الصلاة ، فان لم يعرف ناب عنها فى سؤال العلماء ، وليس لها أن تخرج لطلب العلم مادام الزوج لم يقصّر فى تعليمها الفرائض — فان قصّر فلها الخروج للاستفادة ، بل عليها ذلك ، ويعصى الرجل بمنعها . ومتى تعلمت الفرائض فليس لها أن تخرج لتعلّم فضل إلا برضاه . وللرجل الحق فى أن لا يُدخل عليها الرجال ، وأن يمنعها من الخروج إلى المساجد والأسواق

وهنا نلفت النظر الى أن الغزالى يقرر ويلح فى تحريم خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية ، ولم يفرق بين العلماء وغير العلماء ، والمرأة العجوز فقط هي التى يجوز لها عنده زيارة المساجد وان خالف ذلك بعض الشئ ما كان على عهد رسول الله . ويكاد يجزم بأن النبى لو شاهد أهل عصره لشدّد فى التضييق على المرأة

سادساً — إذا كان له نسوة فينبغى أن يعدل ، فاذا خرج

إلى سفر وأراد استصحاب واحدة أقرع بينهن ، والعدل واجب في العطاء والمبيت ، وأما في الحب والوِقاع فهو تكليف بما لا يطاق

سابعاً — إذا وقع بين الزوجين خصام ولم يلتئم أمرهما ، فان كان من جانبهما جميعاً أو من الرجل فلا بد من حكَمين : أحدهما من أهله والآخر من أهلها ، لينظرا بينهما ويصلحا أمرهما ، وليس للمرأة أن تتولى تأديب الرجل حين يكون الخصام من جانبه لئلا تَسلُط فلا يقدر على إصلاحها كما يقول الغزالي

وأما إذا كان النشوز من المرأة خاصة ، فللرجل أن يؤدبها ، ويحملها على الطاعة قهراً ، ولكن ينبغي أن يتدرج في تأديبها ، فيقدّم أولا الوعظ ، والتحذير ، والتخويف ، فان لم ينجع ولاها ظهره في المضجع ، وانفرد عنها بالفراش ، وهجرها وهو في البيت معها من ليلة الى ثلاث ليال ، فان لم ينجع ذلك ضربها ضربا غير مُبرّح بحيث يؤلمها ، ولا يكسر لها عظما ، ولا يدمي لها جسما ، ولا يضرب وجهها فان ذلك منهي عنه

ثامنا — أن ينظر الرجل في حاجة امرأته الى التحصين ، فان تحصينها واجب عليه . وللغزالي في هذا الموضوع كلام كله سذاجة : إذ تراه يضع طائفة من الأدعية يقوم بها الرجل عند الوقاع ، حتى ليذكر أن بعض أصحاب الحديث كان يُكبّر حتى يسمع

أهل الدار صوته !! وما أدرى كيف تصلح هذه اللحظة للأدعية والأوراد، وما الى ذلك مما يضعف الشهوة، ويبعث على الخمود!

تاسعا — الطلاق مباح، ولكنه إيذاء. ولا يباح للرجل إيذاء المرأة إلا بجناية من جانبها أو ضرورة من جانبه. ومهما آذت زوجها أو بذأت على أهله فهى جانية، وكذلك مهما كانت سيئة الخلق أو فاسدة الدين. ويرى الغزالى أن حق الوالد مقدم على حق الزوجة، فاذا كرهها الوالد لغرض غير فاسد فقد جاز الطلاق. وان كان الأذى من الزوج فلها أن تفتدى بمال، ويكره للرجل أن يأخذ منها أكثر مما أعطى، فان ذلك إجحاف بها وتحامل عليها وتجارة على البضع. وعلى الزوج أن يتلطف فى التعلل بتطليق زوجته من غير تعنيف واستخفاف. وأن يطيب قلبها بهدية على سبيل الجبر والإمتاع، وأن لا يُفشى سرها لا فى الطلاق ولا عند النكاح

ومما سلف بيانه، نعرف أن الغزالى لم يفكر فى المرأة إلا من حيث هى زوجة، فلم يذكر شيئاً عن حقوقها الاجتماعية، ولم يتكلم عن تعليمها قبل الزواج، ولم يسمح للمتزوجة بشىء من العلم أكثر من الفرائض، وهى غاية بسيطة بالطبع، لأن تعلم الفرائض لم يكن موضع خلاف. وكل هذا نتيجة محتومة لرأيه

فى طبيعة المرأة ، إذ كانت عنـده فى مقام التـابع ، ومن طاعة الشيطان أن تصبح فى مقام المتبوع !

٩

الرفق بالمرأة

ولم يكتف الغزالى بهذه الحقوق فى صيانة المرأة ، بل حض الرجل على الرفق بها فى كل حال ، فذكر فى ص ١٢١ من كتابه التبر المسبوك أن من أحب أن يكون مشفقاً على زوجته رحيما بها ، فليذكر أن المرأة لاتقدر أن تطلقه ، وهو قادر على طلاقها متى شاء ، وأنها لاتقدر أن تأخذ شيئاً بغير إذنه ، وهو قادر على ذلك ، وأنها مادامت فى حباله لاتقدر على زوج سواه ، وهو قادر على أن يتزوج عليهـا ، وأنه لايخافها وهى تخافه ، وأنها تقنع منه بطلاقة وجهه ، وبالكلام اللين ، وهو لايرضى بجميع أفعالهـا ، وأنهـا تفارق أمها وأباها وجميع أقاربها لأجله ، وهو لايفارق لأجلها أحداً ، وأنه يقدر أن يتسرى ويختص بالجوارى دونها ، وأنها تخدمه دائمًا وهو لايخـدمها ، وأنها تتلف نفسها إذا كان مريضا وهو لايغتم لها ولو ماتت

وألاحظ أن هذه النصيحة الشعرية تَفترِض أن يكون الرجل مسيطراً على المرأة ، وأنهـا كالحَمَل الوديع . ومن الواضح

أن الرجل لا يكون دائماً على هذه السيطرة ، والمرأة لن تكون دائماً بهذه الوداعة : ولكن عذر الغزالى فى إطلاق هذا النصح ، أن الغالب وقوع هـذه الحال ، فالرجل فى الغالب يأمر وينهى ، والمرأة تسمع وتطيع ، وما عدا ذلك شذوذ ، وهم لايضعون القواعد للشواذ !

والذى لاشك فيه ، من بين ما قال الغزالى ، أن الرجل يملك رقبة المرأة ، ويستطيع أن يتزوج من غيرها إن شاء ، ويتصرف فى البيت بلا رقيب ولا حسيب ، وأن المرأة تركت لأجله أمها وأباها وأقاربها ، وهو لم يفارق لأجلها أحداً من العالمين

١٠

واجبات المرأة

النكاح نوع رق — كما يقول الغزالى — فالزوجة رقيقة الزوج ، وعليها طاعته فى كل مايطلب ، مما لامعصية فيه . واليك خلاصة ماعليها من الواجبات :

(١) أن تكون قاعدة فى قعر بيتها ، ملازمة لمغزلها ، لايكثر صعودها واطلاعها على سطوح الجيران

(٢) وأن تكون قليلة الكلام لجيرانها ، ولا تدخل عليهم الا فى حال يوجب الدخول

(٣) وأن تحفظ بعلها فى غيبته وحضرته ، وتطلب مسرته فى جميع أمورها ، ولا تخونه ، لا فى نفسها ولا فى ماله

(٤) وأن لاتخرج من بيتها إلا باذنه ، فان خرجت باذنه فختفية فى هيئة رثة ، تطلب المواضع الخالية ، دون الشوارع والأسواق ، محترزة من أن يسمع غريب صوتها ، أو يعرفها بشخصها

(٥) وأن لاتتعرف الى صديق بعلها فى حاجاتها ، بل تتنكر على من تظن أنه يعرفها أو تعرفه

(٦) واذا استأذن صديق لبعلها على الباب ، وليس البعل حاضراً ، لم تستفهم ولم تعاوده فى الكلام ، غيرةً على نفسها وبعلها وأن تقنع من زوجها بما رزقه الله

(٨) وأن تقدم حقه على حقها وحقوق سائر أقاربها

(٩) وأن تكون متنظفة فى نفسها مستعدة فى جميع الأحوال ليتمتع بها إن شاء

(١٠) وأن تشفق على أولادها

(١١) وأن تكون قصيرة اللسان عن مراجعة الزوج وسب الأولاد

(١٢) وأن تقوم بكل خدمة فى الدار تقدر عليها

(١٣) وأن لا تذهب إلى الحمام، إلا اذا لم يكن في البيت مُستَحمٌ ، وكانت نفساء أو مريضة ، وان دخلت فلا تدخل الا بمئزر سابغ

١١

آداب الكتاب

ومما يوضح بعض الجوانب فى تصور الغزالى للحياة ، وحرصه على النظام ، ما وضعه من آداب الكتّاب ، فقد تتبين بذلك وجهة نظره فيما ينبغى أن يكون عليه الكاتب من الخبرة والكفاية ، ولم تنشأ إلا لمثل ذلك كليات الصحافة فى العهد الحديث

ويرى الغزالى أن الكاتب يجب عليه :

(١) أن يعرف بُعد الماء وقربه تحت الأرض

(٢) وأن يعرف زيادة الليل والنهار ، ونقصانهما ، فى الصيف والشتاء ، ومسير الشمس ، والقمر ، والنجوم

(٣) وأن يعرف الحساب ، والهندسة ، والتقويم

(٤) وأن يعرف اختيارات الايام ، وما يصلح للمزارعين

(٥) وأن يعرف الطب والأدوية

(٦) وأن يعرف ريح الشمال والجنوب

(٧) وأن يعرف الشعر والقوافى

(٨) وأن يكون خفيف الروح ، طيب اللقاء

(٩) وأن يحسن برى القلم وقطه ، ورفعه وحطه ، كما قال :

(١٠) وأن يحرس نفسه من طغيان قلمه

(١١) وأن يُظهِر بشبا قلمه ما يجول فى نفسه

(١٢) وأن يعرف ما يمد من الحروف

(١٣) وأن يبين الخط ، ويعطى كل حرف حقه

وقد وضع الغزالى فوق ماتقدم صورة لما يمد أو يقصر من الحروف ، ووضع طريقة لبرى الاقلام العربية ، والفارسية ، والعبرية ، وما يجب أن يكون عليه المقط من الصلابة ، وما ينبغى أن يمتاز به القرطاس من التساوى والصقالة ، وما يحسن من تشابه صورة الأحرف ، ليقرب الخط من الجمال . وكل ماتقدم هو بالطبع صورة لرأيهم إذ ذاك فيما ينبغى أن يكون عليه الكتّاب

١٢

واجبات الملوك

يتكلم الغزالى كثيراً عن « الأمراء والسلاطين » ويذكر مالهم وما عليهم . وتجد فى حقوق المحتسب من هذا الكتاب ما وضعه من الفرق بين إرشاد العامة ، وإرشاد الأمراء والسلاطين كما يقول ، وقد وضع لهم كتاباً خاصاً سماه التبر المسبوك فى

نصيحة الملوك ، وهو الذى قدمه للسلطان محمد بن ملك شاه ، وقد فصلنا رأينا فيه ، فلا نعود اليه الآن

ويستحسن الغزالى أن يقسم الملك نهاره إلى أربعة أقسام : قسم لعبادة الله وطاعته . وقسم للنظر فى أمور السلطنة ، وإنصاف المظلومين ، والجلوس مع العلماء والعقلاء لتدبير الأمور ، وسياسة الجمهور ، وتنفيذ الأوامر ، والمراسيم ، والكتابة ، وإنفاذ الرسل ، وقسم للأكل والنوم ، والتزوّد من الدنيا ، وأخذ الحظوظ من الفرح والسرور . وقسم للصيد ولعب الكرة والصولجان وما أشبه ذلك

وينصح الغزالى للملك بأن لا يشتغل دائما بلعب الشطرنج ، والنرد ، وشرب الخمر ، وضرب الكرة والصيد ، لأن هذه تمنعه عن الأعمال ، ولكل عمل وقت ، فاذا فات عاد الربح خسرانا

ويفهم من هذا أن الملك يجوز له شرب الخمر مع الإقلال ، ولكن هذا ينافى حرص الغزالى وإصراره على حرب المسكرات ، فلا يبعد أن تكون هذه الكلمة دُسَّت أو وقعت سهوا فى كتاب التبر المسبوك

ويجب فيما يرى الغزالى أن يراعى الملك ما يأتى من الأصول

(١) أن يعرف قدر الولاية وخطرها ، ومايكون من سعادته إذا أحسن ، ومن شقائه إذا أساء

(٢) أن لا يقنع برفع يده عن الظلم . بل يهذب غلمانه ، وأصحابه وعماله ، ونوابه ، فانه عن ظلمهم مسئول

(٣) أن لا يتكبر ، فان التكبر داعية الغضب والانتقام

(٤) أن يفرض نفسه واحداً من الرعية فى كل ما يعرض عليه فالا يرضاه لنفسه لا ينبغى أن يرضاه لأحد من المسلمين

(٥) أن لا يشتغل بنوافل العبادة ، وببابه أحد من أرباب الحوائج

(٦) أن لا يعوّد نفسه الاشتغال بالشهوات : من لبس الثياب الفاخرة ، وأكل الأطعمة الطيبة ؛ بل يتعود القناعة فى جميع الأشياء ، فلا عدل بلا قناعة

(٧) أن يتجنب الشدة ، والعنف ، كلما أمكنه الرفق

(٨) أن يجتهد فى أن ترضى عنه الرعية بموافقة الشرع

(٩) أن لا يطلب رضا أحد من الناس بمخالفة الشرع

(١٠) أن يعين رعيته إذا وقعت فى ضائقة ، وأن ينفق عليها من خزائنه ، إذا وقعت فى قحط أو غلاء ، لأن فى ذلك استبقاء لطاعتهم ، ودرءاً لمطامع المحتكرين

والغزالى لا يستنكر قسوة الملك ، إذا أَثِمت الرعية ، بل يدعو إلى أن تهابه الرعية وهو بعيد ، ويقول « وسلطان هذا الزمان

يجب أن تكون له أوفي سياسة ، وأتم هيبة ، لأن أناس هذا الزمان ليسوا كالمتقدمين ، فان زماننا هذا زمان ذوي الوقاحة والسفهاء وأهل القساوة والشحناء . واذا كان السلطان والعياذ بالله بينهم ضعيفاً أوكان غير ذى سياسة فلا شك أن ذلك يكون سبب خراب البلاد ، وأن الخلل يعود على الدنيا والدين » (١)

والسياسة فى كلامه هـذا معناها الحزم فى شدة وقسوة ، لينتهى المفسدون

١٣

حقوق الوزراء

وعلى الملك أن يعامل الوزير بثلاثة أشياء :

الأول — إذا ظهرت منه زلة ، أو وجدت منه هفوة ، فلا يعاجله بالعقوبة

الثانى — إذا اتسعت حاله فى خدمته واستغنى ، فلا يطمع فى ماله وثروته

الثالث — إذا سأله حاجة فلا يتوقف فى قضائها

وينبغى أن يمنحه ثلاثة أشياء

الأول — أن لا يمتنع عن رؤيته متى اختار أن يراه

الثانى — أن لا يسمع فى حقه كلام مفسد

---

(١) ٥٥ التبر المسبوك

الثالث — أن لا يكتم عنه شيئاً من سره ، لأنه مدبر الدخل وبه عمارة الخزائن والولايات

ويجب على الوزير :

أولا — أن يكون محبا للخير ، مبغضاً للشر

ثانياً — أن يعين الملك على الشفقة بالرعية إذا رأى منه الميل لذلك

ثالثاً — أن يرشده باللطف إذا رأى منه ميلا للظلم

ويقول الغزالى فى نصح الملك الذى أهداه كتابه « وينبغى أن تعلم أن دوام الملك بالوزير ، وأن دوام الدنيا بالملك ، وينبغى أن تعلم أنه لا يجوز له أن يهتم بغير الخير » ص ٧٩

وهذه الواجبات التى وضعها للملوك والوزراء تعتبر فى الواقع مجملة بالنسبة لما يحتاجون إليه من شتى الآداب فى معاملة الرعية ، ومعاملة جيرانهم من الدول ، ولكن يلاحظ كذلك أنه حكّم الشرع فى جملة هذه الآداب ؛ وقد وضع الفقهاء عدة أحكام تخص الخلفاء والولاة ، وما أحسبه يخالفهم فى هذا الباب

١٤

معاملة الملوك الظالمين

ومما يوضح جانبا من جوانب الأخلاق عند الغزالى رأيه فى معاملة الظلمة من الأمراء والسلاطين ، فقد حتّم على من يأخذ

مالا منهم أن ينظر كيف وصل اليهم ، وأن يتأمل الصفة التى استحق بها الأخذ ، والمقدار الذى يأخذه ، وهل يستحقه اذا أضيف الى حاله وحال شركائه فى الاستحقاق ؛ وبيّن أنه إذا لم يُعرف للسلطان دخل إلا من الحرام ، فالأخذ منه سحت محض . وأن واجب الورع يقضى بأن لا يأخذ المرء شيئا من مال الظالم على الاطلاق ، فان لم يستطع فليأخذ ما يتأكد أنه حلال

أما الدخول على الظلمة وغشيان مجالسهم فهو محظور . ولاتجوز زيارة الملك الجائر إلا بعذرين : الأول أن يكون من جهتهم أمر إلزام ، لا أمر إكرام ، ويعلم الرجل أنه إن امتنع أُوذى ، أو فسدت طاعة الرعية :فتجب عليه الإجابة ، لا طاعة لهم بل مراعاة لمصلحة الخلق ، حتى لاتضطرب الولاية

الثانى أن يدخل عليهم فى دفع ظلم عن مسلم سواه . أو عن نفسه ، بطريق الحِسْبة ، أو بطريق التظلم

وإذا دخل عليك السلطان الظالم زائراً فجواب السلام لا بد منه ، والقيام له غير حرام ، والأولى تركه إن لم يكن معه أحد . ثم تأخذ فى تعريفه ما يجهله ، وتخويفه فيما هو مستجرئ عليه . وإرشاده الى ماهو غافل عنه

والأفضل فيما يرى الغزالى أن يعتزلهم المرء فلا يراهم ولا

يرونه ؛ والأمر كذلك فى معاملة قضاتهم ، وعمالهم ، وخدمهم . وللغزالى فى هذا الباب تفاصيل عجيبة فيما يتعلق بما يقيمون من القناطر والطرقات والمساجد والسقايات والأسواق . وأخص مايلاحظ أنه انما يدعو الى أن يخلص المرء ذمته ، مع البعد كل البعد عما يفضى إلى فتنة أو اضطراب

١٥

حقوق الأخوّة

المراد بالأخوّة الصحبة والصداقة ، إلى غير ذلك مما تثمر الألفة . والالفة — كما نص الغزالى — ثمرة حسن الخلق ، إذ يوجب التحابّ والتآلف والتوافق ، كما أن سوء الخلق يثمر التباغض، والتحاسد، والتدابر

ويجب فيما يرى الغزالى أن يكون للرجل أعداء يبغضهم فى الله ، كما يجب أن يكون له أصدقاء يحبهم فى الله

ولكن الحب فى الله ، والبغض فى الله غامض . ولكشف الغطاء عنه ، قسم الصحبة إلى : مايقع بالاتفاق ، كالصحبة بسبب الجوار أو بسبب الاجتماع فى المكتب ، وفى المدرسة ، أو فى السوق أو على باب السلطان ، أو فى الأسفار ؛ وإلى ما ينشأ اختيارا ويقصد ، وهو المراد . إذ لا ثواب ولا عقاب إلا على الأفعال

الاختيارية . والصحبة عبارة عن المجالسة ، والمخالطة ، والمجاورة . وهذه الأمور لايقصد بها الانسان غيره إلا إذا أحبه . والذى يُحَبّ : إما أن يحب لذاته ، وإما أن يحب للتوصل به إلى مقصود وذلك المقصود : إما أن يكون مقصوراً على الدنيا وحظوظها ، وإما أن يكون متعلقاً بالآخرة ، وإما أن يكون متعلقاً بالله تعالى

حب المرء لذاته ولجماله

يرى الغزالى أن الانسان قد يُحَبّ لذاته ، لا لفائدة تنال منه فى حال أو مآل ، بل لمجرد المجانسة ، والمناسبة فى الطباع الباطنة والأخلاق الخفية ، ويدخل فى هـذا القسم ، فيما يرى ، الحب للجمال ، اذا لم يكن للمحب غرض خبيث ، فإن الجمال مستملح لذاته ، وان قُدِّر فقدُ أصل الشهوة . والغزالى يضرب المثل لهذا بالنظر إلى الفواكه ، والأنوار ، والأزهار ، والتفاح المشرب بالحمرة ، وإلى الماء الجارى ، والخضرة ، من غير غرض مذموم إذ تحب لعينها . وهذا الحب كما يقول الغزالى لايدخل فيه الحب لله ، بل هو حب الطبع ، وشهوة النفس ، وهو مباح لايوصف بمدح ولا بذم

الحب للمنافع الدنيوية

وقد يُحَبّ الانسان ليُنال من ذاته غير ذاته . كما يحب الرجل

سلطاناً لانتفاعه بماله ، أو جاهه ، ويحب خواصه لتحسينهم حاله عنده .

والمتوسل إليه — كما يقول الغزالى — إن كان مقصور الفائدة على الدنيا ، لم يكن حبه من جملة الحب فى الله ، وإن لم يكن مقصور الفائدة على الدنيا ، ولكنه لا يقصد به إلا الدنيا كحب التلميذ لاستاذه ، فهو أيضاً خارج عن الحب لله ، فانه إنما يحبه ليحصل منه العلم لنفسه ، فمحبوبه العلم

وينقسم هذا الحب فيما يرى الغزالى إلى مذموم ومباح ، فان كان يقصد به التوصل لأغراض مذمومة كقهر الأقران ، وحيازة أموال اليتامى ، وظلم الرعية بولاية القضاء أو غيره ، كان الحب مذموماً . وان كان يقصد به التوصل إلى مباح فهو مباح

الحب للمنافع الأخروية

وقد يُحَب الانسان ، لا لذاته بل لغيره ، وذلك الغير ليس راجعاً إلى حظوظه فى الدنيا ، بل يرجع إلى حظوظه فى الآخرة ، كمن يحب أستاذه لانه يتوصل به إلى تحصيل العلم وتحسين العمل ومقصوده من العلم والعمل الفوز فى الآخرة . وهذا من جملة المحبين فى الله . ومثله من أحب زوجته لانها آلة إلى مقاصد دينية ، كالتحصن والولد الصالح

الحب لمنافع الدنيا والآخرة

ويقول الغزالي : ليس من شرط حب الله أن لا يحب في العاجلة حظاً ألبتة . ويقول : إذا اجتمع في قلبه محبتان : محبة الله ، ومحبة الدنيا ، فاجتمع في شخص واحد المعنيان جميعاً حتى صلح لأن يتوسل به إلى الله وإلى الدنيا ، فاذا أحبه لصلاحه للأمرين جميعاً فهو من المحبين في الله ، كمن يحب أستاذه الذي يعلمه الدين ، ويكفيه مهمات الدنيا بالمواساة في المال

الدنيا خليقة بالحب

ولا يفوتنا أن ننوه بما وفق اليه الغزالي حين قال « وعلى الجملة ، فاذا لم يكن حب السعادة في الآخرة مناقضاً لحب الله تعالى ، فحب السلامة ، والصحة ، والكفاية ، والكرامة في الدنيا ، كيف يكون مناقضا لحب الله ؟ والدنيا والآخرة عبارة عن حالتين إحداهما أقرب من الأخرى . فكيف يتصور أن يحب الانسان حظوظ نفسه غداً ولا يحبها اليوم ؟ وإنما يحبها غداً لأن الغد سيصير حالاً راهنة . فالحالة الراهنة لابد أن تكون مطلوبة . إلا أن الحظوظ العاجلة منقسمة الى ما يضاد حظوظ الآخرة ويمنع منها ، وهو الذي احترز عنه الأنبياء ، وأمروا بالاحتراز عنه . والى مالا يضاد ، وهو الذي لم يمتنعوا عنه كالنكاح الصحيح وأكل الحلال » وليس بمستنكر أن يشتد حبك لانسان لجملة أغراض لك ترتبط به ، ولا يستحيل اجتماع الأغراض الدنيوية والأخروية ، فهو داخل في جملة الحب لله »

وانما نوهنا بهذه الفقرة لأنها فى صوابها تناقض مايردده الغزالى من احتقار الأغراض الدنيوية ، والإشادة بالحياة الأخروية مما يخيل إلى القارئ أن الدنيا عنده أحقر من أن تتعلق بها الأغراض !

الحب لله

وقد يُحَب الانسان فى الله ولله ، دون أن ينال منه شىء ، أو يُتوسل به إلى أمر وراء ذاته ، وهذا أعلى الدرجات ، وهو غاية فى الدقة والغموض

ميزان الحب

بيّن الغزالى أن المرء قد يُحَب لذاته ، وقد يُحَب لمقصود دنيوى أو أخروى ينال منه ، وقد يحب لله ، لا لغرض يقصد فى حال أو مآل

ولكن ماهى دلائل ذلك الحب ، حميداً كان أو غير حميد ؟ وبأى ميزان يوزن ذلك الميل ، حتى تعرف درجات المحبين ؟

لقد وضع الغزالى ميزاناً هو أدق موازين الحب فى هذا الوجود : وهو المال ! وانظر قوله « ومن احب ملكا أو شخصا جميلا أحب خواصه وخدمه ، وأحب من أحبه ، إلا أنه يُمتحن الحبُّ بالمقابلة بحظوظ النفس ، وقد يغلب بحيث لا يُبقى للنفس حظا إلا فيما هو حظ المحبوب ، وعنه عبر من قال :

أريد وصاله ويريد هجرى ... فأترك ما أريد لما يريدُ

وقول من قال :

فما لجرح إذا أرضاكمُ ألمُ

وقد يكون الحب بحيث يترك به بعض الحظوظ دون بعض ، كما تسمح نفسه بأن يشاطر محبوبه فى نصف ماله ، أو فى ثلثه ، أو فى عشره . فمقادير الأموال موازين المحبة ، إذ لا تعرف درجة المحبوب إلا بمحبوب يترك فى مقابلته فمن استغرق الحب جميع قلبه لم يبق له محبوب سواه فلا يملك لنفسه شيئاً »

المال هو أدق موازين الحب فى هذا الوجود ، وقد أفصح عن ذلك الغزالى ، وإن سبقه قول جميل :

سليني َ مالى يابثين فانما ... يُبَيَّنُ عند المال كل ضنين

ما للأخ على أخيه

وبعد الميزان الذى وضعه الغزالى للمحبة : لا نرانا فى حاجة إلى إجمال مافصّله من حقوق الأخوة . ويكفى أن نذكر أنه يرى للأخ حقاً على أخيه : فى نفسه ، وماله ، وقلبه ، ولسانه ؛ ولكل حق من هذه الحقوق درجات تتناسب مع ما تنطوى عليه الصدور من حب قوى أو ضعيف

حقوق الأخ المذنب

على أنى أرى من الواجب أن أذكر رأى الغزالى فى حقوق الأخ المذنب ، فانه فيما أعتقد رأى كله صواب ، وهو فى الوقت

نفسه كثير على عصر كالعصر الذى عاش فيه الغزالى ، فلسنا نجهل أن الناس كانوا إذ ذاك قليلى التسامح ، وأنهم كانوا مملوئين بالرِّيَب والظنون

يرى الغزالى أن الصداقة لحمة كلحمة النسب . والقريب لاينبغي أن يهجر بالمعصية . فقد قال تعالى للنبي فى عشيرته « فان عصوك فقل إنى برىء مما تعملون » ولم يقل إنى برئ منكم ، مراعاةً لحق القرابة ، ولحمة النسب . قال الغزالى « ومن حيث إن الاخوة عقد ينزل منزلة القرابة، فاذا انعقدت تأكد الحق ، ووجب الوفاء بموجب العقد . ومن الوفاء به أن لا يهمل أيام حاجته وفقره . وفقر الدين أشد من فقر المال . وقد أصابته جائحه ، وألمت به آفه افتقر بسببها فى دينه ، فينبغى أن يراقب ويراعى ، ولا يهمل ، بل لا يزال يتلطف به ليعان على الخلاص من تلك الواقعة التى ألمت به . فالأخوة عدة للنائبات ، وهذا من أشد النوائب »

وقد توقع الغزالى أن يقول قائل : إن مُقارف المعصية لاتجوز مؤاخاته ابتداء فتجب مقاطعته انتهاء . لأن الحكم اذا ثبت بعلة فالقياس أن يزول بزوالها ، وعلة عقد الاخوة التعاون فى الدين ، ولا يستمر ذلك مع مقارفة المعصية . وقد أجاب بأن المعصية إنما منعت ابتداء المؤاخاة مع الفاسق لأنه لم يتقدم له حق ، أما الأخ المذنب فقد ثبتت أخوته ، فلا تسقط بالمعصية ، كما لاتسقط

القرابة ، ومتى بقيت فقد بقى ما كان لها من الحقوق

ويزيد الغزالى أن مصاحبة الفاسق خير من مجانبته ، إذ كانت الصحبة داعية الرجوع الى الحق ، والإقلاع عن الباطل ، بخلاف المجافاة ، فقد تقوى فيه الاصرار والعناد

وهذه عظة بالغة ، لاولئك الذين كلما رأوا مبطلا فروا منه باسم الدين ، وهم يفرون من الواجب لو يعلمون !

١٦

البغض فى الله

يقول الغزالى : « كل من يحب فى الله لابد أن يبغض فى الله ، فانك إن أحببت إنسانا لأنه مطيع لله ، ومحبوب عند الله ، فان عصاه لابد أن تبغضه ، لأنه عاص لله ، وممقوت عند الله ، ومن أحب لسبب فبالضرورة يبغض لضده » ولكن البغض كما رأيت لايوجب المجافاة

العصيان بالاعتقاد

والمخالف لأمر الله ، إما أن يكون مخالفا فى عقده أو فى عمله والمخالف فى العقد إما مبتدع أو كافر ، والمبتدع إما داع الى بدعته أو ساكت ، إما بعجزه أو باختياره ، فأقسام الفساد فى الاعتقاد ثلاثة

الاول — الكفر والكافر إن كان محاربا فهو يستحق القتل

والإرهاق ، وإن كان ذِمّيا فلا يجوز إيذاؤه إلا بالاعراض عنه والتحقير له

الثانى — المبتدع الذى يدعو الى بدعته . فان كانت البدعة بحيث يكفر بها فأمره أشد من الذمى . لانه لا يقر بجزية ، ولا يسامح بعقد ذمة . وإن كان مما لا يكفر به فأمره بينه وبين الله أخف من أمر الكافر لا محالة ، ولكن الأمر فى الانكار عليه أشد منه على الكافر ، لأن شر الكافر غير متعد . أما المبتدع الذى يدعو الى البدعة ويزعم أن مايدعو اليه حق فهو سبب لغواية الخلق وشره متعد ، فالاستحباب فى إظهار بغضه ، ومعاداته ، والانقطاع عنه ، وتحقيره ، والتشنيع عليه ، وتنفير الناس منه ، أشد

الثالث — المبتدع العامى ، الذى لا يقدر على الدعوة ، ولا يُخاف الاقتداء به ، فأمره أهون . والأولى أن لا يفاتح بالتغليظ والاهانة ، بل يتلطف به فى النصح ، فان قلوب العوام سريعة التقلب

العصيان بالفعل

أما العصيان بالفعل لا بالاعتقاد فانواعه ثلاثة :

الأول — وهو أشدها ، مايتضرر به الناس فى دنياهم ، كالظلم

والغصب . وشهادة الزور ، والغيبة . والنميمة ؛ وهذه معاص شديدة ، لأنها ترجع الى ايذاء الخلق . وأصحاب هذه المعاصى ينقسمون الى من يظلم فى الدماء ، والى من يظلم فى الأموال ، والى من يظلم فى الأعراض، وبعضها أشد من بعض، والاستحباب فى اهانتهم ، والاعراض عنهم مؤكد جداً

الثانى — مايتضرر به الناس فى أخراهم لافى دنياهم ، كعمل صاحب الماخور الذى يهيئ أسباب الفساد ويسهل طرقها على الخلق ، وهو قريب من الأول ، ولكنه أخف منه

وأنا لاأفهم كيف يرى الغزالى أن هذا العمل لايضر الناس فى دنياهم [1]

الثالث — عمل الذى يفسق فى نفسه ، بشرب خمر ، أوترك واجب ، أو مقارفة محظور يخصه . والامر فيه أخف مما سبقه ، ولكنه إن صودف وقت مباشرة العمل يجب منعه بما يتمنع به منه ، ولو بالضرب والاستخفاف

تنبيه

ويحسن بالقارئ أن يفهم الحب فى الله ، والبغض فى الله ،

(١) لم يكن للزنا فى عهده من المضار الدنيوية من الامراض الفتاكة كالزهرى ونحوه ماله اليوم فلم يرتق بنظره الى أكثر من الضرر الدينى لانه هو الماثل أمامه
عبد الوهاب النجار

الى ما قرره الغزالى من وجوب الاحتساب ، فان ضم هذه الابواب بعضها الى بعض يعطينا صورة واضحة لما يجب أن يكون عليه المسلم أو المريد أوذو الخلق الحسن فيما يرى الغزالى

والرجل الذى أحاطه بالحسبة ، والحب فى الله ، والبغض فى الله ، هو رجل يعرف مايجب عليه للهيئة الاجتماعية ، التى تصلح بصلاح الافراد ، فيهذب نفسه أولا ليفهم بالضبط ماله وما عليه ، ثم يدعو الناس إلى حفظ أموالهم وأنفسهم ، وينهاهم عن اقتراف مايضرّ بهم وبأخوانهم فى الدين ، ثم يبغض بقلبه وبجوارحه من يغض من العقيدة ، أو يظلم الناس . وقد فصل الغزالى ذلك كله بأسلوب بالغ التأثير ، ودعم كلامه بكثير من الآيات والأحاديث والاخبار

١٧

آداب الزواج

يسميها الغزالى آداب النكاح ، وهو أصح فى التعبير ، لأن النكاح فى كتب التشريع لايراد به الجماع ، وانما يقصد به العقد . ولكننا قلنا آداب الزواج ، مجاراة للعرف الحديث

وقد وضع الغزالى عدة آداب للنكاح ، تعد فى الواقع ترغيبا فيه ، وهى فى جملتها من الآداب العادية . ويهمنى منها أدب واحد ،

أصاب الغزالى فى الاهتمام به ، وهو تربية النفس بالزواج على احتمال أعباء المعاش . فقد ذكر أن الفائدة الخامسة من فوائد النكاح « هى مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل والصبر على أخلاقهن ، واحتمال الأذى منهن ، والسعى فى إصلاحهن ، وإرشادهن الى طريق الدين ، والاجتهاد فى كسب الحلال لأجلهن ، والقيام بتربيته لأولاده : فكل هذه أعمال عظيمة الفضل ، فأنها رعاية وولاية ، والأهل والولد رعية ، وفضل الرعاية عظيم . وانما يحترز منها من يحترز خيفة من القصور عن القيام بحقها . وإلا فقد قال عليه السلام : (يوم من والٍ عادل أفضل من عبادة سبعين سنة . ثم قال : ألا كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته) وليس من اشتغل باصلاح نفسه وغيره كمن اشتغل باصلاح نفسه فقط ، ولا من صبر على الأذى كمن رفه نفسه وأراحها فمقاساة الأهل والولد بمنزلة الجهاد فى سبيل الله . ولذلك قال بشر : فُضّل علىّ أحمد بن حنبل بثلاث : إحداها أنه يطلب الحلال لنفسه ولغيره . وقد قال عليه السلام : ما أنفقه الرجل على أهله فهو صدقة ، وإن الرجل ليؤجر فى اللقمة يرفعها الى فى امرأته »

ويقرر الغزالى بعد هذا أن فى الصبر على الأهل رياضةً للنفس ، وكسراً للغضب ، وتحسيناً للخلق . ويذكرنى هذا الأدب بما يكرره سيدى الاستاذ الدكتور منصور فهمى فى رسائله من كلمة « غُرم الحياة وغُنمها » ويريد بذلك الترحيب بما فى الحياة من متاعب ، فى سبيل ما فيها من الطيبات . والحق أن احتمال الأهل والولد من عزائم الأمور . والشبان الذين ينفرون من الزواج

إيثاراً للراحة ، إنهم جبناء ، ضعفاء ، لا يصلحون للجلاد في ميدان الحياة

١٨

الخروج من المظالم

ونريد أن نبين رأى الغزالى فيما يجب على التائب الذى ظلم الناس . لأن فى ذلك بيانا لرأيه فى احترام مايلزم المرء من مختلف الحقوق . وقد بدأ الكلام فى هذا الموضوع بقوله عليه السلام (من كانت له عند أخيه مظلمة فى عرض أومال ، فليتحللها منه من قبل أن يأتى يوم ليس هناك دينار ولا درهم)

مظلمة العرض

فان كانت المظلمة متعلقة بالعرض ، فواجب على المغتاب أن أن يندم ويتوب ، ويتأسف على مافعله ، ليخرج من حق الله . ثم يستحل المغتاب ليحله ، فيخرج من مظلمته . وينبغى أن يستحله وهو حزين متأسف نادم على فعله . لئلا يقارف بريائه معصية جديدة

مظلمة المال

وان كانت المظلمة فى المال فعليه أن يميز الحرام ، وأن ينظر فى مصرفه

فان كان الحرام معلوم العين : من غصب ، أو وديعة ، أو غير ذلك ، فأمره سهل . وإن كان ملتبساً فلا يخلو أمره من أن يكون فى مال هو من ذوات الأمثال، كالحبوب والنقود والأدهان ، أو أن يكون فى أعيان متمايزة : كالعبيد والدور والثياب

فان كان فى المتماثلات ، أو كان شائعاً فى المال كله ، كمن اكتسب المال بتجارة يعلم أنه قد كذب فى بعضها بالمرابحة ، وصدق فى بعضها ، أو مَن غصَب دهنا وخلطه بدهن نفسه ، وفعل ذلك فى الحبوب والدراهم والدنانير ، فلا يخلو أمره من أن يكون معلوم القدر أو مجهولا . فان كان معلوم القدر : كأن يعلم أن قدر النصف من جملة ماله حرام ، فعليه تمييز النصف . وإن أشكل فله طريقان : أحدهما الأخذ باليقين ، والآخر الأخذ بغالب الظن ، وكلاهما قال به العلماء

وفى الأعيان المتمايزة : كالدور والعبيد ، يوزع القاضى الثمن بقدر النسبة . وإن كانت متفاوتة ، أخذ من طالب البيع قيمة أنفَس الدور مثلا ، وصرف إلى الممتنع منه مقدار قيمة الاقل ويقدَّر التفاوت بالعرف

صرف المال الحرام

فإذا أخرج الحرام فلا يخلو أمره :

(١) إما أن يكون له مالك معين ، فيجب الصرف اليه

أو إلى وارثه . وإن كان غائبا فينتظر حضوره . وإن كانت له زيادة ومنفعة فلتجمع فوائده إلى وقت حضوره

(ب) وإما أن يكون لمالك غير معين ميئوس منه لا يدرى أمات عن وارث أم لا . فهذا لا يمكن الردّ فيه للمالك ، ويوقف حتى يتضح الأمر فيه . فان لم يعرف المالك تصدق بالمال ، وله أن ينفقه على نفسه وعلى أولاده إن كان فقيراً . ومثل ذلك مالو تعذّر الرد لكثرة الملاّك ، كغلول الغنيمة ، فإنه كيف يقدر على جمع الغزاة بعد تفرقهم ؟ وإن قدر فكيف يفرق ديناراً واحداً على الف أو الفين ؟

(ج) وإما أن يكون من مال الفيء والأموال المرصدة لمصالح المسلمين كافة ، فيصرف ذلك إلى القناطر ، والمساجد ، والطرق ، وأمثال هذه الأمور التى يشترك فى الانتفاع بها عامة المسلمين

مظلمة النفس

وإن كانت المظلمة فى النفس ، كالقتل ، فينظر فى نوعه ، فإن كان خطأً فليسلّم الدية، وإن كان عمداً موجبا للقصاص فبالقصاص وله أن يتعرف إلى ولىّ الدم ويحكمه فى روحه ، فإن شاء عفا عنه وإن شاء قتله. وقد تنبه الغزالى إلى أن هناك ذنوبا يجب أن تستر ،

فلا يصح أن يظهر فيها الاستحلال ، لأن فى إظهاره جناية جديدة . والخروج من مثل هذه المظالم يكون بالمجاهدة ، ورياضة النفس ، والإحسان الموصول الى من أساء المرء اليه ، فان فى الاحسان جبراً للأساءة ، وهو كل ما يستطيعه التائب فى مثل هـذه الحال

١٩

واجب الاحتساب

الحِسْبة والاحتساب فى عرف المسلمين عبارة عن الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه ، والنهى عن المنكر إذا ظهر فعله . لقوله تعالى « ولتكن منكم أمةٌ يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر » والاحتساب واجب على كل مسلم قادر ، وهو فرض كفاية إذا قام به واحد من المسلمين سقط عن الجميع ، ويصير فرض عين على القادر الذى لم يقم به غيره . وإذ كانت القدرة شرطا للحسبة فقد أصبحت على ذوى السلطان أوجب ، لأنهم أقدر من غيرهم . ومتى أقامت الحكومة محتسبا كان عليه أن يبحث عن المنكر الظاهر ليصل الى إنكاره ، والمعروف المتروك ليأمر بإقامته ، وكان لكل مسلم الحق فى أن يستعديه فيما يجب إنكاره

ومن الفروق بين الحسبة والقضاء ، أن المحتسب يجوز له أن

يتعرض لتصفح ما يأمر به من المعروف ، وينهى عنه من المنكر ، وإن لم يحضره خصم مستعدٍ ، وليس للقاضى أن يتعرض لذلك إلا بحضور خصم يجوز له سماع الدعوى منه . وأنه يجوز للمحتسب أن يستعمل القوة فيما يتعلق بالمنكرات ، وليس للقاضى غير فحص القضية بالأناة والوقار .

ويطول بنا القول لو أردنا سرد الفروق بين الحسبة ، وأحكام القضاء ، وأحكام المظالم ، فى الحكومات الأسلامية ، فلنكتف بهذا القدر ، تمهيداً لرأى الغزالى فى شروط الاحتساب

شروط المحتسب

ولا يجب على امرئ فيما يرى الغزالى أن يأمر بخير ، أو ينهى عن شر ، إلا بالشروط الآتية :

أولا — أن يكون مكلفًا . فلا يجب على الصبى أمر بمعروف ، ولا نهى عن منكر . بل يجوز له ذلك ، وليس لأحد أن يمنعه

ثانيًا — أن يكون مؤمنا . ومفهوم أن الغزالى لا يعترف للجاحد بشئ حتى يصلح للإرشاد

ثالثًا — أن يكون عدلا . ويناقش الغزالى هـذا الشرط ،

ويذكر أن الأنبياء قد اختُلِف في عصمتهم عن الخطايا ، والقرآن العزيز دال على نسبة آدم عليه السلام الى المعصية ، وكذا جماعة من الأنبياء ، فلو اشترطنا في الإرشاد أن يكون متعاطيه معصوما عن المعاصي لأُغلق هذا الباب

رابعاً — أن يكون مأذونا من الإمام والوالي . وقد ناقش الغزالي هذا الشرط ، ورأى أن تخصيص الاحتساب بإذن الوالي بعد إطلاقه في الأحاديث والآيات ، تحكّم لا أصل له . وقرر أنه يجب على المرء زجر العاصي أينما رآه ، وكيفما رآه

خامساً — أن يكون قادراً . فليس على العاجز حسبة إلا بقلبه . ولا يقف سقوط الوجوب عند العجز الحسي ، بل يلتحق به ما يخاف منه مكروهاً يناله ، فذلك في معنى العجز ، وكذلك إذا لم يخف مكرها وعلم أن انكاره لا ينفع — وقد اختلفت كلمة الغزالي في هذه النقطة ففي ص٣٢٢ ج ٣ من الإحياء ينص على سقوط وجوب الحسبة حين يعلم أنها لا تفيد . وفي ص ١٥٣ ج ١ يقول في النهي عن كشف العورة في الحمام « فاما قوله : أعلم أن ذلك لا يفيد ولا يعمل به فهذا لا يكون عذرا ، بل لابد من الذكر ، فلا يخلو قلب امرئ عن التأثر من سماع الانكار واستشعار الاحتراز عند التلبّس بالمعاصي . وذلك يؤثر في تقبيح الأمر في عينه وتنفير نفسه عنه فلا يجوز تركه »

وقد توقع الغزالى أن يقول قائل : إن المكروه المتوقع ماحدَّه الانسان . فان الانسان قد يكره كلمة ، وقد يكره ضربة وقد يكره طول لسان المحتسب عليه فى حقه بالغيبة ، وما من شخص يؤمر بالمعروف إلا ويتوقع منه نوع من الأذى . وقد يكون منه أن يسعى به إلى سلطان ، أو يقدح فيه فى مجلس يتضرر بقدحه فيه ، فما حدّ المكروه الذى يسقط الوجوب به ؟

وأجاب الغزالى بأن الحسبة لاتسقط إلا بالمكروه الظاهر كمن يعلم أنه يضرب ضرباً مؤلماً يتأذى به ، أو يعلم بأنه تُنهب داره ، ويُخرّب بيته ، وتُسلب ثيابه[1]

المنكر المنهى عنه

ولا يُنهى عن شئ فيما يرى الغزالى إلا بالشروط الآتية :

أولا — أن يكون منكراً ، أى محذور الوقوع فى الشرع

قال الغزالى « وإنما عدلنا عن لفظ المعصية إلى هذا ، لأن المنكر أعم من المعصية ، إذ من رأى صبيا أو مجنونا يشرب الخمر فعليه أن يريق خمره ويمنعه ، وكذا إن رأى مجنونا يزنى بمجنونة أو بهيمة ، فعليه أن يمنعه . ثم قال : ولا تختص الحسبة بالكبائر ، بل كشف العورة فى الحمام ، والخلوة بالأجنبية ، وإتباع النظر للنسوة الأجنبيات ، كل ذلك من الصغائر ويجب النهى عنه »

---

(١) انظر ص ٣٢٣ ج ٢ احياء

ثانياً — أن يكون المنكر موجوداً فى الحال ، فلاحسبة على من فرغ من شرب الخمر ، ولا على من يُعلم من قرينة حاله أنه عازم على الشرب فى ليلته

ثالثاً — أن يكون المنكر ظاهراً . فكل من ستر معصية فى داره وأغلق بابه لايجوز أن يتجسس عليه ، وقد أُمِرنا أن نستر ماستر الله ، وننكر على من أبدى لنا صفحته

رابعاً — أن يكون المنكر معلوماً بغير اجتهاد ، فكل ماهو فى محل الاجتهاد فلا حسبة فيه ، وهذا الشرط الأخير يدل على قَدْر الغزالى لحرية الرأى والتفكير ، وما أحوج المصلحين إلى تأمله والعمل بمقتضاه :

صفات المرشد

ويجب أن يتصف المرشد بالعلم ، والورع ، وحسن الخلق

أما العلم فليعلم مواقع الحسبة ، وحدودها ، ومجاريها ، وموانعها ، ليقتصر على حد الشرع . وأما الورع فليردعه عن مخالفة معلومه ، فربما يعلم أنه مسرف فى الحسبة ، وزائد على الحد المأذون فيه شرعاً ، ولكن يحمله عليه غرض من الأغراض ، وأما حسن الخلق فليتمكن به من اللطف والرفق ، وهو أصل هذا الباب

قال الغزالى : « فهذه الصفات الثلاث بها تصير الحسبة من القُربات وبها تندفع المنكرات ، وإن فقدت لم يندفع المنكر ، بل ربما كانت الحسبة أيضاً منكرة لمجاوزة حد الشرع فيها [1] »

وقد نص على أن اشتراط الورع ليس معناه أن الأمر بالمعروف يصير ممنوعاً بالفسق ، وإنما يسقط أثره من القلوب بظهوره للناس

أنواع المنكرات

قسم الغزالى المنكرات إلى مكروهة ومحظورة ، وبيّن أن منع المكروه مستحب ، والسكوت عليه مكروه ، وليس بحرام إلا إذا لم يعلم الفاعل أنه مكروه فيجب ذكره له ، لأن الكراهة حكم فى الشرع يجب تبليغه إلى من لا يعرفه ، وأن منع المحظور واجب ، والسكوت عليه حرام

ثم ذكر طائفة من المنكرات التى تجرى فى المساجد ، والاسواق ، والشوارع ، والحمامات ، والضيافة . وآراؤه فى هذا الباب مسدّدة ، ترجع إلى الحرص على سلامة الناس فى دينهم ومعاشهم ، وإصلاح ذات بينهم . فمنها دعوته إلى منع ما يؤدّى إلى تضييق الطرق واستضرار المارة ، ودعوته إلى منع الملاّك من

(١) ص ٣٣٧ ج ٣ احياء

تحميل الدواب مالا تطيقه ، وهو رفق بالحيوان . ودعوته إلى منع الاسراف فى الطعام والبناء . والذى يتأمل ماسرده الغزالى من المنكرات يدرك مبلغ حرصه على غرس الرجولة والشرف فى نفوس الأفراد والجماعات

درجات الاحتساب

للاحتساب درجات ، وهى :

(١) التعريف (٢) ثم النهى (٣) ثم الوعظ (٤) ثم النصح (٥) ثم السب والتعنيف (٦) ثم التغبير باليد (٧) ثم التهديد بالضرب (٨) ثم إيقاع الضرب وتحقيقه (٩) ثم شهر السلاح (١٠) ثم الاستظهار بالأعوان وجمع الجنود

وفى الدرجة الأخيرة يقول الغزالى (وربما يستمد الفاسق أيضا بأعوانه ، ويؤدى ذلك إلى أن يتقابل الصفان ويتقاتلا . فهذا قد ظهر الاختلاف فى احتياجه الى اذن الامام . فقال قائلون : لايستقل آحاد الرعية بذلك . لانه يؤدى الى تحريك الفتن وهيجان الفساد وخراب البلاد . وقال آخرون : لايحتاج الى الاذن . وهو الأقيس ، لأنه جاز للآحاد الأمر بالمعروف ،وأوائل درجاته قد تجر الى ثوان وثوالث ، وقد ينتهى لامحالة الى التضارب ، والتضارب يدعو الى التعاون ، فلا ينبغى أن يبالى بلوازم الأمر بالمعروف ، ومنتهاه تجنيد الجنود فى رضا الله ودفع معاصيه » ص٣٣٦ ج ٣

ارشاد الامراء

ولا يجوز من درجات الاحتساب مع الأمراء والسلاطين — فيما يرى الغزالى — الا الرتبتان الأوليان وهما التعريف والوعظ أما المنع بالقهر فليس لآحاد الرعية مع السلطان ، فان ذلك يحرك الفتن ويهيج الشر ، ويكون مايتولد عنه من المحذور أكثر

وأما التخشين فى القول ، كقوله : ياظالم ، يامن لايخاف الله ، وما يجرى مجراه ، فذلك إن كان يحرك فتنة يتعدى شرها إلى غيره لم يجز ، وإن كان لايخاف إلا على نفسه ، فهو جائز ، بل مندوب إليه ، ومن قتل فى هذا فهو شهيد



مسجد خرب فى طوس موطن الغزالي . ويظن الدكتور زويمر انه بني فى القرن الرابع

الباب الحادى عشر

في

تأثير الغزالى فى عصره

وما تلاه من العصور

أثر الغزالى فى عصره أثراً غير قليل : فشطر أهل العلم ، والولاة ، شطرين . أحدهما ينصره ، والآخر يخذله ، ومازال الفريقان يختصمان حتى طيّرا شهرته فى جميع الآفاق

وقد رأى الغزالى فى حياته من يقدسه ، ويقدمه على جميع العلماء ؛ ورأى فى الوقت نفسه كتبه تحرق فى بعض الأقطار الاسلامية ، رمياً لها بالدعوة الخفية الى الكفر والإلحاد ؛

١

تجديده للقرن الخامس

وكان جمهور المسلمين فيما سلف يعتقد أن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد أمر الدين ، ولهم فى هذه العقيدة كلام طويل ، وفيها يقول الجلال السيوطى فى أرجوزته

والشرط فى ذلك أن تمضى المائة وهو على حياته بين الفئة

يشار بالعلم الى مقامه وينصر السنة فى كلامه

وأن يكون جامعا لكل فن ‏ وأن يعم علمه أهل الزمن
وأن يكون فى حديث قد رُوِى ‏ من أهل بيت المصطفى وقد قوى
وكونه فردا هو المشهورُ ‏ قد نطق الحديث والجمهورُ

وهم يعتقدون أن مبعوث المائة الأولى عمر بن عبد العزيز ومبعوث الثانية الشافعى ، والثالثة الأشعرى أو ابن سريج ، والرابعة الاسفرايينى أو الصعلوكى أو الباقلانى . ويتفقون على أن مبعوث المائة الخامسة هو الغزالى ، ويقول السيوطى فى ذلك

والخامس الحبر هو الغزالى ‏ وعدُّه مافيه من جدال [1]

وأنا لا أريد الآن تحقيق هذه الفكرة ، وبيان ماترتكز عليه من أساس قوى أو ضعيف ، فهى فى ذاتها فكرة سخيفة ، ونظم السيوطى فيها أسخف ، ويكفى أن يعلم القارئ أن الغزالى بذّ معاصريه ، وأخملهم ، حتى جاء المتأخرون فعدوه مجدد المائة الخامسة ، وقد يكونون مخطئين !

٢

المنامات والأحلام

ومما يدل على أن الغزالى شغل الناس ، واحتل أفئدتهم ، وصار موضع وساوسهم ، وهواجسهم ، وأحلامهم ، مارأيناه لغير

(١) راجع شرح الزبيدى ص ٢٦ ج ١

واحد من المنامات المتشابهة فى تأييد الغزالى ، ونشر فضله ؛

فهذا السبكى يذكر فى طبقاته أنه كان فى زمانه شخص يكره الغزالى ويذمه ويعيبه فى الديار المصرية ، فرأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما بجانبه ، والغزالى جالس بين يديه وهو يقول : يارسول الله هذا يتكلم فيّ ! وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : هاتوا السياط ، وأمر به فضرب لأجل الغزالى ، وقام هذا الرجل من النوم وأثر السياط على ظهره ، ولم يزل ، وكان يبكى ويحكيه للناس (! ؟)

ويذكر السبكي أيضا أن أبا الحسن بن حرزهم لما وقف على الاحياء وتأمله ، قال هذا بدعة ، مخالف للسنة ، وكان شيخا مطاعا فى بلاد المغرب ، فامر باحضار كل ما فيها من نسخ الاحياء ، وطلب من السلطان أن يلزم الناس بذلك ، فكتب إلى النواحي ، وشدد فى ذلك ، وتوعد من يخفى شيئا منه ، فاحضر الناس ما عندهم واجتمع الفقهاء ، ونظروا فيه ، ثم أجمعوا على إحراقه يوم الجمعة وكان ذلك يوم الخميس ، فلما كانت ليلة الجمعة رأى ابن حرزهم فى المنام كأنه داخل من باب الجامع الذى تعوّد الدخول منه ، فرأى فى ركن المسجد نوراً ، واذا بالنبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما جلوس ، والامام أبو حامد قائم وبيده الاحياء فقال يارسول الله : هذا خصمى ! ثم جثا على ركبتيه وزحف عليهما إلى ان وصل الى النبى صلى الله عليه وسلم فناوله كتاب الاحياء ، وقال : يارسول الله انظر فيه ، فان كان بدعة مخالفا لسنتك كما زعم ، تبت الى الله تعالى ، وإن كان شيئاً تستحسنه حصل لى من بركتك ، فانصفنى من خصمى ! فنظر فيه رسول الله ورقة ورقة الى

آخره ، ثم قال : إن هذا شيء حسن ، ثم ناوله أبا بكر فنظر فيه كذلك ، ثم قال : نعم ! والذى بعثك بالحق يارسول الله إنه حسن ! ثم ناوله عمر فنظر فيه كذلك ، ثم قال كما قال أبو بكر . فأمر رسول الله بتجريد أبى الحسن بن حرزهم من ثيابه ، وضربه حدّ المفترى ، فجرد وضرب ، ثم شفع فيه أبو بكر بعد خمسة أسواط ، وقال يارسول الله ، إنما حصل ذلك منه اجتهاداً فى سنتك وتعظيما . فعفا عنه أبو حامد عند ذلك . فلما استيقظ من منامه ، وأصبح ، أعلم اصحابه بما جرى ، ومكث قريبا من الشهر متألما من الضرب ، ثم سكن عنه الألم ، ومكث إلى أن مات ، وأثر السياط على ظهره (؟ !)

وهناك المنام الذى رأى فيه أبو الفتح الساوى أنه تلا بين يدى رسول الله قواعد العقائد الذى صنفه الغزالى ، وهو منام طويل نقله السبكى فى طبقاته . وقد كنت وضعت قائمة لأمثال هذه المنامات ، ثم بدا لى أن أقتصر على ماذكرت رغبة فى الايجاز

وأنا لا أتخذ من هذه الأحلام دليلا على أن الغزالى من أصحاب الكرامات ، كما نوّه بذلك مترجموه ، كلا ! وإنما أتخذها دليلا على ما وصلت إليه منزلة الرجل فى قلوب المسلمين ، فإن لما يراه المرء فى منامه صلةً قويةً بما يلهج به فى يقظته ؛ وهؤلاء الذين جُلِدوا فى منامهم ، لا يبعد أن يكونوا استشعروا خوف الغزالى وهم أيقاظ ، وعلى الأخص إذا لاحظنا ما شاع بين المسلمين فى تلك العصور الخوالى من سلطة الأولياء ، وتصرفهم المطلق فى عالم الأحياء ، وسبحان من جلّ عن الشريك !

٣

تلامذة الغزالى وأصحابه

ومما يبين عن أثر العالم فى عصره ، تلامذته وأصحابه : فهم فى علمهم ، وأدبهم ، أثر من آثاره . وقد أثر الغزالى تأثيراً حسناً فى جمهور كبير من تلامذته وأصحابه ، ذكرهم الزبيدى ، منهم القاضى ابو نصر احمد ابن عبد الله الخمقرى (نسبة الى خمس قرى التى تعرف بسيخ رية) ولد سنة ٤٦٦ وتوفى سنة ٥٤٤ هـ ومنهم الامام ابو الفتح احمد بن على بن محمد بن برهان — بفتح الباء — ولد سنة ٤٧٦ وتوفى سنة ٥١٨ ومنهم أبو منصور محمد بن إسماعيل بن القاسم الطوسى توفى سنة ٤٨٦ ومنهم أبو سعيد محمد بن أسعد بن محمد النوقانى قتل فى مشهد على بن موسى الرضى سنة ٥٥٤ فى واقعة النفر ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن تومرت المصمودي الملقب بالمهدى صاحب دعوة سلطان المسلمين عبد المؤمن بن على ملك المغرب ، دخل الشرق وتفقه على الغزالى . ومنهم أبو حامد محمد ابن عبد الملك بن محمد الجوزقانى الاسفرايينى . ومنهم ابو سعيد محمد بن على الجاوانى الكردى حدث بكتاب إلجام العوام للغزالى عنه . ومنهم الامام أبو سعيد محمد بن يحيى بن منصور ولد سنة ٤٧٦ وهو من أشهر تلامذة الغزالى ، تفقه عليه وشرح كتابه البسيط

وما أريد أن أطيل فى هذا الباب ، وانما أنص هنا على أن تلامذة الغزالى أحدثوا أثراً كبيراً فى الحياة الاسلامية ، وأكثرهم ماتوا شهداء ، وليس اشتراك العلماء فى الحركات العامة ، إلا أثراً لقوتهم المعنوية ، وإيمانهم بما يدعون اليه . وانص أيضاً على أن تلامذة الغزالى لم يعرفوه

غالبا الا بمؤلف الاحياء ، فهم لم يصحبوه لمؤلفاته فى الفقه أو المنطق أو الاصول ، وانما صحبوه على انه داع الى الله ، ومرشد لمكارم الأخلاق

٤

مؤلفاته وفتاويه

ومما يدل على مبلغ تأثير الغزالى فى الحياة الاسلامية ، عناية الناس بمؤلفاته وفتاويه . فانا نجد مثلا كتابه الوجيز فى الفقه وضع له نحو سبعين شرحاً كما قال الزبيدى ، وقد قيل : لو كان الغزالى نبيالكان معجزته الوجيز ! وممن شرح هذا الكتاب الفخر الرازى وابو الثناء محمود بن أبي بكر الارموى . والعماد أبوحامد محمد بن يونس الاربلى ، وأبو الفتوح العجلى ، وأبو القاسم عبد الكريم ابن محمد القزوينى الرافعي ، وقد اختصر النووى من شرح الرافعي كتابا سماه الروضة ، وخرج أحاديثه ابن الملقن فى سبع مجلدات ، سماه البدر المنير ، ثم اختصره فى أربع مجلدات وسماه الخلاصة ، ثم لخصه فى جزء ، وسماه المنتقى . ولخصه أيضا الحافظ بن حجر ، وشرح الوجيز أيضاً البدر الزركشى ، والبدر بن جماعة ، والشهاب البوصيرى ، والجلال السيوطى

ونجد أيضا كتابه الوسيط فى الفقه ، شرحه تلميذه محمد بن يحيى النيسابورى شرحا سماه المحيط فى ستة عشر مجلدا ، وشرحه نجم الدين احمد بن على بن الرفعة فى ستين مجلدا وسماه المطلب وشرحه النجم القمولى وسماه البحر المحيط ، وشرحه عدد غير هؤلاء ذكرهم الزبيدى فى ص ٤٣ ج ١ شرح الاحياء

وقال عمر بن عبد العزيز بن يوسف الطرابلسي يمدح كتبه الاربعة في الفقه

هذّب المذهب حبرٌ أحسن الله خلاصه

ببسيط ووسيط ووجيز وخلاصة

ونجد كذلك كتابه المستصفى في الأصول موضع عناية العلماء ، فقد اختصره أبو العباس أحمد بن محمد الاشبيلي المتوفى سنة ٦٥١ﻫ . وشرحه أبو علي الحسن بن عبد العزيز الفهري المتوفى سنة ٧٧٦ وعليه تعليقات لسليمان بن داود الغرناطي المتوفى سنة ٨٣٢

ونجد كتابه تهافت الفلاسفة قد أحدث رجة عنيفة بين فلاسفة المسلمين ، فقام ابن رشد المتوفى سنة ٥٩٥ وألف كتاباً في نقده ، ومقام ابن رشد في عالم الفلسفة غير مجهول . ثم جاء خوجه زاده المتوفى سنة ٨٩٣ وألف كتاباً في التحكيم بين الغزالي وابن رشد باشارة السلطان محمد الفاتح العثماني . ووضع علاء الدين بن علي الطوسي كتاباً في المحاكمة بين الغزالي وابن رشد ، سماه الذخيرة ، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية نمرة ١٧٤

ونجد كتابه قواعد العقائد شرحه ركن الدين الاسترابادي ومحمد أمين ابن صدر الدين الشرواني

ونجد العلماء عنوا بتحقيق نسبة (المضنون به على غير أهله) إلى الغزالي . وممن بحث ذلك السبكي وصاحب تحفة الارشاد . وصنف أبو بكر محمد بن عبد الله المالقي المتوفى سنة ٧٥٠ كتاباً في رده ، وهذا مظهر لعناية العلماء بنفي مادس عليه

وليست عناية العلماء بفتاويه بأقل من عنايتهم بكتبه ، فقد جمعها غير واحد ، بل رأينا من كتب دروسه التي كان يعظ بها الناس

فى بغداد ، ورأيناهم يحفظون مانقل عنه من القصائد المتفرقة (انظر نمرة ٢٤٣ ، ١٢٨ ، ٥٦٢ ، ٢٧٦٢ من فهرست دار الكتب المصرية)

ولو رجعنا إلى ما ألف فى الوعظ والفقه فى الاعصر الاخيرة لرأينا أكثر المؤلفين يرجعون إلى الغزالى فى أكثر الأبواب

وقد أخبرني صديق عبد القوى افندى الحلبى أن من النادر أن تنشأ مكتبة فى أي قطر من الاقطار الاسلامية ، ولا تشتمل قائمتها على طائفة من كتب الغزالى فى الفقة والأخلاق

٥

علاقة الفقه بالاخلاق

وقد يبدو لأول نظرة ، أن لا صلة بين اهتمام العلماء بمؤلفاته فى الفقه وبين تأثرهم بما كتب فى الأخلاق ، ولكننا لو عرفنا أن الروح السائد فى ذلك العصر كان يجمع بين الفقه والتصوف ، لرأينا أن اهتمام المؤلفين بشرح مصنفات الغزالى إنما كان أثراً لإيمانهم بصلاحه وتقواه ، وقد كانت الأوساط الفقهية ولا تزال تعتقد أن لصلاح المؤلف تأثيراً فى الانتفاع بمؤلفاته ، ولو كتب فى الحساب والنجوم

أضف الى هذا أن الغزالى نفسه كان يُعنى بالفقه والتوحيد فى مؤلفاته الأخلاقية ، فكأنه يرى هذين الفنين جزءاً أو مقدمة لعلم الأخلاق

والذين عُنوا بنقد كتبه إنما التفتوا أيضاً الى الوجهة الأخلاقية ؛ فالقضاة منهم كانوا يرونه خطراً على الأخلاق ، لأنه يجانب الشريعة ، وهى فيما يرون أساس الأخلاق . والفلاسفة منهم كانوا يخافونه على الأخلاق ، لأن لها قواعد متينة تلقوها عن معلميهم ، وصاحبنا هذا يريد أن يأتى على تلك القواعد بأذاعته وساوس المتصوفه ، وقد وقع ما كانوا يحذرون

٦

تأثير الاحياء

ولئن قالوا فى الوجيز ما قالوا ، ووضعوا عليه ما شاءوا من عشرات الشروح ، وفعلوا مثل ذلك أو قريبا منه فى مؤلفاته فى الفقه ، والتوحيد ، والأصول ، فإن أبعد كتبه أثراً ، وأسيرها ذكراً ، وأبقاها على وجه الدهر ، هو كتابه إحياء علوم الدين بلا جدال

كتب الغزالى فى الفقه ، ولكن لم يجدّد مذهبه الا بمقدار ، فلم يثر فتنة . وكتب فى المنطق ، ولكنه لم يزد عن سواه غير الإبانه والإيضاح . وكتب فى الأصول ، ولكن بحيث لا يثير الخصومة ، ولا يهيج اللّدَد . وكتب فى الفلسفة ، ولكنه لم يزد على أن تغنى بليلى معاصريه . وكتب فى التوحيد ، فلم يخالف الأشاعرة إلا قليلا ، فظل مستور الحال

وما كتب الإحياء حتى التفت الناس اليه من كل جانب ، وسار اسمه مسير الشمس ، وشغلت به جميع القلوب ، شوقاً اليه ، أوعتباً عليه ، أوبغضاً له ،أو رفقاً به. وقدشهد هذه الضجة ، وسمع هذه الصيحة ، وهو حى يرزق . وحاول أن يهدى ناقديه بكتاب يوضح فيه ماغمض فى الاحياء ، وهو الإملا على إشكالات الاحياء. ولكنه فى الواقع لم يزده إلا إشكالاً الى إشكال . فلجّ الناس فى المراء ، فوضع كتابه المنهاج ، على أن يكون موضع وفاق ، فكان فى الواقع أيضاً ضغثا على إبالة ، ثم مات الغزالى قبل أن يحسم هذا النزاع ، فلم تهدأ العاصفة بموته ، بل قامت قيامة الجدل بين تلامذته وبين خصومه ، ولا يزالون مختلفين !

ويمكن الحكم بأن الخصومة التى كانت بين انصار الغزالى وبين خصومه كانت خصومة بين الشريعة والتصوف ، فإن أنصار الغزالى جميعاً صوفية ، أو شبه صوفية ، وخصومه جميعاً من علماء الشريعة . وأبعدهم غوراً فى النيل منه هم المتصدرون للفتيا والقضاء .

فبينما نجد ابن القيم يرميه (بالتخليط والهذيان) نجد أبا الحسن الشاذلى يذكر أنه رأى النبى فى منامه وقد باهى موسى وعيسى

بالغزالى . وقال : أفى أمتيكما حبر كهذا ؟ فقالا : لا ؛ ونجد أبا العباس المرسى يشهد له بالصديقية العظمى ؛ وليت شعرى ما هيه ؟

والفرق كبير بين من يرميه بالتخليط والهذيان وبين من يحلم بأن لا نظير له فى أمة موسى وعيسى عليهما السلام

وقد قدمت لك شيئاً من المنامات المتعلقة به ، وبينت مالها من أسباب ، وأزيد الآن أن كل هذه المنامات مسببة عن الإحياء فهى تارة تقع لناقدى ذاك الكتاب ، وتارة تقع للمنتفعين به من علماء الاسلام

والذين أحرقوا الاحياء ، لم يحرقوه لأنه كتاب هيّن ؛ والذين ألفوا الكتب فى نقده ، لم يفعلوا ذلك لانه كتاب هيّن ؛ وإنما نقده هؤلاء ، وأحرقه أولئك ، لأنه فيما يرون كتاب خَطِر وليكن خطراً على الاسلام والمسلمين ، وليكن كتاب شر وفتنة ، وليكن كتلة زندقة وإلحاد ، فهو على كل حال كتاب رهيب خشيه أولئك الناس ، وهذا ما يعنينا الآن

وأشهر من نقد الاحياء الامام ابو عبدالله المازرى المالكى المتوفى سنة ٥٣٦ وقد ناقشه السبكى فى طبقاته ، فليرجع اليه من شاء ، ويتلخص نقد المازرى فى أن الغزالى غير ثقة فيما تعرض له من الفنون ، وأن كتابه (متردد بين مذاهب الموحدين والفلاسفة وأصحاب الاشارات) ويتلخص رد السبكى فى رمى المازرى بالحسد والكيد للصوفية فى شخص

الغزالى . وممن نقده ابو الوليد الطرشوشى . وتجد جملة من نقده فى الجزء الاول من شرح الاحياء للزبيدى. فاما الذين كتبوا فى فضل الاحياء فهم كثير : منهم الشيخ عبد القادر العيدروس ، وضع كتابا سماه : تعريف الأحياء ، بفضائل الاحياء . وفى أيدى الناس كتاب (لبعض الفضلاء) اسمه : بغية القاصدين لفضائل احياء علوم الدين .

وأطال السبكى فى مدحه حتى نقل عن بعض المحققين انه قال : لو لم يكن للناس فى الكتب التى صنفها الفقهاء الجامعون فى تصانيفهم بين النقل والنظر والفكر والأثر غيره لكفى . ثم قال : وهو من الكتب التى ينبغي للمسلمين الاعتناء بها وإشاعتها ليهتدى بها كثير من الخلق ، وقلما ينظر فيه ناظر الا ويتعظ به فى الحال

ويدل على مبلغ تأثير الاحياء عناية العلماء به ، فانا نجد الحافظ العراق خرّج أحاديثه فى كتابين : أحدهما كبير الحجم فى مجلدين ،وهو الذى صنفه فى سنة ٧٥١ هـ ثم اختصره فى مجلد وسماه المغنى عن حمل الأسفار . ثم أتى تلميذه شهاب الدين بن حجر العسقلانى فاستدرك عليه ما فاته فى مجلد . وصنف الشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفى كتابا سماه : تحفة الأحياء ، فيما فات من تخريج أحاديث الاحياء وقد سبقت كلمتنا فيما نقل السبكى من الأحاديث الموضوعة

وممن اختصر الاحياء أبو الفتوح احمد بن محمد الغزالى المتوفى بقزوين سنة ٥٢٠ هـ وسماه لباب الاحياء . واحمد هذا هو أخو الغزالى. ثم اختصره احمد بن موسى الموصلى المتوفى سنة ٦٢٢ . ثم محمد بن سعيد اليمنى ، ويحيى ابن ابى الخير اليمنى ، ومحمد بن عمر بن عثمان البلخى وسماه عين العلم وزين الحلم (انظر نمرة ١٠٩ من فهرست دار الكتب المصرية) . واختصره عبد الوهاب بن على الخطيب المراغى وسماه لباب الاحياء . واختصره

الشمس محمد بن على بن جعفر العجلوني المشهور بالبلالى شيخ خانقاه سعيد السعداء بمصر المتوفى سنة ٨٢٠

واختصره ابن الجوزى فى كتاب سماه : منهاج القاصدين . ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية نمرة ١٦٧

وللاحياء شرح مطول يقع فى عشر مجلدات ، وفيما شاء الله من الصفحات ، الفه الزبيدى ، وقد اعتمدت على هذا الشرح فى تحقيق كثير من مواطن الخلاف

ولم يقف الأمر عند شرح الاحياء ، واختصاره ، وتخريج أحاديثه ، بل وضعت الأبحاث المفردة ، لشرح كلمة وردت فى الاحياء ، وهى : ليس فى الامكان أبدع مما كان . وممن شرح هذه الكلمة : عبد الوهاب الشعراني ، وعبد الكريم الجيلى ، ومحمد المغربى شيخ الجلال السيوطى ، واحمد بن مبارك السجلماسى ، وأبو بكر بن عربي . ووضع ناصر الدين ابن المنير الاسكندرى رسالة فى هذه المسألة سماها : الضياء المتلالى ، فى تعقب الاحياء للغزالى . وفى مناقضة هذه الرسالة ألف السيد السمهودى رسالة تقع فى سبعة كراريس كما قال الزبيدى . وألف البرهان البقاعي رسالة فى هذه المسألة سماها تهديم الاركان ، وألف الجلال السيوطى رسالة ناقض بها البقاعى سماها تشييد الاركان

٦

الانتفاع بمؤلفات الغزالى

ولقد تتبعت العصور التى تلت عصر الغزالى فوجدت الانتفاع بمؤلفاته ظاهراً كل الظهور فى حياة علماء الدين والتصوف والأخلاق . ولقد رأيت من بينهم من هَمَّ بحفظ كتاب الاحياء

عن ظهر قلب . ورأيت منهم من كان يتقرب إلى الله بِنَسْخ هذا الكتاب . ونجد فى ص ٦٩ ج ٣ من خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر، مظهراً لأثر الغزالى فى ذلك العصر ، إذ تجد من العلماء من يتخذ وِرْداً من الاحياء كما يتخذ ورداً من القرآن ولولا خوف الإطالة لضربت للقارئ عشرات الأمثال

وفى العصر الحاضر يدرس كتاب الاحياء فى الازهر والمعاهد الدينية ، وكان الاستاذ الشيخ محمد عبده قرر أن يدرس معه كتاب ابن مسكويه فى تهذيب الأخلاق ، ولكن رأى العلماء فيه آراء فلسفية ، فقرروا لذلك حذفه ، لئلا يفسد الطلاب !

والأستاذ الشيخ يوسف الدجوى ينصح لتلامذته دائماً بالانتفاع بكتاب الاحياء . وكنت ممن أوصاهم بذلك ، ولكن الله لم يشأ أن أكون كما أراد الاستاذ ، فقد رأيتَ كيف صوّرتُ الغزالى بصورة الرجل الذى قد يخطئ وقد يصيب ، وهذا من مثلى كثير !

وأثر الغزالى ظاهر فى مؤلفات الشيخ الدجوى ، وهو أيضاً سبب ضعف تلك المؤلفات: فان كتاب سبيل السعادة الذى وضعه الاستاذ منذ بضع سنين يشبه أن يكون خلاصة مشوهة للآراء الحديثة فى فهم أصول الأخلاق ، وفضيلة الشيخ معذور لأنه لايعرف لغة أجنبية ، ولأنه يبغض المدنية الحديثة من أعماق

صدره ، ويستبعد الاهتداء بآراء الفلاسفة المحدثين !

ويمكن الحكم بأن دراسة كتاب الاحياء فى الأزهر مجرداً من آراء المفكرين فى نقده ، وتمييز غثه من ثمينه ، كانت السبب فى إفساد العقلية الازهرية ، وجعلها غير صالحة لأن تسمو بأصحابها إلى الطمع فى أن تكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين

والأمل كبير فى أن يصل هذا الصوت إلى من بيدهم الأمر فى الازهر والمعاهد الدينية: فيغيروا ذلك المنهج القديم فى دراسة الاخلاق، فان فى الأزهر ولواحقه نحو عشرين ألفاً من الطلبة تميتهم تلك المذاهب البالية ، التى يعوّلون عليها فى فهم نزعات النفوس ، وخلجات القلوب . وسبحان من لو شاء لهدانا وإياهم سواء السبيل !

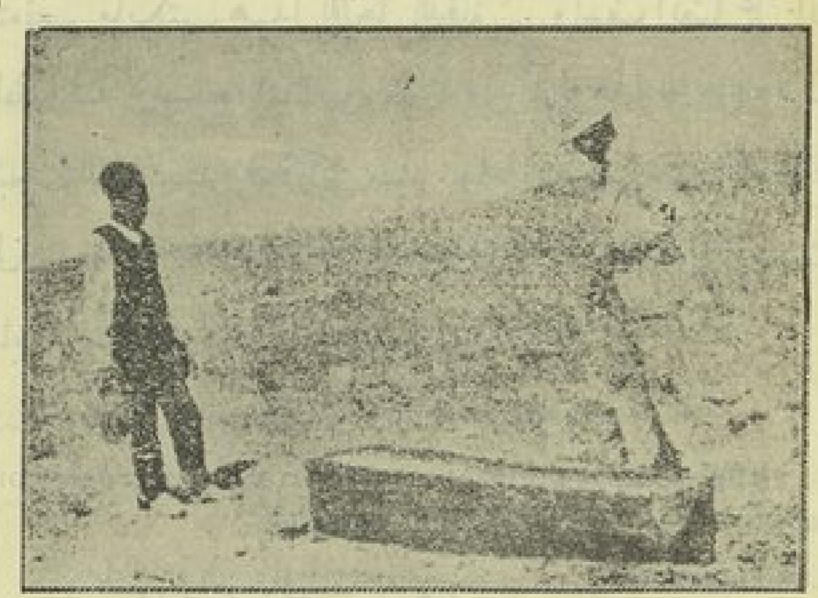
٧

عناية الأجانب بالغزالى

ومما يتصل بتأثير الغزالى في الحياة العلمية ، عناية الأجانب به : فقد كتبت عنه عدة مؤلفات : بالفرنسوية ، والانجليزية ، والألمانية . ومنهم من يتعصب له فوق ما يفعل المسلمون . ويعده الدكتور زويمر واحداً من أربعة ويقول : كل باحث فى تاريخ الاسلام يلتقى بأربعة من أولئك الفطاحل العظماء . وهم : محمد نبي المسلمين نفسه ، والبخارى ، والأشعرى ، والغزالى .

والدكتور زويمر من المستشرقين الانجليز الذين درسوا العقلية

الشرقية ، وكتابه عن الغزالى من الكتب القيمة ؛ وتجد فيه من مظهر العناية بالغزالى ما كتبه عن قبره ، نقلا عن خطاب وصله من القس دونالدسن فى ١٧ يناير سنة ١٩١٧ ، وقد زار قبر الغزالى ووجد فى احدى زوايا الحجر كلمة (غزالى) و (بوحا) وأصلها بالطبع أبو حامد . وهذا هو الرسم الذى أرسله القس دونالدسن الى الدكتور زويمر عن قبر الغزالى



ومن أجود ما كتب بالفرنسوية عن الغزالى كتاب Carra de Vaux والمسيو كارادى ڤو هذا رجل خبير بالحياة الاسلامية ، وله كتاب عن ابن سينا أحب أن يطلع عليه من يود أن يعرف شيئاً عن المدارس الفلسفية عند المسلمين ، وإني لآسف حين أقرر

أن المستشرقين يفهمون مذاهب أهل السنة والمعتزلة أكثر من علماء الأزهر الذين اذا عرض لهم ذكر المعتزلة لم يزيدوا على أن يقولوا (قبحهم الله) وقد أخبرنى حضرة الاستاذ الدكتور طه حسين أن المسيو كازانوڤا وضع كتابا عن الغزالى ، وانى لملوم فى أن غفلت عن هـذا الكتاب ، فان الطريقة التى جرى عليها المسيو كازانوڤا فى كتابه «محمد ونهاية العالم» طريقة تغرى الباحث بتعقب مايكتب هـذا الرجل الدقيق . وآسف أيضاً على أن الظروف لاتسمح بأن أترجم شيئاً من آراء هذا الرجل ، لأن البحث العلمى عنده فوق كل مقام . وانما أدعو من يحب الاطلاع الى مراجعة Mohamet et la fin de monde فان فيه من المباحث مايواتى شهوات العقول ، وللعقول شهوات ! !

وهناك كتاب للمسيو Moher موضوعه :

Etudes sur la philosophie d'Averroës concernant son rapport avec celle d'Avicenne et Gazali

ويحسن الرجوع الى المقدمة التى وضعها المسيو Lucien gautier حين نقل الدرة الفاخرة الى الفرنسوية traité d'éschatologie musulemane ويحسن الاطلاع على الجزء التاسع من المجموعة السابعة من Journal asiatique وفى مقدور القارئ أن يرجع الى encyclopédie de l'islam 20 livre اذا أراد أن يعرف ما كتب

عن الغزالى بالفرنسوية والانجليزية والألمانية . وقد أخبرنى حضرة الاستاذ الشيخ مصطفى عبدالرازق أنه علم أن فى اللغة التركية عدة مؤلفات عن الغزالى . وأحسب أن السبيل اليها ممهد لمن شاء

وأحب أن يعفينى القارىء من تفصيل ما أعرف عن نظر المستشرقين الى الغزالى ومذاهبه الصوفية ، فانى مضطر الى الاكتفاء بارشاده الى طريق الاطلاع

الفوز للحياة

وبالرغم من تأثير الغزالى فى الشرق والغرب ، وتغلغله فى أعماق الحياة العلمية ، فان الفوز فيما يظهر لن يكون لآرائه فى الأخلاق . ولكن سيكون الفوز للحياة

ألا إن الأخلاق كالشرائع . فكما تنهزم الشريعة أمام الحياة ، كما انهزمت المسيحية لخروجها على ما للحياة من قوانين ، كذلك تنهزم الأخلاق أمام الحياة ، حين تخلو عما فى الحياة من عناصر وأصول

وهكذا انهزم الغزالى حين نازل الحياة :

حرّم النقش والتصوير ، ولكن النزعات البشرية مشت فى طريقها بقوة . ولم تصدف عن النقوش والتصاوير !

وحرم الغناء . ولكن مشت الأذواق فى سبيلها بقوة ،

ولم تزل ظامئة الى الأنغام والألحان !

وليته حين حرم النقش والتصوير والغناء ، وضع لذلك عِللاً معقولة ؛ ولكنه حرم التصوير لأنه يدعو الى الوثنية ، وهذا كذب على الواقع ، فطالما أحببنا تهاويل الصوَّر ، ولم نفكر فى الوثنية . وحرم الغناء لأنه يدعو الى شرب الخمر . وهذا ظن مردود ، فطالما سمعنا عبد اللطيف افندى البنا وابراهيم افندى القباني والشيخ عبد السميع عيسى ، ولم نفكر فى الخمر ، ولا فى مجالس الخمر ! !

ليست الأخلاق شيئاً آخر غير مناهج الحياة . والأخلاق التى تبنى بها الأمم ليست مايعرفه الغزالى من التواضع ، والتوكل ، والخمول ، وانما هى فهم قوانين الحياة . وأحب أن أكرر كلمة الحياة : لأنها عندى غاية الأخلاق

والفضائل السلبية كالصبر ، والزهد ، والقناعة ، لن تكون فضائل حتى تقضى الظروف باعتبارها أسلحة ماضية فى سبيل الحياة . فقد يكون الخمول من أسباب النباهة وذيوع الشهرة ، كما يكون الصيت أحيانا من أسباب الخمول

ولا قيمة للحياة بغير القوة . فيجب أن تكون الأخلاق بابا الى الحياة القوية . وطالما شككت فى قوله عليه السلام : اللهم أحيني مسكيناً ، وأمتني مسكيناً ، واحشرني فى زمرة المساكين !

الباب الثانى عشر

فى

أنصار الغزالى وخصومه

قدمنا أن الخصومة كان مثارها الفرق بين الفقه والتصوف وأن أنصار الغزالى كانوا فى الاغلب صوفية ، وأن خصومه كانوا فى الأكثر من الفقهاء . ونريد الآن أن نقفك على ترجمة طائفة من أنصار الغزالى وخصومه ، ونبين بجانب ذلك شيئاً مما اختص به أولئك العلماء الذين حاربوا الغزالى أو أيدوه ، لنمهد لك السبيل إلى فهم الحركة العقلية التى أوجدتها مؤلفات الغزالى ، وسبيلنا الإيجاز فى هذا الباب ، لأن المقام لا يسمح بالتطويل

ابن رشد

ولد فى قرطبة سنة ٥٢٠ هـ ١١٢٦ م . ودرس فى صغره الفقه والتوحيد والاصول . ثم أقبل على دراسة الطب والفلسفة . وكان له بسبب علمه وفضله عدد من الحساد يتقولون عليه الاقاويل . توفى رحمه الله بمراكش فى أوائل سنة ٥٩٥ هـ بعد أن ذاق

الأمرّين من نفى واضطهاد ، جزاء ماقدمت يداه من شرح فلسفة القدماء !

والذى يقرأ حياة ابن رشد ، ويرى مالقيه فى زمانه ، يعلم أن العرب كانوا يحتضرون ، وأن دولتهم كانت تمشى الى الفناء ، لأن الذين يحاربون الفكر الحر ، ويضطهدون المفكرين الأحرار ، لا يصلحون مطلقاً للحياة . وكذلك دالت دولة العرب بعد قليل

وخصومة ابن رشد للغزالى تكاد تكون فلسفية ، فقد وضع الغزالى كتابا سماه تهافت الفلاسفة ، والغرض من الكتاب ظاهر من عنوانه ، فعارضه ابن رشد بكتاب سماه تهافت التهافت ، والذى يهمنى من معارضة ابن رشد للغزالى انما هو دفاعه عن ابن سينا والفارابى ، فقد كان الغزالى يراهما من الكفار .

ويتلخص دفاع ابن رشد فى أن مسألة قدم العالم وحدوثه التى كانت مثار الخلاف ، إنما كان الاختلاف فيها بين المتكلمين من الأشعرية وبين الحكماء المتقدمين يكاد يكون راجعاً للاختلاف فى التسمية وبخاصة عند بعض القدماء . فان هناك ثلاثة أصناف من الموجودات طرفان وواسطة بين الطرفين . وقد اتفقوا فى الطرفين واختلفوا فى الواسطة . أما الطرف الأول فهو موجود وجد عن شيء ومن شيء ، أى عن سبب فاعل ومن مادة ، والزمان متقدم على

وجوده وهذه هي حال الأجسام التي يدرك تكونها بالحس مثل الماء والهواء والأرض والحيوان والنبات . وهذا الصنف اتفق الجميع على أنه محدث . وأما الطرف المقابل لهذا فهو موجود لم يكن من شيء ولا عن شيء ولا تقدمه زمان . وهذا اتفق الجميع على أنه قديم وهو الله . وأما الصنف الثالث فهو موجود لم يكن من شيء ولا تقدمه زمان ، ولكنه موجود عن شيء أي عن فاعل ، وهذا هو العالم بأسره . والكل متفق على وجود هذه الصفات الثلاث للعالم ، فان المتكلمين يسلمون بأن الزمان غير متقدم عليه لأن الزمان عندهم شيء مقارن للحركات والأجسام ، وهم أيضاً متفقون مع القدماء على أن الزمان المستقبل غير متناه وكذلك الوجود المستقبل ، وانما يختلفون في الزمان الماضي والوجود الماضي فالمتكلمون يرون أنه متناهٍ ، وهذا هو مذهب أفلاطون وشيعته وأرسطو وفرقته يرون أنه غير متناه كالحال في المستقبل . يقول ابن رشد «فهذا الموجود الأخير الأمر فيه بين أنه قد أخذ شبها من الوجود الكائن الحقيقي ومن الوجود القديم . فمن غلب عليه ما فيه من شبه القديم على ما فيه من شبه المحدث سماه قديما . ومن غلب عليه ما فيه من شبه المحدث سماه محدثا . وهو في الحقيقة ليس محدثا حقيقيا ولا قديما حقيقيا . فالمذاهب في العالم ليست تتباعد كل التباعد حتى يكفر بعضها ولا يكفر ، فان الآراء التي شأنها هذا يجب أن تكون في الغاية من التباعد ، أعني أن تكون متقابلة كما ظن المتكلمون في هذه المسألة »

ولم يقف ابن رشد عند هذا الحد ، بل انتقل إلى كلام هو في الواقع صفع لأدعياء العلم الذين يحسبون قدم العالم وحدوثه من الأمور الهينة التي يصدرون عنها الفتوى كأنها مسئلة طلاق ! !

وإليك ما يقول في ذلك :

« مع أن هذه الآراء في العالم ليست على ظاهر الشرع ، فان ظاهر الشرع اذا تُصُفِّح ظهر في الآيات الواردة في الانباء عن إيجاد العالم أن صورته محدثة بالحقيقة . وأن نفس الوجود والزمان مستمر من الطرفين أعني غير منقطع . وذلك أن قوله تعالى (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء) يقتضي بظاهره وجوداً قبل هذا الوجود ، وهو العرش والماء ، وزمانا قبل هذا الزمان ، أعني المقترن بصورة هذا الوجود ، الذي هو عدد حركة الفلك . وقوله تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) يقتضي بظاهره وجوداً ثانياً بعد هذا الوجود . وقوله تعالى (ثم استوى الى السماء وهي دخان) يقتضي بظاهره أن السموات خلقت من شيء »

وهناك صفعة ثانية تفضل بها ابن رشد على علماء التوحيد . ذلك بأن هؤلاء القوم يختلقون من الأساليب والاصطلاحات ما لا يعرفه الدين ، ثم يقولون : من تعدى هذه الحدود فهو كافر . فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ؟ !

وإليك ما يقول ابن رشد في ذلك :

« والمتكلمون ليسوا في قولهم أيضا في العالم على ظاهر الشرع ، بل

متأولون ، فانه ليس فى الشرع أن الله كان موجوداً مع العدم المحض ، ولا يوجد هذا فيه نصاً أبداً ، فكيف يتصور فى تأويل المتكلمين فى هذه الآيات أن الاجماع انعقد عليه ؟ ثم قال : والظاهر الذى قلناه من الشرع فى وجود العالم قد قال به فرقة من الحكماء . ويشبه أن يكون المختلفون فى هذه المسائل العويصة إما مصيبين مأجورين ، وإما مخطئين معذورين فان التصديق بالشىء من قِبَل الدليل القائم فى النفس هو شىء اضطرارى لا اختيارى ، أعنى أنه ليس لنا أن نصدق أو لا نصدق ، كما لنا أن نقوم أو لا نقوم ، واذا كان من شرط التكليف الاختيار ، فالمصدق بالخطأ من قِبَل شبهة عرضت له اذا كان من أهل العلم معذور ، ولذلك قال عليه السلام : اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وان أخطأ فله أجر »

وبمناسبة كلام ابن رشد نقرر أن علماء التوحيد أسرفوا فى تكفير الفلاسفة بل أسرفوا فى تكفير بعضهم البعض ، بأسباب ضعيفة لا يعرفها الاسلام ، وما زالوا يسرفون حتى حفظ عنهم الرأى العام جملة تعابير هى مناط الكفر والايمان . وفى كتاب فيصل التفرقة للغزالى مظهر لهذه الآراء الفاسدة ، التى ظنها الأولون حقائق ، وهى فى الواقع أباطيل

والذى أراه أن مجازفة علماء التوحيد فى الحكم بحدوث العالم ، وفى وصف الله بصفات معينة محدودة ، وفى تعيين مصير العالم بشكل خاص ، كل أولئك يدل على أن هؤلاء الناس كانوا فى غاية السذاجة ، وأن نظرهم كان غير بعيد . وستسخر المقادير

منهم يوم تطوى كتبهم وآراؤهم ، ويدخلون فيما يسمى قبل التاريخ، كما دخل مِن قبلهم ألوف الالوف من أصحاب الشرائع والقوانين

ابن تيمية

ولد بحَرّان يوم الاثنين عاشر ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ . وقدم به والده الى دمشق فى سنة ٦٦٧ حين استولى التتار على حران . وقد تلقى عن والده الفقه والأصول ، ثم عُنِيَ بالنظر فى الحساب والجبر والفلسفة ، وتقدم للتدريس وسنه دون العشرين . وقد بلغت مصنفاته ثلثمائة مصنف . منها تعارض العقل والنقل والجواب الصحيح فى الرد على النصارى واثبات المعاد والرد على ابن سينا واثبات الصفات والرد على الامامية الخ

قال الحافظ ابن كثير : وفى رجب سنة ٧٠٤ راح الشيخ تقى الدين ابن تيميه الى مسجد الفارنج وأمر أصحابه وتلامذته بقطع صخرة كانت تزار وينذر لها هناك . فقطعها وأراح المسلمين منها ومن الشرك بها ، فأزال عن المسلمين شبهة كان شرها عظيما . وبهذا وأمثاله أبرزوا له العداوة . وكذلك بكلامه فى ابن عربى واتباعه ، فحسد وعودى ، ومع هذا لا تأخذه فى الله لومة لائم ، ولم يبال بمن عاداه . ولم يصلوا اليه بمكروه . وأكثر ما نالوا منه الحبس ، مع أنه لم ينقطع عن البحث لا بمصر ولا بالشام

وكان ابن تيمية كثيرا ماينشد هذه الأبيات :

لولم تكن لي فى القلوب مهابةٌ   لم يطعن الأعداء فىَّ ويقدحوا
كالليث لما هِيب خُطاله الزبى [١]   وعوت لهيبته الكلاب النبّح
يرمونني شُزْرَ العيون لأنني   غلّست فى طلب العَلاء وصبّحوا

وقد توفى رحمه الله فى صباح الاثنين عاشر ذى القعدة سنة ٧٢٨ وهو فى السجن . فأخرج الى الجامع فى يوم مشهود لم يعهد فى دمشق مثله ، وقد تبرك الناس بماء غسله ، واشتد الزحام على نعشه ، ودفن بمقابر الصوفية بعد أن صلوا عليه مرارا ، وقدر من حضر جنازته من الرجال بمائتى ألف ومن النساء بخمسة عشر ألفا . ورثاه كثير من العلماء منهم ابن الوردى

والذى يعود الى ترجمة ابن تيمية فى الكتب التى عُنِى مؤلفوها بترجمته يعرف كثيراً عن العقلية الاسلامية فى القرن الثامن ، ويكفى أن نلفت القارئ الى قولهم «ودفن بمقابر الصوفية» فإن لذلك معانى لا تعزب عن ذهن اللبيب ، وما أريد أن أزيد

وابن تيمية من كبار المفكرين فى الاسلام ، ولكنه لا يخلو من سذاجة . فإنك بينما تراه يتوغل فى المدركات المعقولة ، تراه ينحدر فجأة فى هاوية الأوهام . من ذلك قوله « العلماء هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدي بهم

(١) الزبى جمع زبية وهى الحفرة

فى ظلمات البر والبحر . وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم ، اذ كل أمة قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم فعلماؤها شرارها إلا المسلمين فان علماءهم خيارهم »[1] وهذا بالطبع حكم لا سند له من معقول ، أو منقول

ويعد ابن تيمية من خصوم الغزالى لأنه كتب فصولاً كثيرة فى تناقضه ، وتسفيه بعض آرائه . ومن أعجب ما رأيت له ، حكمه بأن الغزالى هجر طريق الصوفية فى أخريات أيامه ، وفى ذلك يقول : « ولهذا تبين له فى آخر عمره أن طريق الصوفية لا تحصل مقصوده فطلب الهدى من طريق الآثار النبوية ، وأخذ يشتغل بالبخارى ومسلم ومات فى أثناء ذلك على أحسن أحواله ، وكان كارها ما وقع فى كتبه من نحو هذه الامور مما أنكره الناس عليه »

وأنا لا أستبعد كلام ابن تيمية ، فان الغزالى كان متقلباً فى آرائه لا يستقر على حال . فهو تارة فقيه ، وتارة صوفى ، وتارة فيلسوف

وسبب هجوم ابن تيمية على الصوفية أنه رأى منهم من يفضل الولى على النبى ، كما رأى من الفلاسفة من يفضل الفيلسوف على النبى . فانا نراه يمدح ابن سينا لانه يفضل النبى على الفيلسوف ويسمى طريقه طريق العقلاء ، ويذم الفارابى لأنه يفضل الفيلسوف على النبى ، ويسمى طريقه طريق الغلاة . ويذم

(١) انظر مقدمة رفع الملام

محيي الدين بن عربى لأنه كان يدعى أنه كان يأخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يوحَى به الى النبي ، لأن الملَك على أصلهم هو الحال الذى فى نفس النبى ، والنبى فى زعمهم يأخذ عن ذلك الحال ، والحال يأخذ عن العقل ، فهو على ذلك أفضل من النبى لأنه لا يحتاج إلى وسيط

وأحب أن أنبه القارئ الى أنى إنما أذكر تاريخ فكرة من الأفكار الاسلامية ، لا أكثر ولا أقل ، والمؤرخ غير مسئول

ابن القيم

هو من تلامذة ابن تيمية . ولد فى سنة ٦٩١ وتوفى سنة ٧٥١ .

لقى فى حياته ضروباً من الشدة بسبب آرائه الحرة . فقد حبس مدة لإنكاره أن تشد الرحال إلى قبر الخليل . وقد حبس مع ابن تيمية فى المدة الأخيرة ، ولم يفرج عنه إلا بعد موت أستاذه .

وله عدة تصانيف . منها مدارج السالكين ، وشرح أسماء الكتاب العزيز ، ونقد المنقول ، والمحك المميز بين المردود والمقبول ، وأعلام الموقعين الخ

وابن القيم هذا من ألد خصوم الغزالى ، وقد نقلنا جملة من آرائه حين تكلمنا عن أغلاط الإحياء ، فلا نعود اليها الآن

وأكرر ماقلته من أننى أوجز كل الإيجاز فى هذا الباب .

فلهؤلاء الذين أترجمهم آراء هى غاية فى الخطورة ، من حيث ما فيها من الدقة ، ومن الجرأة ، مع أنهم فيما أرى كانوا يبالغون فى الاحتياط ، لأن العالم الاسلامى كان يضطهد الفلاسفة إذ ذاك . ولو سمح لنا الدهر بوضع كتاب فى الفلسفة الاسلامية لاستطعنا أن نرفع عن هؤلاء الأفذاذ آصار الخمول

السبكى

هو تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقى الدين السبكى المتوفى سنة ٧٧١ . والسبكى هذا من كبار المؤلفين . وكتابه جمع الجوامع فى الأصول يدل على كده وكدحه فى سبيل العلم ، وإن كان غايةً فى اللبس والغموض . وكتابه طبقات الشافعية الكبرى كتاب جيّد ، من حيث ما فيه من عيون المسائل الفقهية ، ومن حيث الترتيب . وعيب السبكى يرجع الى ضعفه فى النقد والتمييز ، ولو خلت كتبه من الآراء التى اعتمد فيها على ذاكرته فقط ، لكان لها شأن كبير

ويعتبر السبكى من أنصار الغزالى ، وقد كتب عنه فى الطبقات أكثر من ثمانين صفحة ، « ودافع عنه دفاع الأبطال » حين عرض لخصومه . وهو يعتقد بكل سذاجة أنه لو لم يكن لدى

المسلمين غير كتاب الاحياء لكفى ! ! وما أريد أن أطيل فى الكلام عن السبكى ، فقد عرضنا له عدة مرات

الزبيدى

هو محمد بن محمد الحسينى الزبيدى . وهو من علماء القرن الثانى عشر ، وقد وضع شرحاً مطولاً للإحياء فى عشر مجلدات ، انتهى من تأليف الجزء الأول منه فى يوم الجمعة ٢٥ محرم سنة ١١٩٣ هـ . وفى هذا الجزء كتب دفاعه عن الغزالى

وهو من أشد أنصار الغزالى ، ولكن دفاعه عنه دفاع سخيف ، لا قيمة له ، لا فى نظر الشرع ولا فى نظر العقل . من ذلك قوله فى تأييد ما يراه الغزالى من أن الزواج ميل إلى الدنيا :

«وأما كون التزويج من جملة الميل الى الدنيا فهو ظاهر ، لأنه فى الغالب يطلب للاستمتاع : وذلك لا يحصل إلا بالوقوع فى الآفات التى كان عنها بمعزل أيام عزوبته ، لاسيما ان كان متجرداً عن القيام بالاسباب التى تجلب له أمر معاشه فانه يتلف بالكلية ، ويلزمه الرياء لكل من أحسن اليه بلقمة أو خرقة أو غيرها فأبغض الخلق اليه من يذمه عنده خوفا من ان يتغير اعتقاده فيه فيقطع عنه بره فكأن عبادة هذا كلها لأجل الذى أحسن اليه »

وهذا كلام غير مفهوم فى الواقع ، فضلا عن أن يكون دفاعاً عن رأى يرى الناس أنه غير صواب

الباب الثالث عشر

فى

الموازنة بين الغزالى وبين الفلاسفة المحدثين

هذا باب إذا أملته طال ، لأن لآراء الغزالى أشباها كثيرة ، فى الفلسفة الحديثة . وتحملنى الرغبة فى الايجاز على الاكتفاء بأهم وجوه المقابلة بينه وبين الفلاسفة المحدثين . وحسبى أن أدل القارئ على كيفية السير فى هذا الطريق

١

الغزالى وديكارت descartes

أقرب الفلاسفة شبهاً بالغزالى هو ديكارت لأنه ارتاب كما ارتاب الغزالى ، وبقى فى شكه وارتيابه زمناً غير قليل

ولد ديكارت فى لاهاى سنة ١٥٩٦ م أى بعد الغزالى بنحو ٥٣٠ سنة . تلقى العلم فى مدرسة يسوعية ، كأكثر الأطفال لعهده ، وحمله جده ونشاطه على دراسة اللغات القديمة ، والأساطير والتاريخ ، والبلاغة ، والشعر ، والرياضيات ، والأخلاق ، واللاهوت . ولم يقنع بذلك ، بل قرأ كل ما وقع فى يده من نادر المؤلفات ، كما حدث عن نفسه . ورحل إلى باريس فى السادسة عشرة من عمره ، وتطوع فى الجندية ، وعمل عدة سياحات

فى ألمانيا ، والسويد ، والدانيمارك ، ثم استقر فى هولنده ، حيث رأى الاقامة فيها أنفع لنشر آرائه بحرية لم تسمح بها فرنسا اذ ذاك

وبعد أن أقام فى هولنده عشرين سنة ، مكبا على وضع مذهبه ، دعته كريستين ملكة السويد لتتلقى عنه العلم ، ولكنه لم يتحمل برد تلك البلاد ، فقضى نحبه فى سنة ١٦٥٠ بعد أن أمضى نحو سنة فى ستوكهلم ، ثم حملت جثته الى فرنسا فى سنة ١٦٦٧ ودفن بكنيسة saint-étienne

مؤلفات ديكارت

يعتبر ديكارت فى نظر مؤرخى الآداب الفرنسوية أول رجل عبر عن آرائه الفلسفية بلغة واضحة ، وجعل لغة الفرنسيس لغة فلسفة ، بعد أن كان الفلاسفة من قبله يكتبون فلسفتهم باللغة اللاتينية . وأهم ما يعنينا من مؤلفاته :

أولا — règles pour la direction de l'ésprit

ثانيا — discours de la méthode

ثالثا — méditations métaphysiques

رابعا — les principes de la philosophie

خامسا — les passions de l'âme

فى هذه المؤلفات بسط ديكارت آراءه الفلسفية . فليرجع

إليها من شاء ، فانه لا يوجد عنه شيء مقنع بالعربية

شكوك ديكارت

وكما ارتاب الغزالى حين رأى صبيان النصارى لا نشوء لهم إلا على التنصّر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهوّد ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الاسلام ، فقد ارتاب ديكارت حين رأى شيوع التقليد ، ورأى الناس فى الأكثر إما أن يكونوا ضعفاء لا يقدرون على تمييز الحق من الباطل ، فيتبعوا آراء غيرهم بلا بصيرة ، وإما أن يكونوا أقوياء ، فيسرعوا الى الحكم ثقةً بقوتهم ، فاذا شكوا بعد ذلك ، فقد لا يهتدون إلى سواء السبيل

ومما حمل ديكارت على الشك ، ما رآه فى أسفاره من اختلاف العادات والآراء ، وتباين العقائد والمدركات ، وما تبيّنه من تأثير التربية ، فى التفرقة بين أخلاق الشعوب

وأهم ما تنبه له فى رحلاته ، الشك في قيمة الرأى العام ، والاستهانة بكثرة الأصوات . لأن اجماع الأمة على رأى ، لا يدل على أنه رأى الأمة ، فقد يكون رأى فرد واحد ، حُملت عليه الأمة لسبب من الأسباب

وآراء الفلاسفة كانت مما حمل ديكارت على الارتياب ، إذ قلما يوجد رأى غريب بعيد التصديق إلا وقد قال به فيلسوف

ولكن ديكارت كان فى ارتيابه أصرح من الغزالى . فبينما نجد الغزالى يحدثنا بأنه دام قريباً من شهرين على مذهب السفسطة «بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال» أى انه لم يكاشف الناس بشكه إلا حين أجمعوا أو كادوا يجمعون على تقديسه ، نجد ديكارت يتطلب الأماكن الصالحة لنشر شكوكه ، ونجده يحكم ببطلان الآراء التى بنى عليها آراءه حين ظنها حقة ، وبوجوب التخلى مرة واحدة عن جميع آرائه ، ليضع بناء جديداً على أساس جديد

ونرى الغزالى شك فى المحسوسات ، لأنه ينظر الى الظل فيراه واقفا لا يتحرك ، فيحكم بنفى الحركة ، ثم يعرف بالتجربة والمشاهدة ، أنه يتحرك ولكن بالتدريج . ثم نراه همّ بالشك فى العقليات ، لأنه يعتقد فى النوم أموراً ، ويتخيل أحوالاً يعتقد لها ثباتاً واستقراراً ، ثم يستيقظ فيعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاته ومعتقداته أصل ، فيسأل : بمَ تأمن أن يكون جميع ما تعتقده فى يقظتك بحس أو عقل هو حق بالاضافة الى حالتك ، وقد يمكن أن يطرأ عليك حالة أخرى تكون نسبتها إلى يقظتك كنسبة يقظتك إلى منامك ؟

كذلك نجد ديكارت يقرر أن الأشياء التى سلّم بأنها أثبت من غيرها وأصح ، انما كان اعتمد فى صحتها وثباتها على الحواس ،

وقد تبيّن غير مرة أن الحواس خدّاعة — وهو كذلك يرى في نومه تصورات يعلم حين يستيقظ أنها باطلة ، فمن أين يعرف فضل اليقظة على المنام ، أو فضل المنام على اليقظة ، وهو في كليهما مُضَلَّلٌ مخدوع ؟ !

الفرق بين الغزالي وديكارت

الفرق عظيمٌ جداً بين الغزالي وديكارت ، فان الغزالي خرج من شكه بطريقة لا تصل بأحد الى يقين ، خرج من شكه بنور الله ، ونور الله هذا لا يعرفه العلم ، حتى يضمه الى ما لديه من أصول . والغزالي نفسه يشعر بذلك ، فقد نراه يحكم بأن من ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة ، فقد ضيّق رحمة الله الواسعة ، وينقل أن رسول الله لما سئل عن « الشرح » ومعناه في قوله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) قال : نور يقذفه الله في القلب فيشرح به الصدر فقيل وما علامته ؟ قال : التجافي عن دار الغرور ، والإنابة الى دار الخلود . يقول الغزالي : وهو الذي قال صلى الله عليه وسلم فيه (إن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره) فمن ذلك النور ينبغي أن يطلب الكشف ! !

وما دام الغزالي لم يرجع عن شكه « بنظم دليل وترتيب كلام »

كما قال ، فمن العبث أن نستعين العقل والمنطق لنخرج من ظلمات الشكوك . وهذا يناقض كل المناقضة ما فعله ديكارت للخروج من شكوكه ، وكذلك كان الغزالى سبباً لخمود الفلسفة فى الشرق ، كما كان ديكارت سبباً لنهوضها فى الغرب

أسلوب ديكارت

لم ير ديكارت من الحكمة أن يخرج على ما فى بلاده من عادات وقوانين ، بل رأى من الخير أن يحافظ على الدين الذى نشأ عليه ، وأن يسير على أكثر الأمور قبولاً واعتدالاً عند أهل عصره ، حتى يتمكن من وضع مذهبه فى طمأنينة وسكون

ويقول بول جانيه paul Janet إن ديكارت حين اقتنع بعدم كفاية العلوم المعروفة لعصره ، لم يركن الى الارتياب كما فعل مونتينى montaigne بل رأى من الواجب أن يبنى صرح العلم على أساس جديد . وكذلك يمكن أن نقول إن الغزالى انهزم أمام شكوكه ، ولكنه لم يركن الى الارتياب كما فعل مونتينى ، ولم يفكر فى وضع العلم على أساس جديد كما فعل ديكارت ، ولكنه انتظر هداية الله ، والله يهدى من يشاء !

وأول ما يبدأ به ديكارت هو الدعوة إلى نبذ الكتب وتحكيم العقل ، لأنه يرى أن المؤلفات التى تنطوى على مختلف

الاراء ، ليست أقرب إلى الحقيقة من التعقلات البسيطة التى يقوم بها رجل سليم الذوق ، وقد لمس الأشياء بيديه . والمهم عنده أن تحسن التفكير، لا أن تعرف كيف فكر الناس . والبناء الذى قام به مهندس واحد ، خير عنده من البناء الذى يقوم به عدد من المهندسين ، فان وَحْدة الذوق من موجبات الجمال

ويرى ديكارت أنه لوضع فلسفة جديدة ، يجب أن يوضع أسلوب جديد . والأسلوب المختار لديه هو الأسلوب الرياضى ، لأنه يعصم الفكر عن الخطأ والضلال

وقد وضع لأسلوبه هذه القواعد الأربع :

أولاً — لا يصح قبول شىء على أنه حق ، مالم يُعرف (ماهو) بغاية الوضوح

ثانياً — تقسم كل مسألة صعبة الى ما يمكن أن تشتمل عليه من الأجزاء ، ليكون ادراكها سهل المنال

ثالثاً — ترتيب التفكير ، والابتداء بالموضوعات السهلة البسيطة ، للوصول الى الموضوعات المركبة

رابعاً — فرض نظام فى الموضوعات التى لا يسبق بعضها بعضاً فى الطبع

يقول بول جانيه « ولهذه القواعد الاربع فى ذهن ديكارت معنى جد محدود . والقاعدة الاولى تظهر كانها عادية ،وليس كذلك ،

فان إغفال كل سلطة ، و إقرار الاستقلال المطلق للعقل ، كان فى أوائل القرن السابع عشر جرأة وبدعة [1] . ومن جانب آخر ينبغى أن تفهم كلمة (وضوح) فان كل ما نعتقده بقوة ليس واضحا ، ولأجل وضوحه ينبغى أن يخلص العقل من كل تأثير للحواس والخيال ، ليدرك الافكار بوضوح وتميز . فان مدركات الحواس مختلطة ، والآراء المعقولة هى التى تولد من أعماق العقل واضحة متميزة . وكذلك لا يوجد واضح محسوس ، اذ كل واضح معقول »

والجارحة التى تدرك الحقيقة مباشرة هي البصيرة intuition ولا يريد بها ديكارت ما يتغيّر من أحكام الحواس والخيال ، وإنما يريد بها إدراك العقل السليم اليقظ : الادراك السهل الواضح الذى لا يتطرق إليه أى شك ، الادراك الحازم الذى يولد فقط من أضواء العقل

وبموجب هذه البصيرة يستطيع كل انسان فيما يرى ديكارت أن يعلم أنه موجود ، وأنه يفكر . ويستطيع كذلك أن يعلم أن الواحد نصف الاثنين ، وان ٢ + ٢ = ٤ كما أن ٣ + ١ = ٤ لأن هذه الأحكام مدركة بغاية الوضوح والجلاء

وديكارت يبدأ بنفسه فيفرض أن جميع ما يراه باطل ، فماذا يمكن أن يعتبر صحيحاً حينئذ ؟ قد لا يثبت إلا عدم وجود شئ يقينى فى العالم ، ولكن يبقى بالطبع أن هناك انساناً شكَّ ، وأن

(١) بدعة : هى الكلمة التى اخترناها لترجمة كلمة nouveauté لانها أقرب الى المراد

هذا الانسان لا محالة موجود . وهنا يقول ديكارت كلمته المأثورة Je pense, donc Je suis أنا أفكر ، فأنا إذن موجود . ولا بأس فيما يرى ديكارت أن يُغَشّ الانسان ويُخدع ، فان هذا يدل فقط على أنه رأى الأشياء مرة على غير ما هى عليه ، ولا ينافى أنه كائن موجود . ويرى ديكارت أنه قد يرغب فى أشياء لن تكون فالمرغوب فيه موهوم ، ولكن الرغبة نفسها حقيقة لاخيال

وجملة القول فى أسلوب ديكارت أنه لا شئ أوضح لديه من فكره ، فهو يؤمن أولا بوجوده ، ثم ينتقل إلى الأشياء يقيس وجودها بقدر ما فيها من الوضوح ، لأن القاعدة عنده أنه لا يصح قبول شيء على أنه حق حتى يعرف « ما هو » بغاية الجلاء

ولفلسفة ديكارت كثير من الخصوم والأنصار ، ولا يسمح لنا الوقت بتفصيل ما قيل فى النيل منه ، والدفاع عنه ، وربما عدنا إليه فى مؤلف خاص

٢

الغزالى و بسكال pascal

ولد بَسكال فى كليرمون فى ١٨ يونيه سنة ١٦٢٣ وانتقل به أبوه الى باريس فى سنة ١٦٣١ حيث اتصل بكثير من علماء ذلك العصر ، وكان أول أستاذ لبسكال هو والده الذى عنى بتربيته على

قوة الفكر ، وحسن الاستنباط . وقد شغف بسكال بالرياضة ، وألف فيها وهو يافع . ثم مال إلى الفلسفة ، ولكنه لم يعوّل على عقله ، بل أسلم نفسه لهواجس دينية ، حُمِل عليها بضعف صحته ، واضطراره إلى حياة العزلة والانفراد

واشتهر بسكال بكتابه الأفكار pensées وهو مجموعة آراء جمعت وطبعت بعد وفاته ، وكتابه lettres provinciales يمثّل رأيه فى حياة القسيسين والرهبان

ووجه الشبه بين الغزالى وبسكال هو أن كلا منهما ابتدأ حياته بقوة قهّارة ، ثم انتهت به صحته الى الرضى بالخمول فى ظلال التنسك والزهد ، فقد رأيت كيف أقبل الغزالى على كل علم ، وكيف درس كل النِحَل ، وعرف بواطن جميع الفِرَق ، ثم رأيت كيف رضى بوساوس الصوفية ، وعدَّ كل ما سوى مذهبهم ضلالا فى ضلال ! !

وكذلك ابتدأ بسكال حياته بتأييد مذهب ديكارت ، والتحمّس لنصرة العقل ، ومحاربة الوساوس القديمة . حتى لنجده يدافع عن الشهوات الكبيرة التى توجد الاعمال العظيمة ، كالحب والطمع . وذلك فى رسالته discours sur les passions de l'amour ولكن صحة بسكال أخذت تسوء يوما بعد يوم ، واضطر إلى العزلة فى port-royal واختار الفلسفة الصوفية التى لخصها

في محادثته مع مسيو دى ساسى كما قال بول جانيه ، ثم عوَّل أخيراً على الاكتفاء بالانجيل

ومما يقرب بسكال من الغزالى شكه فى قوة الطبيعة الانسانية ، فهو يرى أن الانسان مملوء بالخطأ الغريزى الذى لايزول الا بعناية الله . وليس هناك شىء يهدى الانسان الى الحقيقة ، بل كل شىء يخدعه . ومع أن العقل والحواس أصلان للحقائق فإن كلا منهما يخدع صاحبه ، والناس يدعو بعضهم بعضا الى الخداع : فهم يتبادلون المدح لعلمهم فيما بينهم بكراهة الحقيقة التى تنافى المدح ، وكذلك لايتكلم امرؤ فى حضرتك كما يتكلم فى مغيبك ، فالانسان فى نظر بسكال مجموعة من الكذب والزور والنفاق

وقد بالغ بسكال فى احتقار العقل . ثم تمنى لو أنه عرف جميع الأشياء بالوحى والشعور ولم يحتج أبدا الى العقل ! ! ويتهم بسكال عقله باغرائه بالشك . ويعتقد أن الدين لايأتى مطلقا من ناحية العقل ، وانما يأتى من شعور القلب ، ومن هداية الله ، ويجوز أن يأتى الدين من طريق العقل ، ولكن مثل هذا الدين لاينفع للنجاة ! ! وهذا بالطبع اسراف

٣

الغزالى وهوبس hobbes

ولد هوبس فى انجلتره سنة ١٥٨٨ ورحل الى باريس فى سن الأربعين حيث درس الرياضيات وعلوم الطبيعة . ثم زار فرنسا مرة ثانية ، وأقام فيها مدة طويلة ، واتصل صلة متينة بالفيلسوف جسندى صاحب الفضل على موليير وڤولتير . ثم مات فى انجلتره سنة ١٦٧٩

وأشهر مؤلفات هوبس هو كتابه la nature humaine وكتابه leviathan أو la matière, la forme et l'autorité du gouvernement وفى هذا الكتاب الأخير دافع عن الأثرة ، والاستبداد ، فقد كان هوبس من غلاة الماديين ، والاحساس عنده ليس الا حركة من حركات المخ ، وهذه الحركة متى وافقت الوظائف الحيوية أنتجت اللذة ، واللذة تولّد الرغبة ، والرغبة توجد الإرادة . فليست الإرادة إذاً إلا رغبة مسيطرة . وهوبس لا يعرف باعثاً للعمل غير طلب اللذة ، أو الهروب من الألم . والعواطف عنده ليست إلا صوراً لحب الذات

وهوبس من أصحاب نظرية العقد الاجتماعى contrat social

التى عُنى بها چان چاك روسو فيما بعد . ويرى هوبس أن الانسان مفطور على الأثرة والشره ، وأن جميع أعماله إنما هى سُلَّم الى مطامعه . وهذه الفطرة جعلت الحياة الطبيعية مرة المذاق ، لطمع القوى فى الضعيف . ويتخيّل هوبس أن آباءنا الأولين لم يروا سبيلا إلى السلامة من شر الأقوياء غير الانضمام تحت لواء سلطة بشرية تدفع عنهم عادية المطامع ، وهذه السلطة تمثَّل فى الملك ، ولهذا الملك جميع الحقوق التى كانت لجميع الأفراد قبل التعاقد ، وليس عليه إلا واجب واحد : هو حفظ الأمن

ويرى هوبس تأييداً لنظريته أن الدين الحق هو دين الدولة مهما كان جوهره ، وعلى كل فرد الخضوع له ، والخروج عليه كفر ومُروق

ويظهر مما سلف أن هوبس يريد بنظرية العقد الاجتماعى تأييد الملوكية ، ولا كذلك روسو حين دافع عن هذه النظرية فانه يرى أن حياة الطبيعة كانت حياة نعيم ، وأن الناس لما أفسدوها بأنفسهم اضطروا إلى أن يتنازل كل فرد منهم عن جزء من حريته ليتكون من مجموع هذه الاجزاء قوة مدنية تدافع عن الجميع ، وهذه القوة لا تمثل فى الملك كما يرى هوبس ، وانما تمثل فى شخص هو مندوب الامة ، ولها عزله حين تريد

إلى هنا لايرى القارئ أى تناسب بين هوبس وبين الغزالى والواقع أن الجمع بينهما بعيد ، لان الغزالى رجل تضحية وإيثار ، والخير عنده يرجع فى الاكثر الى نفع الناس، فى حين أن هوبس يرى الخير فى أن يعمل المرء لنفسه ، قبل أن يحلم بسواه . ولكنى رأيت بعد البحث انهما يتفقان فى تكييف وجهة الطبيعة الانسانية ، وان اختلفا فى غاية الاخلاق ، فاذا كان هوبس يرى أعمال المرء مظهراً للاثرة ، ويرى حب المرء لجاره ليس إلا ضربا من حب النفس ، وأن طاعته للقوانين الاخلاقية ليست إلا سعياً فى سبيل نفعه ، فكذلك الغزالى يتهم أكثر العاملين بالرياء ، ويرميهم بحب الذات

والغزالى يسىء الظن بالطبيعة الانسانية ، ويرى العمل فى الأغلب لا يراد به الا نيل الثواب ، أو الفرار من العقاب ، ولايزال بالطبيعة الانسانية يفحصها ويسبر أغوارها بمسبر الشك والارتياب ، حتى يصل بعد الفحص إلى أن هناك رياء « هو أخفى من دبيب النمل » ومن كلامه : رب عبد يخلص فى عمله ، ولا يعتقد الرياء بل يكرهه ويرده ، ولكن اذا اطلع عليه الناس سره ذلك وارتاح له ، وهذا السرور يدل على رياء خفى ، فلولا التفات القلب الى الناس ما ظهر سروره عند اطلاع الناس

والفرق بين الغزالى وهوبس ، يرجع الى أن هوبس يريد أن يجعل وجهة الطبيعة الانسانية أساساً للاخلاق ، فيكون الخير ما ينفع المرء ، والشر ما يضره . ولكن الغزالى يرى أن الخير لا يكون إلا حيث ينتفع المرء ولا يضر غيره ، لان وجهة الغزالى وجهة إسلامية ، لا ضرر فيها ولا ضِرار .

٤

الغزالى و بوتلير butler

بوتلير هو فيلسوف أنجليزى ولد سنة ١٦٩٢ وتوفى سنة ١٧٥٢ وهو يعوّل أكثر من الغزالى على الفطرة الانسانية وعنده أن المرء يستطيع بنفسه أن يدرك ما فى عمله من الخطأ والصواب قبل أن يقدم عليه ، وان لم يعلم شيئاً من المباحث الاخلاقية . ويرى أنه لا شئ يدعونا إلى طاعة قانون الاخلاق غير اعتماده على السريرة ، ولا يرى بوتلير فرقا بين السريرة التى تحتم طاعة الاخلاق وبين حب النفس ، ما دمنا نفهم سعادتنا الحقيقية فان الواجب والمنفعة لا يختلفان عنده ، وهنا يتفق مع الغزالى بعض الاتفاق ، لان وجهة الغزالى اسلامية ، والاسلام يرى المنفعة فى الواجب ، وان كان لا يرى الواجب فى المنفعة ، فان هذا شئ قد يكون وقد لا يكون . إلا إن أردنا ما هو نافع

فى الواقع . على أن بوتلير يقيد اتفاق المنفعة مع الواجب بالامور الاخروية ، ويرى اتفاقهما فى الامور الدنيوية كثير الوقوع ، لا واجب الوجود

وأجمل مافى بوتلير حكمه على الفضائل بأنها قانون الطبيعة ، فى حين أن الغزالى يراها ضروبا من التكاليف

٥

الغزالى وكارليل karlyle

ولد كارليل سنة ١٧٩٥ فى قرية اكلفكان بجنوب اسكوتلانده من والد يشتغل بصناعة البناء . تلقى مبادىء العلم فى قريته . ثم دخل جامعة ادنبرج فى الثالثة عشرة من عمره . وفى التاسعة عشرة من عمره صار مدرسا للرياضة بمدرسة أنان ، وبعد ثلاث سنين صار رئيس مدرسة ببلدة كركالدى . وفى سنة ١٨١٨ ترك مهنة التعليم . وذهب الى ادنبرج ، وهو لا يدرى ماذا يعمل ، ولكنه درس علم المعادن ، واضطر من أجله الى تعلم الألمانيه التى كانت سببا لذيوع شهرته . وتوفى سنة ١٨٨١

وكارليل هذا من كبار الفلاسفة ، ومن أعظم المدافعين عن الديانات . حتى لنجده يدافع عن الوثنية ، لأنها فى رأيه ليست الا إفراطا فى العجب من الشىء ، حتى ينقلب هذا العجب تقديسا

وعبادة ، ولأنه يرى أن الأقدمين ما قدسوا شيئاً إلا لأنه إله، أورمز الى اله . ومن آثار كارليل كتاب الأبطال الذى ترجمه الأستاذ محمد السباعى . وفى هذا الكتاب فصل ممتع عن النبي محمد صلوات الله عليه وسلامه . كان سببا فى تغيير وجهة أنظار الأجانب نحو الاسلام . ومن كلامه فى ذلك :

« لقد أصبح من أكبر العار على أى فرد مهذب من أبناء هـذا العصر أن يصغى الى ما يظن من أن دين الاسلام كذب ، وأن محمداً خداع مزوّر . وآن لنا أن نحارب مايشاع من مثل هذه الاقوال السخيفة المخجلة . فان الرسالة التى أداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرنا لنحو مائتى مليون من الناس أمثالنا ، خلقهم الله الذى خلقنا . أفكان يظن أحدكم أن هذه الرسالة التى عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائتة الحصر أكذوبة وخدعة ؟ أما أنا فلا أستطيع ان أرى هذا الرأى أبدا . ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هـذا الرواج . ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول . فما الناس إلا بله ومجانين ، وما الحياة الاسخف وعبث وأضلولة ، كاذالأولى بها أن لاتخلق . فوا أسفاه ! ماأسوأ مثل هذا الزعم . وما أضعف أهله ، وأحقهم بالرثاء والمرحمة ! ؟ »

وقد دافع كارليل عن الاسلام خير دفاع ، فناقش من رموه بالقسوة ، واستعمال السيف ، وبيّن أن المسيحية نفسها لجأت إلى القوة حين لم ينفع التسامح . ورد على من زعموا أن القرآن مملوء بالتعقيد ، وبيّن أن سبب هذه التهمة هو عجز الترجمـة عن نقل

بلاغة القران وحلاوته . وعارض من نسبوا الى رسول الله الهفوات ، وأكد أن طلب العصمة طلب سخيف ، فان العصمة لله وحده ، وأكبر الهفوات عنده أن يحسب المرء أنه برىء من الهفوات

الكفر والايمان

يتفق الغزالى وكارليل فى أن كلاً منهما مؤمن ثابت اليقين ، ويختلفان فى فهم السريرة الانسانية ، وفى نتيجة التفكير . فالغزالى لا يعترف للضمير بالصلاحية للحكم ، وانما الشرع هو الفَيْصل فى الُحسن والقُبح ، فما حسّنه الشرع فهو حسن ، وما قبّحه فهو قبيح . ولكن كارليل يرى أن الشعور بالواجب معنى أبدىّ ، وهو جزء من الطبيعة الانسانية ، فهو قوة غريزية لا تحتاج فى كسبها إلى شرائع ولا قوانين

ونتيجة التفكير محترمة عند كارليل ، وهو لا يصدق بأن الإلحاد والتفكير يجتمعان فى قلب رجل واحد . والاخلاص عنده هو الأساس . ومن كلامه : « يرجى لنا أن نفهم معنى الوثنية متى سلمنا أولا أنها كانت فى حين من الأحيان دينا صحيحا فى اعتقاد أهلها . فلنوقن كل اليقين أن الناس كانوا يؤمنون بوثنيتهم حق الايمان ولم يكن بهم من ذهول ولا جنون ولا نوم ولا مرض ، بل كانوا مع ذلك أصحاء العقول والحواس ، أيقاظاً قد صورهم الله على صورنا ، وخلقهم

تخلقنا ، لا فرق بيننا وبينهم فى حال من الأحوال . ولنوقن كذلك أنا لو كنا وجدنا معهم ، لآمنا بما كانوا يؤمنون به ، ولكنا وإياهم سواسية فى سائر الأشياء »

ويتلخص رأى كارليل فى أن كل دين فيه عنصر من الحق ، والوثنية عنده ليست إلا رموزاً شعرية ، وتمثيلاً بالمرئيات لما جرى فى وجدان الناس وأذهانهم عن الكون ومظاهره . وكل دين فيما يرى إنما هو رمز وتمثيل . ولكن الاختلاف هو فى المشاعر والافكار . والفرق بيننا وبين الوثنيين يرجع إلى الشكل أكثر مما يرجع إلى الجوهر ، لأن كلا منا يرى التفكير فى ملكوت الله نوعا من العبادة ، ونحن لو أُغرمنا بالكون كما أُغرِم الوثنيون به ، لرأينا الله فى كل نجم ، بل فى كل زهرة

رأى الغزالى فى الاجتهاد

لا يمكن لامرئ أن يكفر ، فى نظر كارليل ، مادام مخلصاً فى عقيدته ، مهما كانت تلك العقيدة . ولكن الغزالى يرى أن الاجتهاد له حد محدود . والمختار عنده أن الإثم والخطأ متلازمان فكل مخطئ آثم وكل آثم مخطئ ، ومن انتفى عنه الاثم انتفى عنه الخطأ ، وهو يقسم النظريات الى ظنيـة وقطعية : ولا إثم فى الظنيات إذ لا خطأ فيها . والقطعيات عنـده ثلاثة أقسام :

كلامية ، وأصولية ، وفقهية . ويعنى بالكلامية العقليات المحضة ، والحق فيها عنده واحد . ومن أخطأ الحق فيها فهو آثم . ويدخل فى هذا القسم حدوث العالم ، وإثبات المحدث ، وصفاته الواجبة والجائزة والمستحيلة ، وبعثة الرسل وتصديقهم بالمعجزات ، وجواز الرؤية ، وخلق الأعمال ، وإرادة الكائنات ، وجميع ما الكلام فيه مع المعتزلة والخوارج والروافض والمبتدعة . فهذه المسائل الحق فيها عنده واحد ، ومن أخطأه فهو آثم : فإن أخطأ فيما يرجع الى الايمان بالله ورسوله فهو كافر . وإن أخطأ فيما لا يمنعه من معرفة الله عز وجل ومعرفة رسوله ، كما فى مسألة الرؤية وخلق الأعمال وإرادة الكائنات ، فهو آثم من حيث عدل عن الحق وضل ، ومخطئ من حيث أخطأ الحق المتيقن ، ومبتدع من حيث قال قولاً مخالفاً للمشهور بين السلف ، ولا يلزمه الكفر . ويعنى بالأصولية كون الإجماع حجة ، وكون القياس حجة ، وكون خبر الواحد حجة الخ . وهذه المسائل أدلتها عنده قطعية ، والمخالف فيها مخطئ آثم . والفقهيات بعضها يكفر المرء بإنكاره ، وبعضها يأثم بجحوده فإنكار تحريم الخمر والسرقة ووجوب الصلاة والصوم ، كفر . وإنكار الفقهيات المعلومة بالاجماع خطأ وإثم

تحرير هذه المسألة

الأصل فى الحكم الأخلاق أن يتبع غرض العامل من عمله : إن خيراً فخير ، وان شراً فشر . فالعمل الذى أريد به الخير ، هو خير : وإن كان ضاراً فى ذاته . والعمل الذى أريد به الشر ، هو شر : وإن كان نافعاً فى ذاته . ويطالب الرجل فقط بأن يتروى قبل أن يعمل ، ليعرف ما فى العمل من ضر ونفع ، وخطأ وصواب . ومتى أفرغ الجهد فى البحث فقد أمن المسئولية ، واستحق حسن الجزاء .

ولقد تتبعت ما كتبه علماء المسلمين فى هذه المسألة فرأيتهم لا يكادون يهتدون . وسبب ضلالهم يرجع الى أنهم خلطوا بين الوجهة الأخلاقية ، والوجهة القضائية ، وكان يجب عليهم أن يفصلوا بين الوجهتين . فالذى يقتل مسلماً خطأً مدين من الوجهة القضائية ولكنه برىء من الوجهة الأخلاقية ، لأنه لم يقصد القتل . والشرع محق فى اعتماده على الوجهة القضائية ، لأن فيها استئصالاً للجرائم ، ولأن القاضى متى عذر كل من ادعى الخطأ فقد يفلت منه كثير من المجرمين

والذى يدلك على أن وجهة الشرع وجهة قضائية صرفة ، أنه يكتفى بإيمان المقلد . مع أن الايمان لا ينفع فيه التقليد .

ويقول الباجورى فى ص ٣٢ من حاشيته على الجوهرة ما نصه : (والخلاف فى ايمان المقلد انما هو بالنظر لأحكام الآخرة وفيما عند الله . وأما بالنظر الى أحكام الدنيا فيكفى فيها الإقرار فقط . فمن أقر جرت عليه الأحكام الاسلامية ، ولم يحكم عليه بالكفر ، إلا إن اقترن بشئ يقتضى الكفر كالسجود لصنم) وهذا واضح الدلالة على أن النجاة لا تكون باتباع الشرع . ولكن بالايمان به . والايمان شئ آخر غير ظواهر الأعمال

الخطأ والعناد

كان على الغزالى أن يفرق بين من يخطئ فى العقليات بعد اجتهاده ، وبين من يعاند . فان الأقرب الى الحق أن ينجو من نظر فى الشريعة الاسلامية من الفلاسفة بنية حسنة وبقصد الاقتناع ، ولكنه بعد البحث لم يقتنع ، ولم يقف مع هذا فى وجه المسلمين . ولو أن الغزالى نظر هذه النظرة ، لما كفر ابن سينا والفارابى ، إلا إن أمكن أن يثبت عندهما العناد ، مع انهما لم ينكرا الرسالة المحمدية ، ولكن الناس لعهد الغزالى كانوا فيما يظهر مصابين بداء الشك فى عقائد الفلاسفة ، ورميهم بالمروق

وقد جرت بينى وبين فضيلة الأستاذ الشيخ الدجوى مناقشة

فى هذه المسألة منذ ثلاث سنين ، فكان فضيلة الأستاذ يرى أن الكفر يكفى فيه الجهل ، وكنت أرى أنه لا يتحقق إلا بالعناد . ثم رأيت فيما بعد أن الجاحظ يرى هذا الرأى . وقد نقل الغزالى فى المستصفى « أنه ذهب الى أن مخالف ملة الاسلام ، من اليهود ، والنصارى ، والدهرية ، ان كان معاندا على خلاف اعتقاده فهو آثم ، وان نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور غير آثم ، وإن لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر فهو أيضاً معذور . وانما الآثم المعذب هو المعاند فقط : لأن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها ، وهؤلاء قد عجزوا عن درك الحق ، ولزموا عقائدهم خوفا من الله تعالى اذ استد عليهم طريق المعرفة » وينسب ابن الحاجب الى الجاحظ أنه قال : لا إثم على المجتهد مع أنه مخطئ . وتجرى عليه أحكام الكفار ، بخلاف المعاند فإنه آثم » وهذا يدل على أن الجاحظ مع حكمه بنفى الاثم عن المجتهد المخطئ يرى معاملته كما يعامل الكفار ، وهذه بعينها الوجهة القضائية التى حدثتك عنها منذ قليل

ويظهر أنه كان لهذا الرأى أنصار فيما سلف ، فقد جاء فى فصول البدائع ص ٤٢٤ ج ٢ مانصه (ومانقل عن بعض السلف من تصويب كل مجتهد فى المسائل الكلامية كخلق القرآن ، ونفى الرؤية ، وخلق الأفعال ، فمعناه نفى الاثم والمعذورية ، لاحقية القول والمأجورية) وجاء فى إرشاد الفحول ص ٢٤١ مانصه (مسألة الرؤية ، وخلق القرآن ، وخروج الموحدين من النار ، وما يشابه ذلك : الحق فيها واحد ، فمن أصابه فقد اصاب ، ومن أخطأه فقيل يكفر . ومن القائلين بذلك الشافعى

فمن أصحابه من حمله على ظاهره . ومنهم من حمله على كفران النعم »

وحكى ابن الحاجب فى المختصر عن العنبرى أن كل مجتهد مصيب . قال ابن دقيق العيد « ما نقل عن العنبرى والجاحظ ، إن أرادا أن كل واحد من المجتهدين مصيب لما فى نفس الأمر ، فباطل ، وإن ارادا ان من بذل الوسع ولم يقصر فى الأصوليات يكون معذوراً غير معاقب ، فهذا أقرب . لأنه قد يعتقد فيه انه لو عوقب وكلف بعد استفراغه غاية الجهد لزم تكليفه بما لا يطاق » انظر الشوكانى ص ٢٤٢

ترجيح بلا مرجح

يرى الغزالى فى كتاب فيصل التفرقة أن الرحمة تشمل كثيراً من الأمم السالفة ، وان كان أكثرهم يعرضون على النار ، إما عرضة خفيفة ، فى لحظة أوفى ساعة ، وإما فى مدة ، حتى يطلق عليهم اسم بعث النار . ويرى أن أكثر نصارى الروم والترك لعهده تشملهم الرحمة ، لأن منهم من لم يبلغه اسم محمد ، ومنهم من بلغه اسمه مقرونا بأكاذيب تصرف المرء عن النظر .

ويرى فى كتاب الصحبة أنه لاثواب ولاعقاب الا على الأفعال الاختيارية

ونسأله : لماذا رجوت أن تشمل الرحمة كثيراً من الأمم السالفة ؟ أليس ذلك لأنهم معذورون ؟ ولماذا حكمت بنجاة الترك ونصارى الروم ممن لم تبلغهم الدعوة ، أو بلغتهم محرفة مشوهة ؟

أليس ذلك لأنهم معذورون ؟ ولماذا قضيت بأنه لا ثواب ولا عقاب إلا على ما يفعل المرء باختياره ؟ أليس ذلك لأن عقاب المرء على ما اضطر اليه ، أو أكره عليه ، ظلم وعدوان ؟

واذا كان ذلك كذلك ، كما يعبر الكتاب الأقدمون ، فلماذا تحكم بكفر من لم يعلم وجوب النظر ، أو علم بوجوب النظر ، ولكنه بعد البحث لم يقتنع ؟ ولماذا تحكم بنفي الاثم عمن يجتهد ويخطئ في المسائل الفقهية ، وتحكم بالاثم والكفر على من يجتهد ويخطئ في المسائل الكلاميه ؟ ألا يسع العذر جميع المفكرين على السواء ؟ فان لم يسعهم ، أفلا يكون هذا الفرق ترجيحا بلا مرجح ، وهو في رأيكم غير معقول ؟

ظلم الابرياء

وما عجبت لشئ كما عجبت من حكم الجاحظ بمعاملة المعذورين كما يعامل الكفار . فانه اذا صح لديه أن مخالف ملة الاسلام من اليهود والنصارى والدهرية ، إن نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور غير آثم ، وإن لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر فهو أيضاً معذور ، وانما الآثم المعذب هو المعاند فقط ، أقول اذا صح عنده ذلك فكيف يحكم بأن يعامل هؤلاء معاملة الكفار ، وهم عند الله ناجون ؟ أفنكون نحن أغير من الله على دينه الذى لم يكلف فيه نفساً إلا وسعها ؟

ولقد أعلم أن الجاحظ لو كان حياً وسمع هذا السؤال ، لأجاب بأن فى هذا التشديد تقليلاً للخوارج على الدين . وهذا جواب معقول ، ولكن يلاحظ أنه تأييد لما قلناه آنفاً من أن علماء المسلمين نظروا الى هذه المسائل من وجهة قضائية ، لا من وجهة أخلاقية . وكان عليهم أن يتنبهوا الى الفرق بين القضاء والأخلاق ، فمن الواضح أن القتل الخطأ معاقب عليه من الوجهة القضائية ، مع أن الذى يَقتُل خطأ برىء أمام نفسه ، وأمام ربه ، وأمام الواقع

وأحب أن أنبه القارىء الى أنى فى هذا الحكم لا أتكلم من وجهة شرعية ، فقد يدّعى المدّعون أن الشرع لا يعرف ذلك . وإنما أتكلم من وجهة فلسفية ، وأفترض أن الشرع إن لم يتنبه لهذا الحكم ، فقد كان يجب أن يتنبه له ، وأن يضع له الحدود ، فإن المعذور برىء ، ومن الظلم أن يقتل الأبرياء

٦

الغزالى وسبينوزا spinoza

ولد سبينوزا فى امستردام سنة ١٦٣٢ من عائلة يهودية . وقد اضطهده اليهود لشكه فى تعاليم اليهودية . وهمّ أحدهم بقتله . فاضطر لذلك الى أن يعتزل فى لاهاى . وصار يكسب قوته بالعمل فى صقل زجاج التلسكوب والميكروسكوب . وقد عرض عليه أصدقاؤه المساعدة عدة مرات ، ولكنه رفض قبول المعونة بعزة

وإباء . وعُرض عليه منصب أستاذ للفلسفة بجامعة هيدلبرج ، ولكنه لم يقبل ، حباً فى الاستقلال . وعاش عيش الناسكين . وقد أصيب بمرض الصدر ، فاحتمله بلا شكاية . ثم مات سنة ١٦٧٧ بعد أن حكم أهل عصره بكفره

وأهم مؤلفاته traité théologico-politique وقد نشر فى حياته، وفيه أخضع الكتاب المقدس للنقد وحرية الفكر . وكتابه éthique ظهر بعد موته ، وفيه بسط مذهبه عما وراء الطبيعة ، وتكلم عن النفس ، والأهواء ، والشهوات .

وسبينوزا من أشد أنصار مذهب الحلول : فهو يرى أن الله هو كل شيء . وأن كل شيء هو الله . وهو فى ذلك يخالف الغزالى إذ يرى لله وجوداً غير وجود العالم . والله فى رأيه هو المدبر لهذا الكون ، ولكن سبينوزا يرى أن الله والعالم شيء واحد ، ويرى الله حالا فى كل ذرة ، وفى كل حبة ، وفى كل نبتة ، وفى كل ورقة ، وفى كل دابة ، الى آخر مافى الوجود . وليس للانسان حرية ، وان اعتقد أنه حر ، وانما يحلم وأعينه مفتوحة !

ومن أجل هذا ثار رجال الدين على سبينوزا ورموه بالزندقة ، قال الدكتور رابوبرت « وما كان أبعده عن الالحاد ، فقد كان مملوءا بحب الله ، حبا جاءه عبر الطبيعة ، فن كأس الطبيعة الطافحة

قد شرب الالوهية حتى ثمل ، وحتى أصبح لا يرى أمامه الا الله»[1]

وهذا الاعتذار يشبه ما اعتذر به المسلمون عن البسطامى والحلاج ، ومن اليهم من القائلين بوحدة الوجود

وغاية الاخلاق عند سبينوزا هي كمال الطبيعة الانسانية ، فكل علم لا يفضى الى ذلك فهو فى رأيه غير مفيد ، وهو يتفق مع الغزالى فى هذا المعنى الأخير : أى فى احتقار كل علم لا يوصل إلى السعادة ، وان اختلفت غايتهما بعض الاختلاف . فان غاية الاخلاق عند الغزالى هى السعادة الاخروية

ومع أن سبينوزا يعمل لكمال الطبيعة الانسانية ، فانه يرى أن التمييز بين النقص والكمال ، والخير والشر ، من الأمور الاعتبارية ، إذ ليس هذا التمييز الا صورة ننتزعها من الموازنة بين الاشياء . فاذا كان الغزالى يرى أن الخير هو ما أمر الله به ، والشر ما نهى الله عنه . فان سبينوزا يرى أن الخير هو النافع ، والشر هو الضار . وبعبارة أخرى : الخير هو ما يزيد قوتنا ويُعدُّها للعمل ، والشر هو ما يضعفها أو يضع فى سبيلها العوائق . وينتج من ذلك أن الخير يحدث الفرح ، والشر يحدث الحزن

ويبقى بعد ما سلف أن السعادة كل السعادة فى إكمال العقل

(١) مبادىء الفلسفة ص ١٦٦

لأنه فى رأيه هو وجودنا الحق ، ثم يقرر أن السعادة فى الواقع هى طمأنينة النفس ، التى تنشأ من معرفة الله ، فليس الجهل شراً إلا لأن صاحبه دائم القلق والاضطراب ، وليس للحكمة فضل أكثر مما تورث صاحبها من الأمن والسكينة ، وهو يتفق مع الغزالى فى هذه النقطة الأخيرة

ومن أظهر الفروق بين الغزالى وسبينوزا نفى الشخصية الانسانية ، ونفى المسئولية . وهذا واضح ، لأنه ما دام العالم هو الله ، والله هو العالم ، فلن يرى سبينوزا للمرء شخصية ، ولن يحكم بأنه مسئول . أما الغزالى فيرى وجود الشخصية الانسانية ، ويرى أهليتها للجزاء ، والثواب ، والعقاب ، وان كانت عنده أضعف من أن تدرك شيئاً بغير هداية الله

الغزالى وجسندى gassendi

ولد جسندى فى بروفنس بجنوب فرنسا سنة ١٥٩٢ اشتغل حيناً بتدريس البلاغة والفلسفة ، ثم صار قسيساً وسافر الى هولنده واشتغل بالطبيعيات ولا سيما الفلك والتشريح ، ثم دعى لتدريس الرياضيات بالمدرسة الملكية فى باريس سنة ١٦٤٥ ، وظل بها الى أن توفى سنة ١٦٥٥

وأهم ما يمتاز به جسندى هو دفاعه عن فلسفة ابيقور المتوفى سنة ٢٧٠ قبل الميلاد . وأبيقور هذا يرى أن غاية الأخلاق هي

السعادة الذاتيـة : فليست الفضيلة فضيلة إلا لأنها تجلب لذة ، وليست الرذيلة رذيلة إلا لأنها تحدث ألما ، ولا قيمة لأى عمل فى نفسه إلا بنسبته الى اللذائذ والآلام . وقد كان آبيقور يدافع عن مذهبه بطريقة تقربه من رضى العقلاء ، فكان يرى أنه لامانع من احتمال الآلام الوقتية فى سبيل ما يعقبها من اللذائذ الباقية ، ويحلل الفضائل الشاقة ، ويبين ما فيها فى نفس الأمر وحقيقـة الواقع من البعد عن الآلام ، لأن مافى الخروج على الفضيلة من اللذة ، لا يساوى ما يعقبه من الألم ، وكذلك مافى الصبر على ترك الرذيلة من فوات اللذة العاجلة ، يعوض على صاحبه كثيراً من الآلام التى يتعرض لها باقتراف المنكرات

ولـكن الناس فهموا مذهب ابيقور فهما غير صحيح ، فحسبوه فقط داعياً إلى اللذة ، وأخذوا يصفون الرجل الخليع بأنه (أبيقورى) فجاء جسّندى فأحيا تعاليم هذا المذهب ودافع عنه . وقد أثر جسّندى فى عصره تأثيراً شديداً . وحسبه أن كان من تلامذته موليير

والغزالى تكلم عن اللذة ، وعُنى بها كما فعل جسّندى ، ولـكن الفرق بينهما بعيد ، فان جسّندى يرى اللذة غرضاً من أهم أغراض الانسان . ولـكن الغزالى يراها صفة من صفاته ، فللعين لذة ، وللأذن لذة ، ولعضو التناسل لذة . ولا قيمة للحياة بغير هذه اللذات . ولـكن يجب أن تحد بحدود العقل والشرع ،

ومن السهل أن يعرف المرء مالهما من الحدود . ولكن جسندى يحد اللذة بما لا يصحبه ألم ولا يعقبه ألم . وهنا موضع الخلاف ، فان الزنا فى نظر الغزالى ليست له أضرار دنيوية ، ولكنه يذهب بصاحبه إلى النار .

الغزالى ومالبرانش malebranche

ولد مالبرانش فى باريس سنه ١٦٣٨ ومكث قسيسا خمسين سنة . وكان كل همه أن يوحد بين الدين والفلسفة . وقد توفى بعد مرض طويل سنة ١٧١٥

وأهم مؤلفاته recherche de la vérité و traité de morale

وهو من أنصار ديكارت والمعجبين به ، ومن القائلين بوجوب حرية الفكر الى أقصى حد . والقاعدة عنده أنه لا يصح أن نسلم تماما الا بالقضايا التى تظهر لنا واضحة الى حد أنه لا يمكننا أن نرفض التسليم بها ، والا تعرضنا لعتب العقل ، وتأنيب الضمير

والقاعدة الأخلاقية عند مالبرانش أنه لايصح أن نحب خيراً من الخيرات حبا تاما ، مادمنا نستطيع أن لانحبه بلا ندم . وهنا يتفق مع الغزالى ، فيقرر أنه لايجب أن نحب غير الله حبا تاما مطلقا . ونحن نذكر أن الغزالى قرر أن الحب المطلق لايكون لغير الله ، لانه لانظير له ، لا فى الامكان ولا فى الوجود

ويتفق مالبرانش مع الغزالى فى عدم الثقة بأحكام الحواس ، لانه

رأى البصر يختلف حكمه على الاشياء باختلاف القرب والبعد ، ويضيف الى ذلك شكه فى الوحدة الزمنية ، لانه يرى اليوم على طوله قصيراً بالنسبة الى الفرِح المسرور . ويرى الساعة على قصرها طويلةً بالنسبة الى المتألم الحزين

ويتفق الغزالى ومالبرانش فى فهم الرجل الخيّر . فاذا كان الغزالى يقرر أنه ماهلك امرؤٌ عرف قدره ، فان مالبرانش يقرر أن الانسان الخيّر حقيقة هو من لايريد أن يكون سعيداً الا بقدر مايستحق ، وبقدر ما تسمح له العدالة الالهية

ويفترق الغزالى ومالبرانش فى تقدير اللذة . فهى عند الغزالى خير الى حد محدود ، ثم تنقلب الى شر . وهى عند مالبرانش خير دائماً ، وان كان التمتع بها لايفيد دائماً ، لانها قد تصرفنا عن الله . ويختلفان كذلك فى فهم الالم ، فهو عند مالبرانش يكاد يكون خيراً ، وان كان شراً بالفعل . والغرض من ذلك تبرير الاحتمال . أما الغزالى فلا يخص الالم باهتمام خاص ، وان كان يرحب بكل مايناله من الاذى فى سبيل الله

***

وبعد هـذه المقارنات الموجزة . أوصى القارئ بان يعتبر هذا الباب لمعة يسيرة فى جانب مايجب من درس آراء الفلاسفة المحدثين ، وأحضه على إتمام ما فاتنى إتمامه ، والله بالتوفيق كفيل

الباب الرابع عشر

فى

آراء علماء العصر فى الغزالى

تمهيد

لا يوجد هذا الباب فى النسخة التى قدمت للجامعة المصرية، وإنما رأيت أن أكتبه بعد الامتحان، تتميما للسلسلة التاريخية، التى أردت أن أبين بها قيمة الغزالى فى مختلف العصور

ولقد عجبت حين رأيت العلماء يخشون من تدوين رأيهم فى الغزالى بجرأة وصراحة. وحجتهم فى ذلك أن الرأى العام لا يقبل فى الغزالى غير المدح الخالص، وللغزالى كسائر المؤلفين حسنات وسيئات، وهم لا يستطيعون أن يبدوا شيئاً من سيئاته فى العلانية، كما لا يمكنهم أن يذكروا حسناته مجردةً من النقد، وإلا كانوا عرضةً للسخرية والاستهزاء!

واذ كانت الخطة التى جريت عليها فى نقد الغزالى تقضى علىَّ بنشر ماله وما عليه، عملاً بالنزاهة العامية، فقد رأيت أن أثبت آراء أنصار الغزالى وخصومه فى هذا العصر، وأدونها كما

هى بلا زيادة ولا نقص ، معتمداً فى ذلك على محادثات خاصة دارت بينى وبينهم ، وعلى سند كتابىّ فيما يتعلق برأى حضرة صاحب العزة الأستاذ محمد بك جاد المولى وحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار . وأنا أشكر هذين الأستاذين بصفة خاصة: لأنى لم أر من غيرهما جرأة على التقدم بشىء مكتوب، وأعذر من أحجم عن الكتابة ، لأن الضجة التى قامت بعد الامتحان أفهمت من لم يفهم : أن حرية الفكر فى مصر لا ظهيرَ لها ولا نصير

١

رأى الدكتور منصور فهمى

الدكتور منصور عَلَم من أعلام هذا العصر ، وهو أستاذ الفلسفة فى الجامعة المصرية ، وقد لاقى بسبب آرائه ما يقدَّر لأمثاله عادةً من الظلم والاضطهاد . فصلته الجامعة فى سنة ١٩١٣ مجاراةً للجمهور الذى غضب وثار بسبب ما شاع إذ ذاك من أنه رمى النبى عليه السلام بحب الشهوات . وقد رأى حضرة صاحب الدولة سعد باشا زغلول أن حرمان الجامعة من مثل هذا العقل الناضج ظلم مبين ، فنصحه يومئذ بأن يصلى الجمعة فى الأزهر ليكون فى ذلك قطع لألسنة المرجفين ، وليستطيع دولته أن

يرجعه الى الجامعة ، ويصل من عمله ما انقطع . ولكن الدكتور منصور أبى أن يشهد العلماء له بالايمان ، لأن الله على إيمانه شهيد ، فشكر لسعد باشا رفقه به ، وظل بعيداً عن الجامعة بضع سنين . ثم رجع إليها عالى الرأس فى سنة ١٩٢١

وللدكتور منصور رسالة عن الغزالى نال بها الدكتوراه من جامعة باريس ، فلرأيه فى الغزالى قيمة خاصة . وهو لا يعد خصما للغزالى ولا نصيراً له ، وانما يشكره على ما أداه للعلم من الخدمات ، ويغفر له أغلاطه ، لأنه كأكثر المؤلفين لعهده يعتمد على ذاكرته ، والاعتماد على الذاكرة يورث التناقض والاضطراب

٢

رأى الشيخ على عبد الرازق

الأستاذ الشيخ على عبد الرازق رجل ممتاز من بين رجال هذا العصر ، وقد تلقينا عنه دروس الأدب والبيان فى الأزهر منذ اثنى عشر عاماً ، وأماليه فى علم البيان دليل على عقليته النادرة . ولو مضى فى التأليف لأصبح قليل الأمثال

وقد درس الغزالى بعناية ، وهو يقف ازاءه موقف الحياد . ويقرر أن الغزالى أوجد حركة فكرية فى العالم الاسلامى . أما

قيمة هذه الحركة فتختلف باختلاف الأنظار ، فمن الناس من يراها ضارة ، ومنهم من يراها نافعة ، ولا يزالون مختلفين

٣

رأى الشيخ يوسف الدجوى

الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى عالم من هيئة كبار العلماء ، وهو ذو نفوذ كبير فى الأزهر والمعاهد الدينية ، وأكثر العلماء الممتازين اليوم من تلامذته . ومن الخطأ أن تعرفه من مؤلفاته ، لانها مع قلتها ضعيفة ، ولأن الفرق بعيد بين ما يقوله فى دروسه الخاصة وبين ما يدونه فى تلك المصنفات ، إذ كان يريد أن يصل بكتبه الى أفهام الجماهير ، ومن هنا فقدت هذه الكتب قيمتها العلمية . ورسالته الصغيرة فى تفسير قوله تعالى (لا يسأل عما يفعل) تجعلنا نأسف كثيراً على هجره لهذا الأسلوب البديع ، وإقباله على خطة الترغيب والترهيب ، التى تذكرنا بكتاب الإحياء

ويكاد يعدّ الشيخ الدجوى خليفة للغزالى فى هذا العصر ، ففيه تقريبا كل خصائصه ، من القدرة ، والاخلاص ، وقوة النفوذ ، وبغض الفلسفة ، والحذر من أن يتجاوز العقل ماله من الحدود

٤

رأى الأستاذ جاد المولى بك

الأستاذ محمد بك جاد المولى من نوابغ هذا العصر . تخرّج من دار العلوم سنة ١٩٠٦ وكان ترتيبه الثانى ، فسافر فى أول بعثة أرسلها دولة سعد باشا زغلول حين كان وزيرا للمعارف فى سنة ١٩٠٧ فقضى ثلاث سنين فى الكلية الجامعة بمدينة ردنج . ثم عين فى سنة ١٩١٠ مساعدا لأستاذ اللغة العربية بجامعة اكسفورد وقضى بها ثلاث سنين . ثم عاد فى سنة ١٣ فعين فى قلم الترجمة بوزارة الأشغال فقضى بها ثلاث سنين . وفى سنة ١٦ نقل الى الديوان العالى ، وظل فى خدمة البيت المالك الى سنة ٢٢ حيث نقل مفتشا بوزارة المعارف العمومية

وقد انتدبته الوزارة مع حضرة الأستاذ عبده خير الدين ليشتركا فى الامتحان الذى تقدمت له فى الجامعة المصرية . ويذكر الجمهور أن الاستاذ جاد المولى بك كان يتأجج غيرةً على الغزالى ، وقد ناقشنى بشدة فى كل الموضوعات التى خالفت فيها الغزالى . فبدا لى بعد الامتحان أن أحادثه عن الغزالى من جديد ، فتوجهت إلى منزله لهذه الغاية ، فتفضل وأطلعنى على المحاضرات التى كان

ألقاها عن الغزالى فى سنة ١٩١٨ فرأيته يفضله على كثير من الفلاسفة المحدثين منهم والقدماء .

والاستاذ جاد المولى بك لا يشك فى أن المسلمين انتفعوا بالتصوف أيما انتفاع ، وبقدر نفع التصوف يقدّر جهد الغزالى فى نشره وإذاعته . وقد كان الاستاذ جاد المولى بك يستشهد وهو يحدثنى عن ذلك بما كتبه الاستاذ الغمراوى بك فى كتاب الغرائز ويقول: إن الصوفى هو كالمعلم سواء بسواء ، فكما يجب على المعلم أن يعمل لاستئصال الغرائز السيئة ، وتوجيه الغرائز الحسنة الى النواحى النافعة ، كذلك يجب على الصوفى أن يراقب حركات المريدين . لأن التصوف ليس إلا رياضة للنفوس

وبالرغم من عناية الغزالى بالتصوف ، فان الأستاذ جاد المولى بك يراه من المجددين ، وقد سألته عن معنى هذا التجديد ، فقرر أنه يريد به النهوض بالأفكار الاسلامية التى آمن بها الغزالى ، والتى كاد يقضى عليها تيار الفلسفة اذ ذاك

٥

رأى الشيخ عبد العزيز جاويش

الأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش إمام من أئمة المسلمين فى هذا العصر . وهو معروف فى جميع الاقطار الاسلامية ، وله أبحاث

فى فلسفة التشريع تعزُّ على من رامها وتطول ، وقد استفاد من النفى والاضطهاد أيما استفادة ، ووقف بذلك على كثير من عقليات الأمم والشعوب ، وعدَّه الانجليز بين أعدائهم الألداء فى الحرب العالمية . ولقبوه بالرجل الخَطِرِ المُخيف

ويعد الشيخ جاويش من خصوم الغزالى : فهو أولا يؤمن بقوة الغزالى ومتانته ، ولكنه بعد ذلك يعجب من تساميه الى منزلة المجتهد المطلق ، مع أنه كان « جاهلاً » بفن الحديث . ويرى الشيخ جاويش أن جهل الغزالى بهذا الفن هو المقتل الوحيد لقيمته العلمية ، ولن ينفعه بعد ذلك ذيوع اسمه فى العالمين . ويقرر الشيخ جاويش ان الغزالى متناقض ، وأنه من الصعب تحديد آرائه لأنها قد تختلف فى الكتاب الواحد ، ولانه لم ينكر شيئًا الا وقد قال به فى بعض أحواله :

٦

رأى الكونت دى جالارزا

ظل الكونت دى جالارزا أستاذا للفلسفة فى الجامعة المصرية ست سنين ، وهو نادرة النوادر فى كرم الاخلاق . وله مؤلفات فى الفلسفة لاعيب فيها غير الغموض ، وعذره فى ذلك أنه أجنبى عن اللغة العربية .

وهو من أشد أنصار الغزالى ، ويراه المسلم الحق بين فلاسفة المسلمين ، ويعجب كثيرا بوجهته الروحيه ، وله على الغزالى مأخذ واحد : وهو منعه الناس من ورود مناهل العلم ، مع أنه لم يمنع نفسه شيئاً من العلوم . ويرى أن الغزالى حرّم بذلك من كانوا أهلا للاستفادة ، وان كان عصم من ليسوا أهلا للانتفاع ، من سواد الناس . والغزالى فى رأيه غاية الغايات فى الاخلاص

٧

رأى الدكتور العنانى

الدكتور على العنانى من كبار الاساتذة فى هذا العصر ، وقد مكث فى ألمانيا نحو عشر سنين ، فتمكن بذلك من أن يدرس الفلسفة دراسة عميقة ، وهو من أساتذة الجامعة المصرية

والدكتور العنانى ينظر الى الغزالى نظرة خاصة ، من حيث تطور الفكر الاسلامى . فهو يرى أن الفكرة الاسلامية كانت تعتمد أولا على الوحى ، ثم دخل العقل على أنه مفسر وموضح ، ولكنه مازال يقوى وينمو حتى كاد يستقل عن الوحى استقلالا تاما ، فرأى الغزالى أن يقف فى وجه هذا الاستقلال ، فأخذ يحارب الفلاسفة ويناضلهم حتى أخمل ذكرهم فى الشرق ، وبذلك انتقلت الفلسفة الى الاندلس ، ووجدت هناك مرعاها الخصيب

والدكتور العنانى يرى أن الغزالى سلك تلك السبيل خضوعا للرأى العام فى البداية ، ولكنه تأثر بما دعا اليه فى النهاية ، وعاد حرباً للعقل ، وسلاما للمبادئ الروحية . وهو لايصدق ماذكره ابن تيمية من رجوعه الى ظاهر الشريعة ، فان الرجل كان أُخذ أخذاً بمذاهب الصوفية ، وان كان لاينكر مع ذلك أن له آراء كان يخفيها ويضن بها على الناس

٨

رأى الشيخ عبد الوهاب النجار

الأُستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار نادرة هذا العصر ، فقد يندر أن يفوته شئ من معارف هذا الجيل . وهو أعرف الناس بروح العرب والاسلام . وقد درس الغزالى دراسة جيدة . وله على هذا الكتاب ملاحظات يراها القارئ فى الهوامش ، وهى ملاحظات سديدة لم نشأ أن نحرم منها القراء . وقد قابلته أخيراً فذكر لى أنه فاته أن يضع ملاحظة عما أخذته على الغزالى من تحريم الغناء فى أكثر الأحيان ، وهو يرى أن الغزالى محق فيما يقرر من الاكتفاء باباحة الغناء حين لا يوجد موجب التحريم . لأن مهنة الغناء مجلبة للشقاء ، وعلى الأخص حين تضطرب الأحوال

ورأى الشيخ النجار فى الغزالى رأى وسط : فهو يرى أنه فى جملته لا نظير له ، وأن الحكم بتناقضه فيه شئ من المبالغة ، لأن الرجل كان ينظر الى الأشياء من جهات متعددة ، وكان لسنه فى ذلك أكبر تأثير . وينكر عليه المبالغة فى متابعة الصوفية ، ويضرب المثل بما يبيحه للفقير من تمزيق الثوب قطعا مربعة تصلح للترقيع ، ويقول : هذا الفقير إما أن يكون فى حالة صحو أو فى حالة ذهول : فإن كان ذاهلاً فهو معذور ، ولا حكم له ، وان كان صاحياً فهو عابث ، لأنه ما معنى تمزيق الثوب بطريقة خاصة تجعله صالحاً لأن يرقع به سواه ؟ إن هذا إلا إتلاف !

٩

رأى الشيخ حسين والى

الأستاذ الشيخ حسين والى من كبار العلماء ، ومؤلفاته تمتاز بالوضوح والبيان ، وعلى الأخص (كتاب التوحيد) الذى ظهر منذ سنين ، ولولا أنه شغل بالادارة عن التأليف لكان لمصنفاته تأثير عظيم فى بسط آراء المتقدمين فى الأصول والتوحيد والأخلاق

ويعدّ الشيخ حسين والى من أشد أنصار الغزالى ، فهو يدافع عن وجهته فى التصوف ، لأن التصوف فى رأيه لا يخرج عن الأصول الاسلامية ، والغلوّ الذى نراه فى الإحياء ليس إلا تمكينا

للمعانى التى يدعو اليها الغزالى . وهو لايرى أن الغزالى قصد بمؤلفاته فئة من الناس ، وانما يرى أنه كتبها لجميع الطوائف ، وكل فريق يأخذ بقدر استعداده ، وبقدر مايصلح له من أنواع الخلال . والغزالى عنده معذور فيما وقع له من ضعيف الحديث . لأنه لم يرد غير تأييد وجهة نظره بما اتفق له من الأحاديث والأخبار والآثار . ومن البعيد أن يضع حديثا فى كتاب من كتبه وهو يعلم انه موضوع أو ضعيف ، مع ماعرف عنه من الأمانة والاخلاص

١٠

رأى الشيخ عبد الباقى سرور

الاستاذ الشيخ عبد الباقى سرور من العلماء الأفذاذ ، الذين جمعوا بين المعقول والمنقول . وكتابه عن «ماضى الاسلام وحاضره» الذى نشره فى جريدة الأفكار من أدق ما كتب المصلحون فى العهد الأخير . ويندر أن يظهر كتاب ولا يطلع عليه ، فهو لذلك أعرف العلماء بالحركة الفكرية ، وأعلمهم بما يجرى فى عالم السياسة ، والفلسفة ، والاجتماع . وهو فوق ذلك أغير الناس على وطنه ودينه ، وإنه لعلى خلق عظيم

ويرى الشيخ عبد الباقى أنه ليس للغزالى مذهب خاص ، وانما يتنوع دفاعه بتنوع الرأى الذى يدافع عنه ، وهذا منشأ مافى كتبه

من تباين الآراء: فقد كان يحتج بأصول المعتزلة والأشعرية والكرامية، وهو يناقش الفلاسفة، ويريد بهذا أن يجمع فى يده كل الاسلحة الفكرية ليدفع بها طغيان الفلسفة الذى كان يخشى على الدين من تياره. والشيخ عبد الباقى يرى ان التصوف فى كتب الغزالى انما كتب للصوفية، لا لجميع الناس، كما ظن ذلك كثير من الباحثين. ودليل هذا رجوعه فى اخريات أيامه الى دراسة كتب السنة حتى ليذكرون انه مات والبخارى على صدره.
ولعدم اختصاص الغزالى بمذهب خاص وجهة شريفة: هى تحرّى الحق والبحث عن عناصر القوة فيما كان لعهده من مختلف المذاهب. وهذه الوجهة فيما يرى الشيخ عبد الباقى ضمان للسلامة من التقاليد المذهبية، التى تغل حرية الفكر، وتحرم الباحث من الانتفاع بثمرات العقول

١١

رأى الشيخ احمد أمين

أحسن مايوصف به الاستاذ الشيخ أحمد أمين أنه رجل نافع، فان كتبه ورسائله مفعمة بالآراء الجيدة، التى تغرس الحياة فى نفس المستفيد. وعمله فى لجنة التأليف والترجمة والنشر عمل الرجل

الذى يعرف أن لا حياة لأمته بغير العلم ، ولهذه اللجنة أثر كبير فى الحركة العلمية ، ولأعضائها فضل عظيم على شباب هذا الجيل

ويرى الشيخ احمد أمين أن الغزالى حوّل الناس عن الاشتغال بالفلسفة ، ورجعهم الى الكتاب والسنة ، وأعلى شأن التصوف والصوفية . وحبب ذلك الى الناس . وأسلوبه فى الترغيب والترهيب أنفع الأساليب فى هداية الجماهير . ويرى معنا أن الغزالى لم يضع طريقة نافعة لخلوص المرء من شكوكه . وأن آراءه فى الأخلاق لا تنفع فى هذه الايام ، لأن المدنية الحديثة تتطلب قوة التنازع ، وهو يفضل السلامة على كل شىء !

خاتمة الكتاب

الآن ، وقد قدمنا للقارئ ما وفقنا اليه فى درس الأخلاق عند الغزالى ، نوصيه بأن يرجع إن شاء الى كتاب الاحياء ، وكتاب الميزان ، وكتاب المنهاج ، وكتاب المستصفى ، وإلى المصادر الأجنبية التى ذكرناها فى غير هذا المكان ، والى كل ما يستطيع الوصول اليه مما يتعلق بالغزالى ، ليعرف صحة ما فى هذا الكتاب من مختلف الأحكام

ونحن لا ننكر أننا كنا قساة في نقد الغزالي ، ولكننا نرجو أن يتنبه القارئ أيضاً إلى ما كشفنا الغطاء عنه من حسناته .

ونحب أن يذكر الذين أسرفوا في اللوم عند ما علموا ببعض ما يحتويه هذا الكتاب ، أننا لم نكتب لإرضائهم أو إغضابهم ، وإنما وضعنا نصب أعيننا غاية واحدة ، هي خدمة العلم والتاريخ ، خدمة خالصةً لوجه الله ، لا للناس

وأحب أن أسجل هنا كذلك ، أني ترددت فيما نصحني به حضرات الأساتذة من رفع بعض المسائل التي ثار من أجلها الخلاف ، فلم أرفع منها شيئاً ، وإنما أضفت إليها بعض البيان ، فليس على لجنة الامتحان أية مسئولية ، وإنما أنا وحدي المسئول

*
* *

أما بعد فإني أسأل الله أن يجزيني بفضله على ما قدمت في سبيل العلم والدين من صادق المجهود ، وإليه وحده أرفع الرجاء ، فقد مُنِيَ الناس بالجحود ، ونكران الجميل

« رَبَّنا إِنَّنَا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنوا بِرَبِّكُمْ فآمَنّا . رَبَّنا فاغفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وكَفِّرْ عَنّا سَيِّئاتِنا وتَوَفَّنا مَعَ الأَبْرَارِ . رَبَّنا وآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا على رُسُلِكَ ولاَ تُخْزِنا يَوْمَ القِيامَةِ . إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ المِيعَادِ »

الاسلام والاخلاق *

يقول المرجفون إني قررت أن الدين الاسلامى دين فتح لا دين أخلاق . ولولا ضعف ملكة النقد فى مصر ، لما شاعت هذه الاكذوبة ، ولما وجدت من يتلقاها بالقبول . فليس من الجائز أن رجلا مثلى قضى فى الازهر خمسة عشر عاماً يحكم بين الجماهير فى دار الجامعة المصرية بان الدين الاسلامى ليس دين أخلاق ، وهو يعلم على الأقل أنه يجد معارضين أشداء من طلبة الازهر وعلمائه ، وقد حضر منهم يومئذ عدد غير قليل

وها أنذا أشرح للقراء أصل هذه الأكذوبة التى تناقلها الناس ، ليعلموا الى أى حد يجرؤ المتقولون على تشويه الاحاديث :

قلت فى رسالتى « إن ما كتبه الغزالى عن التوكل صريح فى الدعوة إلى الرهبنة ، وقطع العلائق مع الناس ، والتدرج على احتمال الظمأ والجوع ، والاقتناع بان الموت من جملة الارزاق » فلما سألنى حضرات الاساتذة الممتحنين عما يؤيد هذا الحكم من كلام الغزالى ، قدمت لهم قوله « فان قلت فما قولك فى القعود فى البلد بغير كسب : أهو حرام أو مباح أو مندوب ؟ فاعلم أن ذلك ليس بحرام ، لأن صاحب السياحة فى البادية إذا لم يكن مهلكا نفسه ، فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه ، حتى يكون فعله حراماً . بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتأخر عنه ، والصبر ممكن الى أن يتفق . ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد اليه ففعله ذلك حرام ، وان فتح باب البيت وهو غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له .

* نشرت هذه الكلمة فى المقطم بتاريخ ٤ يونية سنة ١٩٢٤

ولكن ليس فعله حراماً إلى أن يشرف على الموت ، فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب »

وهنا لا أكتم القارىء انى حملت على الغزالى حملة شديدة ، ورميته بجهل أسرار الدين ، وسخرت من الآداب التى وضعها للمتوكل حين يخرج من بيته : إذ يدعوه الى أن لايترك فى البيت متاعاً يحرص عليه السُّراق ، والى أن لايحزن اذا سرق متاعه بل يفرح اذا أمكنه ، والى ان لايدعو على السارق الذى ظلمه بالأخذ ، فان فعل بطل توكله ودل على تأسفه على مافات ، ويدعوه الى ان يغتم لأجل السارق وعصيانه وتعرضه لعذاب الله ، ويشكر الله اذ جعله مظلوماً ولم يجعله ظالماً !

ثم قلت فى التعليق على هذه الآداب الميتة « وما ادري ما الذى انسى الغزالى ان يحض المتوكل على ان يترك باب البيت مفتوحاً وان يعلق عليه لوحة مكتوباً فيها بخط واضح جميل : من اراد ان يأخذ شيئاً من هذا البيت فهو مغفور الذنوب ، بل مجزيٌ بما مكّن صاحبه من صنع المعروف » ! !

عند ذلك تذمر الحاضرون من العلماء ، وقال فضيلة الاستاذ الشيخ اللبان: لاعيب على الغزالى فى ذلك لأن الدين الاسلامى دين أخلاق ، فقلت : وهو قبل ذلك دين فتح وامتلاك ، وليس من الاخلاق فى شىء ان يجرد المرء بيته حتى لايبقى فيه متاع يحرص عليه السراق ، فهل جانبت فى ذلك الصواب ؟

والظاهر ان حضرات العلماء فهموا من الفتح التخريب ، والاعتداء على الشعوب . كلا ياهؤلاء ! الدين الاسلامى دين فتح ، رضيتم ام كرهتم ، وللفتح شروط وآداب سنها الدين الحنيف ، وانتم حين تنفرون من كلمة « الفتح » إنما تجارون الاجانب الذين يتوددون اليكم بوصف

الاسلام بالقناعة والرضى بالقليل . وهذا خطأ صراح ، فان الدين الاسلامى ابعد الاديان عن الزهادة ، وابغضها للخمول ، ولا حرج على الاسلام فى ان يرغب اتباعه فى امتلاك ناصية العالم ، فان هذا امل نبيل ، ولم يحدثنا التاريخ عن امة قوية ، او ملة قوية ، وضعت حداً لمطامعها فى الحياة ، وانما ترغم الأمم الضعيفة ، او الملل الضعيفة ، على ان تحدد آمالها واطماعها بضيّق الحدود !

ستقولون : إن رسول الله وأصحابه لم يأمروا المجاهدين بحرب القسيسين والرهبان ، بل أمروهم بالرفق بهم ، والابقاء عليهم ، كما أمروهم بعدم التعرض للأطفال والنساء والكهول . وأقول لكم : ان هذه المعاملة لاتدل على أن الاسلام ليس دين فتح ، ولكنها تدل على أن الاسلام كان أحكم من أن يبدأ فتوحاته بارهاق النفوس وتنفير القلوب . وهذه الملاينة ، وذلك الرفق ، من الأسلحة الماضية فى استلال السخائم ، والتبشير بالدين الجديد . وكذلك دعا النبي الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادل خصومه بالتى هى أحسن ، حتى ظفر بالفتح المبين

هذا ماأريد من أن الاسلام دين فتح وامتلاك . ولو بعث رسول الله اليوم ، ورأى ماأنتم عليه من قلة وذلة ، لبلل رداءه بدموعه ، ولكان له مع حضرات العلماء موقف يرد الولدان شيبا . أفتحسبون أن قوله عليه السلام (بعثت لأتمم مكارم الاخلاق) معناه أنه جاء لينشر علينا ، ويذيع فينا ، تلك المبادىء السقيمة ، التى دافع عنها الغزالى وأمثاله ، حين تكلموا عن التوكل والصبر والخمول ، وتابعهم فى ذلك مع الاسف علماء هذا الجيل ، فى غير خجل ولا استحياء ؟

انا لا انكر أن التوكل فضيلة ، ولكن انكر ان يكون معناه

الاقتناع بان الموت من جملة الارزاق ، وانما التوكل ان تقتحم المصاعب معتمداً على الله (وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) والصبر فضيلة . ولكن على ان يكون صبراً على الجهاد لاصبراً على الضيم . والخمول فضيلة . ولكن على معنى ان تقبل على عملك غير حاسب للشهرة حساباً . فاما مانقل الغزالى من ان بعض العلماء كان يترك الدرس اذا زاد الطلبة عن ثلاثة إيثاراً للخمول ، فهى خطة سلبية ، وهروب من الواجب ، تعالت الاخلاق عما يصفون !

ومن العجيب ان نجد العلماء يضربون الامثال بزهد النبي وخلفائه ، وكان عليهم ان يعرفوا ان الزهد من النبي وخلفائه فضيلة قضت بها الضرورة ، وها نحن اولاء نرى بأعيننا كيف تنظر الجماهير الى مايملك رؤساء الحكومات نظر المحنق المغيظ ، فلا عجب ان يتنبه رسول الله صاحب الخلق العظيم الى مافطرت عليه الجماهير من حسد من يملكون زمام الامور . ولو قضت الظروف إذ ذاك بان يكون النبي فرداً من جماعة يسوسها غيره ، لرايناه ينمى ثروته ، ويسعى جاداً فى استغلال مايملك من ارض او مال . . على انى اعلم من سيرة رسول الله ما يدل على انه كان ينظر الى الدنيا بعين ملؤها الحب والاعزاز ، وحسبنا أن نتلو قول أصدق القائلين « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذا النار » فهل ترونه قال : آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنتين أو حسنات ؟ ! أو ليس من جلال الدنيا أن تسوى بالاخرة ؟

من أجل هذا ترونى أنكر أن تكون « الأخلاق » فى الاسلام معناها الرضى بالموجود وان قل وهان ، ومن أجل هذا عارضت الغزالى بعد ما عاشرته فى مؤلفاته بضع سنين ، فماذا تنقمون منى بعد هذا البيان ؟

الى الدكتور زكى مبارك

قصيدة لحضرة الشاعر المبدع السيد حسن القاياتى

ماذا اعتزمتَ وما نويتَهْ ... العلم أيْسَرُ ما وعيتَهْ

اليومَ رُحتَ بغبطةٍ ... فاهنأ زكىُّ بما جنيتَهْ

للكون سرٌّ لو سمو ... تَ إليه فى دَعةٍ حويتَهْ

لم تقضِ مصرُ دَيْنَها ... للعلمِ إلا مُذْ قضيتَهْ

يسمو برأسك أنه ... للحق أكثرَ ما حنيتَهْ

قيل الضلالُ وإنما ... نور الهداية ما اجتليتَهْ

دينٌ عصيتَ بهِ النُّهى ... والعلمَ كالزيغ اتقيْتَهْ

إن الجمود مسوّدٌ ... أطربتنى لمّا نَعيتَهْ

لا تَشْكُ زفرة حاقدٍ ... من صدره أنت اشتويتَهْ

كم يحسدون محسّدًا ... فى علمِهِ، فهل اجتديتَهْ ؟

تِهْ بالكتاب فإنهُ ... عن قلب أوّابٍ رويتَهْ

للعلمِ عرشٌ لم تزلْ ... تسبى النهى حتى رَقيتَهْ

إيهٍ لخدنك إنّهُ ... أَصغى لسحرك فاستبيتَهْ

حسن القاياتى

للدكتور زكى مبارك

تحت هذا العنوان نشرت جريدة الأفكار الغراء فى يوم الأحد ١٨ مايو سنة ١٩٢٤ الكلمة الآتية :

« كان منتصف الساعة الخامسة بعد ظهر الخميس الماضى موعد امتحان الاستاذ زكى مبارك فى الجامعة المصرية لاحراز شهادتها النهائية ، فما دنت الساعة الرابعة حتى غص مكان الامتحان بجماعة من كبار العلماء والكتاب وطلبة الجامعة وطلبة المدارس العالية ومحبى العلم وأنصاره.

وما آذنت ساعة الامتحان حتى أخذ أعضاء اللجنة أماكنهم ، وهم حضرات الأساتذة الشيخ عبد الوهاب النجار ، والدكتور أحمد ضيف ، والأستاذ عبده خير الدين ، وصاحب العزة محمد بك جاد المولى . وكانت رياسة اللجنة للدكتور منصور فهمى . وجلس أمامهم الاستاذ الشيخ محمد زكى عبد السلام مبارك ليمتحنوه فى رسالته « الاخلاق عند الغزالى » وموضوعيه اللذين اختارهما ، وهما « الرق فى الاسلام » و « الصور الشعرية »

بدأ الاستاذ النجار يلقى على الممتحَن السؤال إثر السؤال ، وكانت أسئلته غاية فى الدقة ، وكذلك كانت الأجوبة ، الا فى بعض مواضع نادرة جداً ، كان فيها الشيخ زكى عليما بسبل التخلص منها ، خبيراً بما يقبل فيها من الأعذار . ثم بدأ محمد بك جاد المولى مندوب وزارة المعارف يسأل : فكانت أسئلته أسئلة عالم محقق ، عنى بدرس الرسالة وبدرس الغزالى معاً ، فكان إعجاب السامعين بها شديداً جداً ، وكذلك كان إعجابهم بالمجيب فى أكثر ماسئل عنه . ثم تتابع السائلون حتى تم الامتحان فى الرسالة وفى الموضوعين

ولقد كان موقف رئيس اللجنة وهو الدكتور منصور موقف الاستاذ الرحيم المشفق بتلميذه ، الطروب المعجب به معاً . كان رحيما مشفقا حين تشتد الأسئلة وتقسو ، وكان طروبا معجبا حين يرى تلميذه قد خلص منها على فرط شدتها خلاص الحر من نسج الفدام

أما الشيخ زكى مبارك ، أما زكى أفندى مبارك ، أما الدكتور زكى مبارك ، فقد دل الممتحنين على الإحاطة التامة بما درس ، وقوة الترجيح فيما رأى ، وصحة المذهب فيما ذهب . ورأوا فيه فوق ذلك ثباتا وجرأة قلما تتوفر لكل طالب فى موقف كهذا الموقف . ولقد كانت أجوبته دليلا على أنه حر الفكر ، حر الضمير ، لا يتقيد إلا بما يحس أن العقل يطالبه بالتقيد به ، ولا يذعن إلا بما يؤمن بأن العلم يكلفه الاذعان له .

فلقد دارت أسئلة حول القديم والجديد ، أو حول الاطلاق والتقييد وكان انصار القديم كثيرين ، وأنصار الجديد قليلين ، او كانوا كثيرين ولكن لا يحبون ان يظهروا ، ولكن لم يجد زكى مبارك حرجا في ان يظهر ، ولم يجد حرجا في ان يصدم من انصار القديم ، ولم يجد حرجا فى أن يلين لهم حين بصر بهم يغضبون ، ورآهم يثورون ، ليهدئ من ثورتهم ، ويخفف من غضبهم ، فدل بهذا على انه حاذق ، لا يغفل المداراة ، حين لا تكون سبيل غير المداراة

كذلك كان صديقنا زكى مبارك فى هذه الجلسة التى عقدت لامتحانه ، ومنحه شهادة الدكتوراه . وهل كان غير ذلك وهو طالب فى الازهر الشريف وفى الجامعة المصرية ؟ فنحن نهنىء الاستاذ بهذا النجاح ، ونهنىء الجامعة بأن كان زكى مبارك ابنها الخامس الذى أحرز شهادتها العليا بدرجة « جيد جداً » سائلين الله ان يكثر لها من هؤلاء الأبناء البررة الذين يخدمون العلم ، ويخدمون الأمة ، بخير ما تخدم به الأمم »

فهرس

« الغلطات المطبعية »

صحح هذا الكتاب بغاية العناية ، فلم تظهر فيه إلا غلطات معدودة ، لا يتغير بها المعنى ، ويكفى أن ننبه على أنه جاء فى ص ١٣٦ (من يلتفت الى غيره) وصوابها (من لا يلتفت الى غده) وفى ص ١٤٥ (الإعداد) وصوابها (الأعداد) وفى ص ١٢٨ (ما يثبتون به حسن) وصوابها (ما يثبتون به أنه حسن) وفى الباب الأول وضعت كلمة الفصل الثالث موضع الفصل الثانى . وما عدا ذلك لا يفوت القارئ والفضل فى ندرة الغلطات المطبعية فى هذا الكتاب يرجع الى حسن النظام فى المطبعة الرحمانية التى كان لعمالها نصيب وافر فى إدراك ما يغفل عن المصحح فى بعض الأحيان

المراجع

تنقسم مصادر هذا الكتاب إلى عربية وفرنسوية . أما المصادر العربية فأهمها مؤلفات الغزالى ، وهى : إحياء علوم الدين ، ومنهاج العابدين ، والاربعين فى أصول الدين ، وميزان العمل ، وجواهر القرآن ، والادب فى الدين ، ومشكاة الانوار ، ونصيحة الملوك ، والمنقذ من الضلال ، وإلجام العوام ، وخلاصة التصانيف ، ورسالة الطير ، وكيمياء السعادة ، ومكاشفة القلوب ، وقواعد الطريق العشرة ، والاملاء على ما أشكل من الاحياء ، والكشف والتبيين ، والقسطاس المستقيم ، ومقاصد الفلاسفة ، والتفرقة بين الاسلام والزندقة ، والدرة الفاخرة ، والمستصفى فى الاصول

ومما يتعلق بالغزالى من المصادر العربية : طبقات الشافعية الكبرى للسبكى ، وشرح الاحياء للزبيدى ، وقوت القلوب لابى طالب المكى ، والرسالة القشيرية ، ومجلة الهلال ، والسعادة لابن مسكويه ، وتهذيب الاخلاق له ، وفلسفة ابن رشد لفرح انطون ، والذخيرة فى المحاكمة بين تهافت الفلاسفة لعلاء الدين الطوسى ، وحياة الغزالى للدكتور زويمر ، وفتاوى ابن تيمية ، وأعلام الموقعين لابن القيم ، وفصل المقال لابن رشد ، ومحاضرات الكونت دى جالارزا فى الجامعة المصرية سنة ١٩و٢٠ . ومبادئ الفلسفة تعريب احمد امين ، والملل والنحل للشهرستانى ، ومعجم البلدان لياقوت

وأهم المصادر الفرنسوية:

gazali. par Carra de Vaux

études sur la philosophie d'Averroës concernant son rapport avec celle d'Avicenne et gazali. par Moher

traité d'éschatologie musulemane. par lucien gautier

encyclopédie de l'islam (20e livre)

histoire de la philosophie. par paul Janet

cours de philosophie. par e. boirac

averroës. par e. renan

مؤلفات

زكي مبارك

البدائع

الطبعة الأولى

حب ابن أبي ربيعة وشعره

الطبعة الثانية

الصور الشعرية

تحت الطبع

مدامع العشاق

تحت الطبع